التعليق على

القواعد الحسان المُتَعَلِّقَة بتفسير القرآن

تأليف:

العلامة مُحَمَّد بن صالح العثيمين (رَحِمَهُ الله)

(1347 - 1421 هـ)

لِفَضِيلَة الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ:

يوسف الساكت

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

المجلس (1)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

سنبدأ الليلة بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ في قراءة شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ. وهذا الكتاب أيها المكرمون جمع فيه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وذكر مجموعةً من القواعد التي تعينك على فهم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى فهم تفاسير القُرْآن. وقد بين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ هذا في مقدمة كتابه؛ فهذه القواعد مهمة لفهم كتاب الله وفهم تفاسير أهل العلم. وسنعلق على ما ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ، وعلى شرح الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لما ذَكَرَ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

والتعليق سألاحظ فيه أمورًا:

الأمر الْأَوَّلُ: أن يكون التعليق على ما قد يُستشكل ويصعب فهمه؛ لأننا نريد أن ننجز هذا الكتاب في الوقت المحدد، فإن علقنا على كل ما قيل فيه ربما لم نستطع أن ننجزه في الوقت، فحينئذٍ يُقتصر في التعليق بِإِذْنِ اللهِ على ما قد يُستشكل فهدى.

الأمر الثَّانِي: أيضًا نعلق بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بيان بعض الأمثلة إن لم يمثل الشيخ للقاعدة، فالشيخ ربما يذكر القاعدة ولا يمثل لها، فحينئذ لا بد من التمثيل. أما إن مثل الشيخ للقاعدة فلن أمثل لها، وسأقتصر على أمثلة الشيخ.

الأمر الثَّالِث: وربما أيضًا في التعليق أضيف بعض القواعد للقاعدة التي ذكرها، فثم قواعد يذكرها وهناك قواعد قريبة منها في المعنى، فأذكرها لقرب القاعدتين. وهذا قد يكون من كتاب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ نفسه، فالشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه التفسير ذكر جملة من القواعد، ومنها قواعد قد ذكرها هنا، ومنها قواعد تتعلق بالقواعد التي ذكرها هنا وتتصل بها، وهذا سيظهر معنا في ثاني قاعدة نقرأها اليوم بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الرَّابِع: وما كان واضحًا من كلام الشيخ ولا يُستشكل من كلام الماتن أو من كلام الشارح فإننا لا نعلق عليه.

والقراءة أيها المكرمون سيكون فيها شيء من السرعة حتى نستطيع أن ننجز الكتاب في الوقت المحدد. نقرأ في الصفحة السابعة.

(المتن)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، حمدًا كَثِيْرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى. وأشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وأصحابه ومن بهداهم اهتدى وَسلَّمَ تسليمًا كَثِيْرًا.

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هديُ محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور محدثاتها. وحيث كان خير الحديث كتاب الله فإن فهمه وتدبره والعمل به تصديقًا للأخبار وعملًا بالأحكام أنفس ما بذل المرء فيه أنفاسه، وأنفع ما أمضى فيه أوقاته، ولهذا كان علم

تفسير كلام الله تَعَالَىٰ أهم العلوم وأفضلها، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا بذلك القرآن والعلم والعمل جميعًا.

ولما كان الرجوع إلى أصول العلم وقواعده ييسر لطالب العلم الوصول إلى فروعه وجزئياته ويفتح له آفاقًا واسعة في التطبيق والتخريج، وأدرك ذلك شيخنا عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ كتب ما تيسر من قواعد التفسير ما بلغ إحدى وسبعين قاعدة، اشتملت على قواعد مهمة وفوائد جمة، يظهر ذلك لمن قرأها بتدبر وتمهل. واللهَ أسأل أن ينفع بها مؤلفها وقارئها ومن أعان على نشرها، إنه جواد كريم.

كتبه محمد الصالح العثيمين.

قال المؤلف فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في مقدمة كتابه (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القُرْآن):

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها. فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله: ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة.

(الشرح)

هذا ما ذكرته لكم من كون هذه القواعد تعين عَلَىٰ فهم التفاسير. ومن التفاسير التي تعين على فهمها تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ. وسأذكر بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أثناء قراءة القواعد أمثلة للقواعد من تفسيره، وبذا يظهر أن هذه القواعد بها تفهم ما قاله رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في تفسيره. فهذه القواعد تعين على فهم كتاب الله واستنباط الأحكام منه، وتعين كذلك على فهم تفاسير أهل العلم.

(المتن)

أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافع، والهدى الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله، لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، ويهيأ الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود، لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرب منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل، ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه.

التعليق

قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على أشرف الأنبياء والمرسلين، نَبِيِّنَا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أَجْمَعِيْنَ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أخذ المؤلف شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته- هذه القواعد في رمضان، وهو يقرأ القرآن -كما يظهر-، ابتداءً من أول رمضان إلى سادس شوال في أيام قراءة القرآن وأيام الصوم، ثم إن ثناءه عليها ليس بغريب؛ لأن ثناء أهل العلم على مؤلفاتهم لا يقصدون به الفخر أو التفاخر على الخلق، وإنما يقصدون شد الناس إلى قراءتها والالتفاف حولها.

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لو أعلم أن أحدا تناله الإبل أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه؛ فهو لم يقصد مدحى نفسه لكنه قصد حفث الناس على أخذ العلم منه وعلى تمسكهم بطلب العلم. وابن مالك رَحِمَهُ اللهُ أثنى على ألفيته فَقَالَ:

تقرب الأقصى بلفظ موجزِ وتبسط البذل بوعدٍ منجزِ
وتقتضي رضًا بغير سخطٍ فائقة ألفية ابن معطي

المهم أن شيخنا رَحِمَهُ اللهُ حينما أثنى على هذا الكتاب لا يريد بذلك أن يفتخر به على الناس، وأنا أعرفه تمام المعرفة فهو من أشد الناس تواضعًا، ولكنه رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يشد الناس إلى هذا الكتاب لينتفعوا به. ونسأل الله تَعَالَىٰ أن يحقق له ما يرجوه، وأن يجزل له المثوبة والأجر.

(الشرح)

إذن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يبين أن ثناء الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ على هذه القواعد التي كتبها ثناء يريد منه حث الناس على تعلمها. وَبَيَّنَّ أن أهل العلم يثنون على ما ألفوا لهذا الغرض ولهذا المقصد؛ فهذا أمر لا شيء فيه لمن كان غرضه حسنًا. وقد جمع بعض إخواننا ثناء العُلَمَاء عَلَىٰ كتبهم، وذكر جملة من العُلَمَاء أثنوا عَلَىٰ كتبهم. ومن جميل ما نقل قول الإمَام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لابنه عبد الله: **(احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إمامًا)**؛ فهذا من الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ ثناء على مسنده.

ومن جميل ما نقل أيضًا؛ قول ابن خزيمة: **(قد عرف أهل المشرق والمغرب أنه لم يصنف أحد في التوحيد والقدر وأصول العلم مثل تصنيفي)**؛ هٰذَا كلام ابن خزيمة. وذكر جملة من ثناء أهل العلم على كتبهم، وسمى كتابه **(قرة العيون في ثناء العلماء على مؤلفاتهم عبر القرون)**. وذكر جملة كبيرة حتى يدفع هذا التوهم الذي قد ينشأ عند بعضهم من ثناء بعض أهل العلم على مؤلفاتهم. وممن عُرف عنه هذا ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في مواضع يثني على بعض ما يكتب ويحرر من مسائل العلم. الألباني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في مواضع أيضًا أثنى على بعض مؤلفاته وعلى بعض ما كتب. الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وصاحبنا في كتابه هذا قد ذكر جملة كبيرة. إذًا ثناء الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ على هذه القواعد ثناء ليحث الناس على تعلمها وليس هو لمقصدٍ غير مرضي.

(المتن)

[القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير]

كل من سلك طريقاً وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فعلى الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها على جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجَدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها وكثرة فوائدها وثمرتها.

التعليق:

خلاصة هذه القاعدة: أن الله أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وأنه يهدي لِلَّتِي هي أقوم، ومتى آمنا بذلك فإنه يجب علينا أن نسلك الطريق التي توصلنا لمعرفة هذا القُرْآن، والاهتداء به؛ ولنعلم أننا إذا سلكنا هذه الطريق فإن الله تَعَالَىٰ يبارك لنا فيما قصدنا وفيما أردنا، قال الله تَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]. وكلما تدبر الإنسان هذا القرآن العظيم وتذكر بما فيه، فإنه تحصل له بركته عليه في عمره وفي عمله وفي يقينه، وفي جميع أحواله.

وإذا أردت أن تأخذ شاهدًا على هذا فانظر إلى أعمار من سبقنا من سلف في هذه الأُمَّة، كيف يحصلون على الخير الكثير العظيم! ونتعجب كيف يكتبون هذا الشيء وكيف يعملون هذا الشي، فضلًا عن الإعداد له وما يسبقه من تهيئة أبدانهم وقلوبهم وأفكارهم، كل هذا ببركة هذا القرآن العظيم فعليك أن تشد يديك به وأن تعض عليه بالنواجذ، وأن تعلم أنك متى عملت فيما وجهه الله عَزَّ وَجَلَّ من تدبري آياته وتذكره فإنك ستنال السعادة في الدنيا والآخرة، وهؤلاء سلفنا الكرام رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم ـالصَّحَابَةـ لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل؛ فتعلموا القرآن لفظًا والعلم والعمل جميعًا، ولهذا كان الواحد منهم إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فيهم؛ أي صار عظيمًا محترمًا؛ لأنهم

لا يقرأون كما نقرأ نحن؛ مجرد ألفاظ نمررها على اللسان ولا تصل إلى القلب أحيانًا، ولكنهم يقرأون بتدبر وتذكر واتعاظ. وَالَّذِي نزع البركة من علمنا أننا لا نعمل به ولا نتذكر.

فهذا هو خلاصة هذه القاعدة: أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأنه هدى للناس وبينات والفرقان وإذا كان كذلك فعلينا أن نصل إلى هذا الجوهر الثمين، وهو الهدى والبيان والتذكر حتى تحصل لنا البركة في أعمالنا وأعمارنا.

(الشرح)

هذه القاعدة أيها المكرمون؛ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ صدّرها بقوله: **(في كيفية تلقي التفسير)**. إذًا هذه القاعدة يشرح فيها الشيخ كيف تتلقى تفسير القُرْآن. حثّ الشيخ على أن تقتدي بالسلف؛ فكما أنهم كانوا إذا حفظوا عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل فعلينا أيضًا عندما نحفظ قدرًا من القرآن ألا نتجاوزه حتى نفهم ما فيه من العلم والعمل؛ فنصدق بما دل عليه من أخبار ونمتثل ما دل عليه من أوامر، ونترك ما عنه زجر ونهى. ومن هنا يُنصح طالب العلم الذي يحفظ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعل له تفسيرًا مُيسَّرًا، فكلما حفظ شَيْئًا من القرآن نظر بهذا التفسير المُيسَّر فعلم معنى ما حفظ، فصدق بما دلت عليه الآيات التي حفظها من أخبار، وامتثل الأوامر، وانتهى عما نهته عنه. هذا مما يُنصح به طالب العلم.

الشيخ بين أن من اتبع هذا الطريق بتعلم ما يحفظ، وبامتثال أوامر ما حفظ، وبالتصديق بالأخبار التي دلت عليها الآيات التي حفظها، وكان له نصيب من اللغة، وكان عالمًا بسيرة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هذا كله يورثه حسن فهمٍ لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ. ولا شك أن تعلق فهم القرآن بفهم اللغة تعلق واضح؛ وهكذا فهم القرآن بفهم السيرة.

القاعدة الثانية: (العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب).

هذه قاعدة نافعة جدًّا، وبها تفهم الكثير من آيات القُرْآن، وبها تفهم الكثير من أحاديث السُّنَّة؛ فثم آيات في القرآن نزلت لسبب، وثم أحاديث في السنة قيلت لسبب. فهل المعنى الذي دلت عليه الآية أو الذي دل عليه الحديث مقصور على سبب النزول أو أنه يشمل سبب النزول وكل ما كان في معناه؟ يشمل سبب النزول وكل ما كان في معناه؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والآن بعد أن نقرأ كلام الشيخ سأذكر لكم مثالًا، الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ سيذكر لكم مثالًا، وأنا سأذكر مثالًا من تفسير الشيخ؛ وهذا بِإِذْنِ اللهِ سنجري عليه في هذه القواعد؛ كلما ذكر الشيخ قاعدة ولم يمثل لها فإني بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أمثل لهذه القاعدة من كلام الشيخ، فهو شرح لقواعد الشيخ بكلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في التفسير.

يقول الشيخ:

(المتن)

هذه قاعدة نافعة جدًّا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك. وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت القاعدة السابقة وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هي أمثلة توضح الألفاظ، ليست الألفاظ مقصورة عليها، فقولهم: (نزلت في كذا، وفي كذا)، معناه أن هٰذَا مِمَّا يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها فإنها كما تقدم إنما أُنزل القرآن لهداية أول الأمة وآخرها، والله تَعَالَىٰ قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة؛ فلأي شيء نخرج بعض هٰذِه المعاني مع إدخالنا ما هو مثلها ونظيرها؟

(الشرح)

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن القرآن أُنزل لهداية أول الأمة وآخرها، فحِيْنَئِذٍ تُحمل ألفاظه على ما يحقق هذا المقصود، ولا تُخص أحكامه وآياته ببعض الأُمَّة، إذ هٰذَا ينافي كونه هداية لجميع الأُمَّة. فَالعِبْرَة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ إن نزلت الآية في سبب معين في حادثة معينة فإننا لا نجعل معنى الآية خاصًا بهذه الحادثة، بل يعمها ويعم كل ما وُجد فيه معنى هٰذِه الحادثة.

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

(المتن)

وعلى هٰذَا، فإذا ادعى شخص الخروج فرد من أفراد العموم من لفظه، قلنا له: أين الدليل؟ لأن الأصل أن العام شامل لجميع أفراده. قال العُلَمَاء: وصورة السبب قطعية الدخول، وما عداها فدخولها ظني، العام يشمل صورًا متعددة، فمثلًا قضية المرأة التي اشتكت إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زوجها، هذه قطعية الدخول في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: 3]، وظهار زيد وعمرو بعد ذلك ظنية الدخول؛ لاحتمال أنْ لَا يراد بالعموم جميع أفراده، لكن الحكم يشملها، إما بالعموم اللفظي، وهو الصحيح، وإما بالعموم المعنوي، وهو القياس لعدم الفارق.

(الشرح)

هذا الكلام سأوضحه الآن بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ نرتب الكلام حَتَّىٰ نفهم. القاعدة تنص على ماذا؟ ما نص القاعدة؟ العِبْرَة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. ما معناها؟ إذا حدثت حادثة ما، فنزل في هذه الحادثة قرآن؛ فلا نخص النازل بهذه الحادثة، وإنما يتناول القرآن النازل هذه الحادثة، وما كان في معناها من الحوادث. الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مثل؛ قَالَ: **(فمثلًا قضية المرأة التي اشتكت إلى رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)**.

نقرأ هذه الحادثة من تفسير ابن كثير، وقد نقلها من مسند الإمام أحمد؛ هذه امرأة ظاهر منها بعض أصحاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءت إلى النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذكر حالها فنزلت فيها الآية.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: قال الإمام أحمد -وذكر السند-: عن خويلة بنت ثعلبة قالت: «**فيَّ واللهِ وفي أوسِ بنِ الصَّامتِ أنزَل اللهُ جلَّ وعلا صدرَ سورةِ المجادلةِ قالت: كُنْتُ عندَه وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خُلُقُه وضجِر قالت: فدخَل علَيَّ يومًا فراجَعْتُه في شيءٍ فغضِب وقال: أنتِ علَيَّ كظهرِ أمِّي ثمَّ خرَج فجلَس في نادي قومِه ساعةً ثمَّ دخَل علَيَّ فإذا هو يُريدُني على نفسي قالت: قُلْتُ: كلَّا والَّذي نفسُ خُويلةَ بيدِه لا تخلُصُ إليَّ وقد قُلْتَ ما قُلْتَ حتَّى يحكُمَ اللهُ ورسولُه فينا بحُكمِه قالت: فواثَبني فامتنَعْتُ منه فغلَبْتُه بما تغلِبُ به المرأةُ الشَّيخَ الضَّعيفَ فألقَيْتُه تحتي ثمَّ خرَجْتُ إلى بعضِ جاراتي فاستعَرْتُ منها ثيابًا ثمَّ خرَجْتُ حتَّى جِئْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجلَسْتُ بينَ يدَيه فذكَرْتُ له ما لقيتُ منه فجعَلْتُ أشكو إليه ما ألقى مِن سوءِ خُلُقِه قالت: فجعَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: (يا خُويلةُ ابنُ عمِّكِ شيخٌ كبيرٌ فاتَّقي اللهَ فيه) قالت: فواللهِ ما برِحْتُ حتَّى نزَل القرآنُ فتغشَّى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما كان يغشاه ثمَّ سُرِّي عنه فقال: (يا خُويلةُ قد أنزَل اللهُ جلَّ وعلا فيكِ وفي صاحبِكِ) قالت: ثمَّ قرَأ علَيَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: 1]**»[1].

---

(1) أخرجه أبو داود/ برقم: (2214)، والنسائي/ برقم: (3460)، وابن ماجه/ برقم: (2063)، وأحمد في "المسند" (411/6)، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود".

هذا الآن سبب نزول الآية؛ الآية نزلت فيمن؟ في خولة ويُقال خويلة، وفي أوس بن الصامت. الآن يأتي رجل ويقول: قد ظاهرت من امرأتي؛ نقول: عليك عتق رقبة، فإن لم تجد فصوم شهرين متتابعين، فإن لم تجد فإطعام ستين مسكينًا. فيقول: الآية نزلت في أوس؛ نقول: نعم، وإن كانت الآية قد نزلت في أوس إلا أن لفظها يشملك ويشمل غيرك ممن فعل هذا الفعل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. هذا معنى القاعدة؛ أي: أن الآية لا يُقصر الحكم الذي دلت عليه على السبب الذي قيلت فيه، بل تعُمُّ السبب وتعُمُّ كل حادثة وُجد فيها معنى السبب.

ولكن هل هذا العموم عموم لفظي أو عموم معنوي؟ بمعنى هل اللفظ نفسه يشمل سبب النزول وكل فردٍ حادثٍ فيه سبب النزول؟ أم أن اللفظ لا يشمل إلا سبب النزول ثم نقيس على ذلك غيره مِمَّا وُجد فيه معناه؟ خلاف بين أهل العلم؛ النتيجة واحدة، ولكن منهم من يرى أن اللَّفْظ نفسه يشمل السبب ويشمل غيره مِمَّا وُجد فيه معنى السبب. ومنهم من يرى أن اللفظ إنما يشمل السبب، ومن وُجد فيه معنى السبب فإننا نقيسه على السبب، وَأَمَّا اللَّفْظ من حيث هو لا يشمله. شمول اللفظ يسمى شمول لفظي، وإن كان اللفظ لا يشمل إلا السبب فإن شموله حينئذ شمول معنوي. بمعنى؛ أن نقيس ما وُجد فيه معنى السبب على السبب؛ هذا معنى كلام الشيخ ابن عثيمين. وعلى هذا فإذا ادعى شخص خروج فرد من أفراد العموم من لفظه، قلنا له: أين الدليل؟ لأن الأصل أن العام شامل لجميع أفراده. قال العُلَمَاء: وصورة السبب قطعية الدخول. الآن ظهار أوس من خولة داخل في دلالة الآية قطعي.

يقول الشيخ: **(وصورة السبب قطعية الدخول، وما عداها فدخوله ظني)** يعني ظهار زيد وعمرو وخالد هو داخل في عموم الآية، ولكن هل دخوله ظني أم قطعي؟

يقول الشيخ: دخوله ظني؛ ويسيعلل الشيخ.

يقول: **(قَالَ العُلَمَاء: وصورة السبب قطعية الدخول وما عداها فدخوله ظني، العام يشمل صورًا متعددة، فمثلًا قضية المرأة التي اشتكت إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ زوجها، هذه قطعية الدخول في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: 3]، وظهار زيد وعمرو بعد ذلك ظنية الدخول)**. إذًا كلاهما داخل، ولكن دخول السبب قطعي، ودخول ما سواه ظني؛ لماذا؟

يقول الشيخ: **(وظهار زيد وعمرو بعد ذلك ظنية الدخول؛ لاحتمال أنْ لَا يراد بالعموم جميع أفراده)**.

إذًا لوجود هذا الاحتمال هو أن ثم احتمالًا بأن هٰذَا العموم لا يتناول جميع الأفراد، قالوا بأن دخول صورة السبب قطعية ودخول غيرها ظني.

قَالَ: **(لكن الحكم يشملها، إمَّا بالعموم اللفظي، وهو الصحيح)** هذا الذي يرجحه الشيخ.

إذًا الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يرى أن عموم الآية يشمل صورة السبب وغيرها شمولًا لفظيًا. **(وَإِمَّا بالعموم المعنوي، وهو القياس في عدم الفارق)** فبعضهم يرى أن عمروًا إن جاء وقد ظاهر لا نقول له بأن اللَّفْظ يشملك، وَإِنَّمَا نقول له: نحن نقيس حالك عَلَىٰ حال أوس لعموم العلة، للاجتماع في العلة وعدم الفارق. والشيخ يرجح ماذا؟ العموم اللفظي.

طيب ما مثالها في تفسير الشيخ؟ هذه القاعدة ذكرها الشيخ في تفسيره مرارًا، وبفضل الله قد جمعت المواضع التي ذكر فيها الشيخ هذه القاعدة، وهذا موضع من المواضع. قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 77-78] الآيات؛ هذه نزلت في العاص

بن وائل لما جاءه أحدهم يريد دينه، قَالَ: إن مت وبُعثت سيكون لي أموال وأولاد وأعطيك حقك، فنزلت فيه هذه الآية.

ماذا يقول السعدي رَحِمَهُ اللهُ؟ يقول: **(وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين فإنها تشمل كل كافر زعم أنه عَلَىٰ الحق)** إذًا لم يقصر الآية على سبب نزولها، وإنما جعل الآية عامة في سبب نزولها، ومن وُجد فيه نفس معنى سبب النزول، وثم أمثلة أخرى.

قلت لكم أيها المكرمون إن بعض القواعد سيذكرها الشيخ وسنذكر قواعدًا قريبة منها من تفسير الشيخ أيضًا، فهذه القاعدة: **(العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب)** ذكر الشيخ في تفسيره قاعدة قريبة منها، فقال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في المجلد الأول في الصحيفة التاسعة والثمانين: **(والخِطاب، وإن كان لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أمته داخلة في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العِبْرَة بعموم اللَّفْظ لا بخصوص السبب)**.

الآن الله عَزَّ وَجَلَّ يخاطب نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آيات، هل هذا الخطاب الَّذِي خاطب الله عَزَّ وَجَلَّ به نبيه يخص النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم يعم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته؟ يبين الشيخ السعدي أن الأصل في الخطاب الَّذِي يخاطب الله به نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يشمل النبي ويشمل أمته. يقول: **(لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العِبْرَة بعموم اللَّفْظ لا بخصوص السبب)**. هذه ذكرها في أي موضع؟

ذكرها عند تفسير قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنبيه ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. هل هٰذَا -وهو عدم رضا اليهود والنصارى عَلَىٰ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ يتبع ملتهم- أمر خاص بالنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم هو عام يشمله ويشمل غيره من أمته؟ وهذا ما فهمه الناس، ولا يزال الناس يذكرون هذه الآية على أنها على سبيل العموم.

فهذه قاعدة يذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، فيقول: **(والخطاب؛ وإن كان لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن أمته داخلة في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)**. وهذه القاعدة والقاعدة التي قبلها؛ القاعدتان فيهما مزيد بسط وتفصيل، ولكن نكتفي بهذا حتى نستطيع إنجاز الكتاب بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الوقت المقرر.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعيها سمعك، فإنه إما خير تؤمر به وإما شر تُنهى عنه»[1]. فمتى مرّ بك خبر عن الله وعما يستحقه من الكمال وما يتنزه عنه من النقص فأثبت جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته لنفسه، ونزِّهه عن كل ما نزه نفسه عنه. وكذلك إذا أخبر عن رسله وكتبه...

(الشرح)

نزلت على أسباب لا تختص بهذه الأسباب، وإنما تعمها، وما كان في معناها يفتح لك فهم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (54/1)، والطبري في تفسيره (85/1)، وورد مرفوعًا وموقوفًا، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" برقم: (1536).

القاعدة الثالثة: (الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه).

هذه القاعدة قاعدة نافعة جدًّا، وكما قال الشيخ في أول القاعدة: **(وقد نص على ذلك أهل الأصول، وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان)**. أيها المكرمون؛ ثم مسائل سيتعرض لها الشيخ تتعلق بالنحو وبأصول الفقه، فسنتطرق إليها بطريق سهلة، فإن كان هناك طريق صعبة وطريق سهلة سنسلك السهل؛ فلن نفصل في هذا تفصيلًا طويلًا. فمثلًا سيأتينا البحث عن النكرة، لن نُعرِّف النكرة كما فعل ابن مالك فَقَالَ: **(نكرة قابل (ال) المؤثرة أو واقع موقع ما قد ذُكر)** إلى غيره، وإنما نقول: **(وكل ما رُب عليه تدخل فإنه منكر يا رجل)** فنأخذ الطريقة السهلة. فالآن عندنا الألف واللام؛ **(ال)** هٰذِه؛ **(ال)** التعريفية أنواع أو قولوا **(ال)** التعريفية ثلاثة أنواع:

النوع اَلْأَوَّلُ: **(ال)** العهدية.

النوع اَلثَّانِي: **(ال)** الجنسية.

النوع اَلثَّالِث: **(ال)** الاستغراق.

و **(ال)** بأنواعها تعريفية؛ بمعنى أنها تجعل النكرة معرفة، و **(ال)** بأنواعها تدخل عَلَىٰ النكرات لا عَلَىٰ المعارف؛ لأنها **(ال)** المعرفة، فهي تدخل على ماذا؟ على النكرات. ما معنى نكرة؟ قبل هٰذَا، الآن أنتم عرفتم القسمة، ما معنى نكرة؟ نكرة: فكل ما رُب عليه تدخل فأنه منكر يا رجل؛ هٰذَا عَلَىٰ سبيل التيسير. فرجل؛ تقول: رُب رجل. قلم؛ تقول: رُب قلم. كتاب؛ تقول: رُب كتاب. أحمد؛ تقول: رُب أحمد؟ لا؛ لماذا؟ لأنه معرفة.

إذًا ما تدخل عليه **(رُب)** يعد نكرة، ما لا تدخل عليه **(رُب)** يعد معرفة. هو؛ تقول: رُب هو؟ لا؛ لأن **(هو)** معرفة. الَّذِي؛ رب الَّذِي؟ لا؛ لأن **(الَّذِي)** معرفة. إذًا الَّذِي تدخل عليه **(رُب)** نكرة، وَالَّذِي لا تدخل عليه **(رُب)** معرفة. الأمر فيه مزيد تفصيل؛ يعني هذا شرح قاصر، ولكن حتى نستطيع أن ننجز الكتاب. عرفنا الآن الفرق بين المعرفة والنكرة.

(ال) هذه التعريفية ما تدخل على المعارف، وانما تدخل عَلَىٰ النكرات بأنواعها، وَهٰذَا موضوع مهم أرجوا أن تنتبهوا إليه. طيب قلنا عندنا **(ال)** العهدية؛ هذه الأولى، مثالها: **45:40** أنت اتفقت مع رجل أن يأتيك في ساعة معينة، وأنا أعلم بهذا، فجاء وقت مجيء الرجل فدخَلتَ عليَّ وقلت لي: جاء الرجل؛ ما الَّذِي أفهمه؟ أي: الرجل الذي في ذهني وذهنك أنه سيأتي.

فَهٰذِه **(ال)** العهدية. لو أنك دخلت وقلت لي: جاء رجل؛ هل أفهم أنه الرجل الذي اتفق معك أنه سيأتي في هذا الوقت؟ لا؛ نكرة، سأقول لك: من هذا الرجل؟ لكن إن دخلت وقلت لي: جاء الرجل؛ أفهم بـ **(ال)** هذه أنها **(ال)** العهدية؛ أي: الرجل الَّذِي عُهد بيني وبينك أنه سيأتي في هٰذَا الوقت. إذًا **(ال)** العهدية هٰذَا معناها، ودخلت عَلَىٰ نكرة.

عندنا **(ال)** الثانية؛ **(ال)** الجنسية؛ مثل: الرجال خير من النساء، الرجل خير من المرأة؛ أي: جنس الرجال خير من جنس النساء. وليست تفيد الاستغراق؛ أي: كل رجل خير من كل امرأة. وليست هي للعهد، وإنما هي مبينة للجنس؛ أي: جنس الرجال خير من جنس النساء، الذهب خير من الفضة؛ أي: جنس الذهب خير من جنس الفضة. هذه **(ال)** الجنسية.

(ال) الثالثة هي التي يريدها هنا؛ **(ال)** الاستغراقية؛ فهذه أمثلتها كثيرة، كما قال الشيخ: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1-2]؛ أي: كل إنسان. وعلامة **(ال)** الاستغراقية أن تضع موضعها **(كل)**؛ أي: كل إنسان في خسران، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فهؤلاء استثناهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. هذه **(ال)** تفتح عليك من العلوم بأنواعها؛

سنتطرق لمسألة دقيقة جدًّا، لذلكم تعمدت شَيْئًا وهو: أن (ال) بأنواعها لا تدخل إلا عَلَىٰ النكرة؛ هذه (ال) التعريفية ثلاثة أنواع. هناك (ال) أخرى ليست (ال) التعريفية؛ (ال) للمح الأصل.

ما معنى (ال) للمح الأصل؟ الأعلام التي نتسمى بها نوعان:

- ✓ **أعلام منقولة.**
- ✓ **أعلام مرتجلة.**

العلم المنقول هو الذي لم يُوضع في الأصالة علمًا، وإنما هو مثلًا اسم فاعل مثل: سالم، أو هو اسم مفعول مثل: مُحَمَّد؛ هو سالم أو هو مُحَمَّد، ثم نُقل هذا الاسم أو هذا العلم من كونه اسم فاعل أو اسم مفعول إلى كونه علمًا دالًا عَلَىٰ شخص؛ فهذا يسمى اسمًا منقولًا وليس مرتجلًا.

وهناك أعلام مرتجلة؛ أي وُضعت من حيث الأصل علمًا، مثل: دعد؛ اسم لامرأة. هذا لم يُنقل من شيء وإنما هو من حيث الأصل وُضع علمًا لامرأة.

عرفنا الآن أن الأعلام نوعان: منقولة ومرتجلة. المنقولة مثل: سالم ومحمد؛ سالم ومحمد اسمان منقولان. وعندنا مرتجل مثل: دعد. الآن العرب ماذا فعلوا؟ أدخلوا على سالم وعلى محمد (ال)؛ لماذا؟ ليبينوا لك أن هذا الاسم منقول، للمح الصفة، فيقولون: السالم، المحمد. يسمي أهل العلم هذه (الـ) للمح الأصل؛ أي: الأصل الَّذِي نُل منه هٰذَا العمل، فَهٰذَا العلم (سالم) منقول عن اسم فاعل، و (مُحَمَّد) منقول عن اسم مفعول.

إذًا؛ إذا قلت لك: ما هي (ال) التي تدخل على الأعلام؟ تقول لي: (ال) التي للمح الأصل، فإن قلت لي إن (ال) الاستغراقية تدخل على الأعلام أقول لك ماذا؟ غير صحيح؛ لأن (ال) الاستغراقية لا تدخل إلا على النكرات. وإذا قلت لي (ال) العهدية تدخل على الأعلام أقول لك غير صحيح، (ال) العهدية لا تدخل إلا على النكرات. وإذا قلت لي (ال) الجنسية تدخل على الأعلام؛ أقول لك غير صحيح، (ال) الجنسية لا تدخل على النكرات.

إذن (ال) الداخلة على أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ هل هي (ال) التعريفية أم (ال) للمح الأصل؟ للمح الأصل؛ لأن أسماء الله ماذا؟ أعلام. من أهل العلم من يجعل (ال) الداخلة على أسماء الله (ال) الاستغراقية؛ وهذا ما عليه السعدي رَحِمَهُ اللهُ. والشيخ ابن عثيمين هنا شرح الكلام على هذا النحو، وله كلام آخر -أي: الشيخ ابن عثيمين- يبين أن (ال) الداخلة على أسماء الله هي (ال) للمح الأصل، وهذا هو الصحيح. وهذا تفصيله في المعارف في مبحث (ال) من ألفية بن مالك رَحِمَهُ اللهُ.

الآن الشيخ سيبين أن (ال) الداخلة على أسماء الله هي (ال) الاستغراقية؛ هذا قول له رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، والذي يظهر واللهُ أَعْلَمُ أن (ال) الداخلة على أسماء الله هي (ال) للمح الأصل كما بين الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في بعض المواضع.

الآن نقرأ القاعدة؛ وقد شرحناها بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ، فسنقرأ دون شرح.

(القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس) طبعًا الوصف هو: اسم الفاعل، اسم المفعول، الصفة المشبهة؛ ما كان على زنة أفعل التفضيل؛ هذا يسمى وصفًا وليس صفةً. وأسماء الأجناس؛ هناك اسم جنس إفرادي، واسم جنس جمعي، وهناك اسم جمعي... إِلَىٰ آخره. والكلام في هذا في موضعه من النحو والصرف.

(المتن)

فمثلُ قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ - إلى قوله تعالى - أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الأحزاب: ٣٥] يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل

لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد، وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نَهى الله عنه ورتب عليه وعلى المتصف به عقوبة وشراً ونقصاً، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور.

(الشرح)

الشيخ ماذا يقول؟ يقول: **(إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات)** لفظ **(المُسْلِمِيْنَ)** يتناول كل معنًى حسن دلت عليه الشريعة. والأوصاف التي ذكرت مثل: القانتين، والقانتات؛ يتناول كل معنًى حسن للقنوت؛ لأنه يرى أن **(ال)** الداخلة هذه لاستغراق معاني القنوت، لاستغراق معاني الإسلام، لاستغراق معاني الصِّدْق، لاستغراق معاني الصبر، وهكذا. فيرى الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن **(ال)** الداخلة هنا **(ال)** استغراقية تستغرق الأوصاف.

(المتن)

التعليق:

الحكم إذا علق على وصفٍ ازداد بزيادة ذلك الوصف ونقص بنقصه؛ لأن الحكم المعلق على وصفٍ يدل على علية ذلك الوصف، والحكم يدور مع عليته وجودًا وعدمًا، وقوةً وضعفًا. الحكم إذا عُلق على وصفٍ فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف ويضعف بضعفه، فإذا قلت: إن المؤمن له أجرٌ عظيم...

(الشرح)

الآن؛ المؤمن له أجرٌ عظيم؛ الأجر العظيم حكم عُلق على وصف وهو الإيمان، فكلما قوي هٰذَا الوصف وهو قوة الإيمان قوي هٰذَا الحكم وهو الأجر العظيم. فالمؤمن له من الأجر العظيم بحسب إيمانه؛ هذه القاعدة التي يبينها الشيخ، وهو أن الحكم إذا عُلق على وصف يدل على علية ذلك الوصف في الحكم.

(المتن)

فكلما قوي الايمان قوي الأجر، وكلما ضعف ضعف الأجر. وكذلك مثل قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: 19-21]، عام بجنس الإنسان، فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: 22] إلى آخرها.

كما أن قوله: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1-2]، أي: كل إنسان متصف بالخسار، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: 3]؛ وأمثال ذلك كثير.

هذا الجنس لأن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ذكر الوصف والجنس، وهذا مثال اسم الجنس.

(الشرح)

يعني يقول الشيخ بأن الشيخ قال الألف واللام الداخلة على الأوصاف؛ مثل للأوصاف بقوله: **(المُسْلِمِيْنَ، والمسلمات، والمؤمنين، والمؤمنات)**؛ **(مسلم)** هذا اسم فاعل من **(أسلم)** فهو مسلم، فيقول هذا مثال لدخول **(ال)** الاستغراقية على الأوصاف. ثم مثل الشيخ لدخول **(ال)** الاستغراقية على اسم الجنس بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1-2].

قَالَ:

(المتن)

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى.

(الشرح)

هذا على قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنه يرى (ال) الداخلة على الأسماء الحسنى (ال) الاستغراقية، و (ال) كما يبين أهل النحو، وقد بحثت بفضل الله هٰذِه المسألة مع عدد من أهل النحو يبيّنون أنّ (ال) الداخلة عَلَىٰ أسماء الله هي (ال) للمح الأصل؛ لأنها هي الّتِي تدخل عَلَىٰ المعارف، وَأَمَّا (ال) الاستغراقية فتدخل على النكرات؛ والقاعدة: أسماء الله معارف. هل أسماء الله معارف عُرفت بـ (ال)؟ يعني اسم الله (عزيز) معرفة أم ليس بمعرفة؟ معرفة، لم يعرف بـ (ال).

إذًا؛ إذا قلنا: العزيز؛ فـ (ال) هنا ليست (ال) التعريفية، ليست (ال) الاستغراقية. الرحمن، الرحيم؛ هٰذِه كلها أسماء معارف بنفسها وليست معارف بدخول (ال) عليها. إذًا هذا الذي سيذكره الشيخ الآن فيه ما قلناه.

(المتن)

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى، فإن في القرآن منها شَيْئًا كَثِيْرًا، وهي أجل علوم القُرْآن، فمثلًا يخبر الله عن نفسه أنه الله، وأنه الملك، والعليم، والحكيم، والعزيز، والرحيم، والقدوس، والسلام، والحميد، والمجيد، فالله هو الذي له جميع معاني الألوهية التي يستحق أن يؤله لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الألوهية، لا بشر ولا ملك، بل هم جميعًا متألهون متعبدون لربهم خاضعون لجلاله وعظمته.

وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وهو المُلك الكامل، والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم ممالك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية والجزائية.

(الشرح)

الشيخ هذا في تفسيره كثير يجعل الأحكام ثلاثة أنواع: كونية، وشرعية، وجزائية.

(المتن)

وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

التعليق:

قول المُؤَلِّف رَحِمَهُ اللهُ: إن الأحكام قدرية وشرعية وجزائية، ونحن نقول دائمًا إن الأحكام شرعية وكونية أو قدرية؛ لأن الجزائية داخلة في القدرية؛ لأنها مما قدره الله على هذا العمل، لكن هذا من باب البسط.

الذي أحاط علمه بالبواطن، والظواهر، والخفيات، والجليات، والواجبات، والمستحيلات، والجائزات، والأمور السابقة، واللاحقة، والعالم العلوي، والسفلي، والكليات، والجزئيات، وما يعلم الخلق وما لا يعلمون.

التعليق:

كيف يعلم الله المستحيلات؟

(الشرح)

الله عَزَّ وَجَلَّ علمه يتعلق بالممكن والمستحيل، وهذا أمام معروف وبحثه في كتب المعتقد.

(المتن)

كيف يعلم الله المستحيلات؟ قال تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]. هذا تعليق بشيء مستحيل، يعني: مستحيل أن يكون فيها آلهة إلا الله. أخبر الله أنه لو كان في هذا الكون آلهة إلا الله لفسدتا، فأخبر عن شيء لا يمكن وجوده.

وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه، وجميع ما شرعه، لا يخرج عن حكمه مخلوق ولا مشروع، وأنه العزيز الذي له جميع معاني العز على وجه الكمال التام من كل وجه: عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة.

(الشرح)

هذا كله صحيح؛ هذه الأنواع كلها ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ، هذه العزة ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن نقول هل ثبتت لدخول **(ال)**؟ أم هي ثابتة من جهة دلالة الاسم على هذه الأنواع؟ من جهة دلالة الاسم على هذه الأنواع، لا أن **(ال)** الَّتِي أفادتها.

(المتن)

وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر، ومنتهى الحاجة، والضرورة إلى ربهم، وأنه الرحيم الذي له جميع معاني الرحمة، الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه طرفة عين، ووصلت رحمته حيث وصل علمه ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7]. وأنه القدوس السلام المعظم المنزه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له ند من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى اعتبرها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله، بل أصل معرفة الله تَعَالَىٰ معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلا يبلغ علم أحد من الخلق ولا يحصي أحد ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثنى عليه عباده.

ومن ذلك قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، فالبر يشمل جميع أنواع البر والخير.

(الشرح)

(البر)؛ **(ال)** هذه استغراقية، تشمل جميع أنواع البر.

(المتن)

فالبر يشمل جميع أنواع البر والخير، وتشمل التقوى جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المعاصي والمحرمات. والإثم اسم جامع لكل ما يؤثم ويوقع في المعصية، كما أن العدوان اسم جامع يدخل فيه التعدي على الناس في الدماء والأموال والأعراض.

والمعروف في القُرْآن: اسم جامع لكل ما عُرف حسنه شرعًا وعقلًا وعكسه المنكر.

وقد نبه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها في قوله في التشهد في الصلاة في قول المصليين: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

فَقَالَ: «فإنكم إذا قلتم ذلك سلمتم على كل عبد صالح من أهل السماء والأرض»(1)**.**

وأمثلتها في القرآن كثيرة جدًّا.

التعليق:

خلاصة هذه القاعدة أن المفرد المحلّى بـ (ال) يعم، سواء دخل على وصف أو دخل على اسم جنس. ثم عاد المؤلّف رَحِمَهُ اللهُ واستطرد في أسماء الله تَعَالَىٰ، وأن (ال) فيها للاستغراق، فمثلًا: السميع؛ لاستغراق كل ما يمكن من سمع، ولهذا ما من مسموع إلا ويسمعه الله عَزَّ وَجَلَّ.

البصير: لاستغراق كل ما يمكن من بصر.

البر: لاستغراق كل ما يمكن من الخير والإحسان، وهكذا.

---

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1202)، ومسلم/ برقم: (402).

(الشرح)

هٰذَا الموضع؛ يبين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ -أي الشيخ ابن عثيمين أَيْضًا- أن **(ال)** الداخلة على أسماء الله هي الاستغراقية، وفي موضع آخر، لعل آتي به في الدرس القادم، يُبَيِّنُ أن **(ال)** الداخلة على أسماء الله هي **(ال)** للمح الأصل.

*****

هذا والحمد لله، وصلَّ اللَّه وسلم عَلَى رسوله

الْمَجْلِسِ (2)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل الليلة التعليق على شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي. وقد وصلنا إلى القاعدة الرابعة؛ يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

القاعدة الرابعة: إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام، دلت على العموم.

هذه القاعدة قاعدة أصولية لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب أصول الفقه، وأحسب أن هذا السبب الذي من أجله لم يعلق الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ على القاعدة، إذ هي قاعدة معروفة، وكلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ -أي الشيخ محمد بن صالح العثيمين- في هذه القاعدة معروف مشهور منثور في متعددة، منها كتابه **(الأصول من علم الأصول)**، وشرحه لكتابه **(الأصول من علم الأصول)**. وأيضًا منها شرحه لكتاب **(منظومة الورقات)**. ولما كان الشيخ قد ترك التعليق عليها فلا بد أن نعلق عليها بشيء من التفصيل.

إذا وقعت النكرة؛ النكرة أيها المكرمون قد ذكرنا ضابطها في الدرس السابق، فقلنا: وكل ما رُب عليه تدخل فإنه منكر يا رجل. فرُب رجل، رب كتاب، رب كريم... إِلَىٰ آخره. هذه النكرة إذا جاءت في سياق نفي أو في سياق نهي أو في سياق شرط أو في سياق استفهام، ويذكر أهل العلم أيضًا سياق الامتنان؛ دلت على العموم. وهذا أظنكم تسمعونه كَثِيْرًا: نكرة في سياق النفي العموم، نكرة في سياق النهي تفيد العموم.

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ سيمثل، ونتحدث ونبين عند التمثيل بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هذه القاعدة التي ذكرها، وكيف **03:52** رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ القاعدة في هذه الأمثلة، وسيمثل للنكرة في سياق النفي والنهي والشرط والاستفهام.

(المتن)

كقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦].

(الشرح)

هذه أيها المكرمون **(شَيْئًا)** نكرة أم معرفة؟ نكرة. في سياق ماذا؟ في سياق نهي. فـ **(لا)** هذه ناهية، و **(تشرك)** فعل مضارع مجزوم بـ **(لا)** الناهية وعلامة جزمه حذف النون. و **(شَيْئًا)** مفعول به منصوب. و **(شَيْئًا)** نكرة في سياق النهي فتفيد العموم؛ فهذا نهي عن أن نشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا، فيدخل في هذا من أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ حجرًا أو نبيًا أو ملكًا أو غير ذلك، فإن هذا لم يمتثل النَّهْي؛ لأنه أشرك بالله شَيْئًا. وهذه الآية فيها رد على أولئكم الذين يقولون: الشرك إنما هو عبادة الأصنام، وأما عبادة غير الأصنام فليس شركًا. فيقال لهم: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]؛ **(شَيْئًا)** نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، فالآية تفيد النهي عن أن نشرك بالله **05:49** الأصنام، والأنبياء، والصالحين، والأحجار، والأشجار، وكل شيء.

هنا الشيخ لاحظ شَيْئًا آخر؛ كلام الشيخ لا يتعلق بـ **(شَيْئًا)**، هنا نكرة أخرى وقعت في سياق النهي في هٰذِه الآية، **(تشرك)** فعل، والفعل يدل على أموين اثنين؛ يدل على الحدث والزمان. يقول ابن مالك: **(المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن)**.
الفعل يدل على أمرين اثنين: حدث وزمن؛ فعندما تقول: أشرك؛ فهذا الفعل يدل على وقوع حدث وهو الشِّرْك، في زمنٍ وهو الزمن الماضي. وعندما تقول: **(يشرك)** فهذا الفعل يدل عَلَىٰ وقوع حدث وهو الشرك في الزمن الحالي. ما الذي يدل على الحدث؟ ما الاسم الَّذِي يدل عَلَىٰ الحدث؟ المصدر؛ وهذا معنى كلام ابن مالك: **(المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل)** الفعل له مدلولان: الحدث والزمان. والمصدر اسم لما سوى الزمان وهو الحدث.
طيب المصدر اسم؛ أليس كذلك؟ نعم. فالفعل هذا **(تشرك)** يدل على حدث، والحدث مدلول المصدر، والمصدر نكرة؛ فـ **(تشرك)** يتضمن مصدرًا، والمصدر نكرة، فوقعت هذه النكرة في سياق النَّهْي. إذن الآية هذه تفيد النَّهْي عن الشِّرْك؛ أي: الفعل. وتفيد أيضًا النَّهْي عن أن نشرك بالله أي شيء، ففيها عمومان:
العموم اَلْأَوَّلُ: عموم فيه صور الشِّرْك: لا تشركوا، لا شركًا، لا إشراكًا أكبر ولا أصغر. **(به شَيْئًا)**؛ أي: لا تشركوا به صالحًا، نبيًا، ملكًا، وليًا، حجرًا، شجرًا، إِلَىٰ آخره. فالآية هذه فيها عمومان اثنان، الشيخ في تعليقه الآن، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي هل لاحظ العموم اَلْأَوَّلُ أم لا لاحظ العموم الْثَّانِي؟ نقرأ وأنتم تجيبون:
قَالَ:

(المتن)

كقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} [النساء: ٣٦] فإنه نهى عن الشرك به في النيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفي، والجلي. فلا يجعل العبد لله نداً ومشاركاً في شيء من ذلك.

(الشرح)

لاحظ اَلْأَوَّلُ؛ قَالَ: **(الشرك في النِّيَّات)** هذا نوع للشِّرْكِ، فهناك شرك في الأفعال، وشرك في النِّيَّات، وشرك في الأقوال. إذن الشرك في النيات يدخل في عموم **(لا تشركوا)**، الشرك في الأقوال يدخل في عموم **(لا تشركوا)**، الشرك في الأفعال يدخل في عموم **(لا تشركوا)**، والشرك الأكبر يدخل في عموم **(لا تشركوا)**، والشرك الأصغر يدخل في عموم **(لا تشركوا)**، والخفي، والجلي، فلا يجعل العبد لله ندًا ومشاركًا في شيءٍ من ذلك؛ أي: من الشرك الذي بيناه، فهو لاحظ العموم اَلْأَوَّلُ؛ لأن البعض ربما يرى هذه الآية فيظن أن الشيخ يريد **(شيئًا)**.
وفي كلام الشيخ شيء يحتاج إِلَى تنبيه وهو قوله: **(وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفي، والجلي)** هل الشرك الخفي والجلي قسيمان للشرك الأكبر والأصغر؟ فنقول أقسام الشرك أربعة: الأكبر والأصغر والجلي والخفي؟ لا؛ الشرك قسمان: أكبر وأصغر. والخفي وصف لبعض أنواع الشرك الأكبر، ووصف لبعض أنواع الشرك الأصغر.
والجلي وصف لبعض أنواع الشرك الأكبر، ووصف لبعض أنواع الشرك الأصغر. فمثلًا شرك السر؛ هذا شرك خفي، وهو من الشرك الأكبر. الشِّرْك الأكبر الجلي أن يسجد لغير الله. إذن الشرك الخفي وصف لبعض أنواع الشرك الأكبر، ووصف لبعض أنواع الشرك الأصغر. أما الشرك الجلي؛ أي: الشرك الظاهر، كالسجود لغير الله، وهذا في الشرك الأكبر، كقول: ما شاء الله وشئت؛ شرك جليٌّ ظاهر، وهذا في الشرك الأصغر. إذًا مثلنا للشرك الأصغر الجلي والشرك الأكبر الجلي. بقي مثال للشرك الأصغر الخفي؛ الرياء؛ شرك خفي.
إذًا قوله: **(وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفي، والجلي)** ليس الخفي والجلي قسيمين للشرك

الأكبر والأصغر، وإنما الشرك الخفي وصف لبعض أنواع الشرك الأصغر والأكبر، والشرك الجلي وصف لبعض أنواع الشرك الأكبر والأصغر. ونظيرها: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: 22]؛ نظيرها في العموم الأول أم في العموم الثَّانِي؟ في الثَّانِي؛ هذه نظيرها في الثَّانِي، أي: لا تتخذ مع الله ندًا، سواء كان حجرًا أو ملكًا أو غير ذلك.

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: 19]؛ الآن **(فلا تجعلوا)** هذه في سياق النَّهْي، **(يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا)** هذه في سياق النفي. **(يوم لا تملك)**؛ **(لا)** هذا نافية. ما الفرق بين **(لا)** النافية و **(لا)** الناهية؟ **(لا)** الناهية تجزم الفعل المضارع الذي يقع بعدها، **(فلا تشرك)**: تشرك: فعل مضارع مجزوم، تجعل: فعل مضارع مجزوم. يوم لا تملك: تملك: فعل مضارع مرفوع؛ فـ **(لا)** الَّتِي قبلها **(لا)** النافية وليست **(لا)** الناهية.

يقول:

(المتن)

وقوله في وصف يوم القيامة: {يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً} [الانفطار: ١٩]، يعم كل نفس

(الشرح)

فكل نفس يوم القيامة لا تملك لكل نفس يوم القيامة شيئًا؛ أي: أي شيء.

(المتن)

يعم كل نفس، وأنها لا تملك شيئاً من الأشياء، لا إيصال المنافع، ولا دفع المضار.

(الشرح)

هنا عندنا عموم **(نفس)**، وعموم **(نفس)** الثانية، وعموم **(شيء)**، وتستطيع أن تقول: عموم **(تملك)**؛ فنفى عنهم جميعًا أنواع الملك.

(المتن)

وكقوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس: ١٠٧]

(الشرح)

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍ) هذا أسلوب ماذا؟ أسلوب شرط. قال الشيخ: **(إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط)**. أسلوب الشرط أسلوب معروف، يتكون من أداة الشرط، وفعل الشرط، وجواب الشرط. من يدرس ينجح، إن تأتني أكرمك. فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول: **(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ)**:

(إِنْ يَمْسَسْكَ): أداة الشرط وفعل الشرط.

(فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ): جواب الشرط.

(وَإِنْ يُرِدْكَ): أداة الشرط وفعل الشرط.

(فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ): جواب الشرط.

يقول:

فكل ضر قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كشفه بوجه من الوجوه. ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ): بضر؛ نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم؛ أي: تعم كل ضر. فكل ضر قدره الله عَلَىٰ العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كشفه؛ **(فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)**. **(فلا كاشف)** هذه تفيد العموم. ثُمَّ استثنى الله عَزَّ وَجَلَّ نفسه، فبيّن أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يكشف الضر يوم القيامة.

(وقوله: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ}) هذه مثلها أيضًا في سياق الشرط.

وقوله: **(يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد بذلك)**.

(المتن)

وقوله {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [فاطر: ٣]

(الشرح)

(هل من خالق) هذه في سياق هذه في سياق الاستفهام. وأيضًا ذكرت لكم أن مجيء النكرة في سياق الامتنان يفيد العموم؛ مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48]؛ **(مَاءً)** هذه نكرة في سياق الامتنان فتفيد العموم.

قال الشيخ: **(وإذا دخلت من صارت نصاً في العموم كهذه الآية: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة:٤٧])** صيغ العموم التي سبقت كلها ليست نصًا في العموم، وإنما هي ظاهرة في العموم. ليست نصية في العموم، وإنما هي ظاهرة في العموم. وأهل العلم يبينون أن صيغ العموم كلها دلالتها عَلَىٰ العموم ظاهرية وليست دلالة نصية، إلَّا النكرة المجرورة بـ **(من)** واسم **(لا)** النافية للجنس؛ وَهٰذَا بينه جمع من أهل العلم منهم أبو حيان وغيره.

قَالَ: **(وإذا دخلت من صارت نصاً في العموم كهذه الآية: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة:٤٧])** وأيضًا قلنا: اسم **(لا)** النافية للجنس مثل: **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**؛ فـ **(إله)** هذه نص في العموم. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ ولها أمثلة كثيرة جدًا.

القاعدة الخامسة: المفرد المضاف يفيد العموم، كما يفيد ذلك اسم الجمع.

المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع المضاف؛ فهو يبين أن اسم الجمع إذا أُضيف أفاد العموم؛ هذا متقرّر، فيقول لك: فكذلك المفرد إذا أُضيف فإنه يفيد العموم كما أن اسم الجمع يفيد العموم. والشيخ محمد بن صالح العثيمين وغيره يُعبِّرون عن هذه القاعدة بتعبير أدق فيقولون: المعرف بالإضافة اسمًا كان أو مجموعًا يفيد العموم.

ما الفرق بين المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع، وبين قولنا المعرف بالإضافة اسمًا كان أو مجموعًا يفيد العموم؟ ما الفرق؟ الآن المفرد قد يُضاف ولا يُعرَّف، والجمع قد يُضاف ولا يُعرف؛ متى يُعرف المفرد عند الإضافة؟ إذا أضيف لمعرفة. ومتى يُعرف الجمع عند الإضافة؟ إذا أضيف لمعرفة، فإذا أضيف المفرد لنكرة لا يُعرف، وإذا أضيف الجمع لمعرفة لا يُعرف؛ وَحِينَئِذٍ لا يفيد العموم؛ هل هٰذَا يفيده كلام الشيخ المفرد المضاف يفيد العموم؟ هذا مطلق يفيد أنه يفيد العموم، سواء أضيف إلى معرفة أم إلى نكرة. ولاحظوا الأمثلة التي سيأتي بها كلها المفرد المضاف فيها مضاف إِلَىٰ غيره. فقد يقال: إن إطلاقه يزول بالتمثيل. وهذا منهج لدى بعض المؤلفين؛ أنه ربما يطلق، والتمثيل يقيد الإطلاق. عمومًا؛ لذلك أنا قلت: المعرف بالإضافة اسمًا كان أو مجموعًا لأن البعض ربما لاحظ التقيد من جهة التمثيل، فالتصريح في القاعدة بالقيد أفضل. يعني عندما أقول: كتاب رجل؛ كتاب نكرة، أضفت كتاب لنكرة؛ هل كتاب الآن صار معرفة؟ لا. يقول أهل العلم: الإضافة

إِلَىٰ النكرة تفيد التخصيص ولا تفيد التَّعْرِيْف؛ أي: أنه كتاب رجل وليس كتاب امرأة. بخلاف ما إذا قلت: هٰذَا كتاب زيدٍ. إذًا هنا عرَّفت الكتاب وأنه كتاب زيد. إذن متى تفيد النكرة العموم؟ تفيد النكرة العموم إذا أضيفت إلى **26:05**، سواء كانت النكرة مفردًا أو جمعًا.

قَالَ:

(المتن)

فكما أن قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} [النساء: ٢٣] إِلَىٰ آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها، وإن علت. وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت ـ إِلَىٰ آخر المذكورات...

(الشرح)

أمهاتكم؛ **(أمهات)** جمع مؤنث سالم، أضيف إلى الضمير، وهو الكاف، والضمير معرفة، فهنا نكرة أضيفت إِلَىٰ معرفة فأفادت العموم. فكل أم لك وإن علت محرمة عليك.

التعليق:

(المتن)

وفيها أيضًا فائدة ثانية: أن الأم يشمل كل أم انتسبت إليها، والبنت تشمل كل من انتسبت إليك.

(الشرح)

فكل من انتسبت إليها تسمى أمًا؛ فالجدة أم.

(المتن)

سواء من قِبل الأب أو الأم، كذلك خالة الإنسان خالة له ولذريته.

(الشرح)

فخالتك خالة لأولادك.

(المتن)

من بعده إلى يوم القيامة، وعمة الإنسان عمة له ولذريته إِلَىٰ يوم القيامة ولو كان من رضاعة؛ فعمتك عمة لك ولأولادك وبناتك وبنات بناتك.... إلخ، وكذلك خالتك.

فكذلك قوله تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11].

(نعمة) نكرة، وهي مفرد مضافة إِلَىٰ **(ربك)**. و **(رب)** نكرة ولكنها أضيفت إِلَىٰ ضمير فعُرفت. **(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)** فالآن **(نعمة)** نكرة أضيفت إلى معرِفة مُعرَّفَة بالإضافة.

(المتن)

فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية.

(الشرح)

لأن المفرد المضاف يفيد العموم.

(المتن)

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، فإنها تعم الصلوات كلها.

(الشرح)

(صلاتي)؛ صلاة: نكرة، أضيفت إِلَىٰ ياء المتكلم، وياء المتكلم ضمير، والضمير معرفة، فنكرة أضيفت إِلَىٰ معرفة فأفادت العموم.

(المتن)

فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع قد أوقعته وأخلصته لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125].

(الشرح)

(مقام) نكرة، و **(إبراهيم)** معرفة، والنكرة إذا أضيفت إِلَىٰ معرفة عمت.

(المتن)

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]. على أحد القولين: أنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج، اتخذوه معبدًا.

وأصرح من هٰذا قوله تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: 123]، وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد والإخلاص لله تَعَالَىٰ، والقيام بحق العبودية. وأعم من ذلك وأشمل قوله تَعَالَىٰ لما ذكر الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى الَّذِي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم. وهذه الآية واحد الأدلة على الأصل المعروف أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه.

(الشرح)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ)؛ **(هدى)** نكرة مضافة، فتعم هدي الأنبياء كلهم. ماذا قال الشيخ؟

قَالَ: **(وَهٰذِه الآية أحد الأدلة عَلَىٰ الأصل المعروف أن شعر من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه)** هذه المسألة مبحوثة في كتب أصول الفقه ومعروفة، ولا يكاد يخلو منها كتاب من كتب أصول الفقه.

شرع من قبلنا -باختصار- على ثلاثة صور:

- إما أن يرد في شرعنا إقراره، فهو شرع لنا بالاتفاق، مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45]. فهذه كما بيّن ابن قدامه وغيره الاتّفاق على أنّها شرعٌ. إذن إذا ذُكِر شرعُ من قبلنا في النصوص الشرعية وأقره شرعنا فهو شرع لنا بالاتفاق.
- إن نُسخ شرع من قبلنا **31:53** شرعا لنا بالاتفاق، مثل التماثيل كانت تُعمل في عهد سليمان وكانت جاهزة، مثل سجود التحية كان جائزًا في شرع من قبلنا، وهو في شرعنا محرم ومنسوخ بالاتفاق.

أين وقع الخلاف بين أهل العلم؟

- في شرع من قبلنا إذا سكت عنه شرعنا؛ لم ينسخه ولم يقره؛ هنا وقع الاختلاف بين أهل العلم، فمنهم من قَالَ: شرع من قبلنا ليس شرعنا، ومن من قَالَ: شرع من قبلنا شرع لنا؛ وهذا القول **32:36** جمع من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

وهذه الآية مما يدل على صحة هذا القول، وهو أن شرع من قبلنا إذا ذُكر في النصوص الشرعية ولم يُنسخ ولم يُقر فهو شرع لنا؛ لماذا؟ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]. إذًا الأصل الاقتداء، فبما أنه ذُكر في شرعنا ولم يُنسخ فإنه شرع لنا.

ولكن المهم أن نعلم شيئًا، وهو الشرع الَّذِي ورد في النصوص الشرعية، لا الشرع الذي ورد عندهم ولم يرد فيه نصوص، ما ورد عندهم فنحن مأمورون بألا نصدقهم وألا نكذبهم، نعلم كذبهم أو صدقهم بدليل آخر.

(المتن)

وكذلك قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٣]، وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده، فعلاً وتركاً، اعتقاداً وانقياداً، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] لكونهم هم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما اتصفوا به من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال، وكذلك قوله {وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} [الكهف: ١١٠] يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية، كما أن وصف الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بالعبودية المضافة إلى الله كقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الاسراء: ١] وكقوله {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [البقرة:٢٣] وقوله {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١] تدل على أنه وفَّي جميع مقامات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية، وقوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر:٥٠]، وقوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل:٤٠] يشمل جميع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

(الشرح)

هٰذِه الأمثلة كالتي قبلها.

التعليق:

(المتن)

المفرد المضاف يفيد العموم، والجمع المضاف أيضًا يفيد العموم. أما الجمع فهو يفيد العموم بصيغته وإضافته، والمفرد يفيد العموم بالإضافة فَقَطْ، فلو نظرنا إليه لكونه مفردًا ما دل عَلَىٰ العموم، لكن بالإضافة يدل عليه. ولهذا قال العُلَمَاء: لو قَالَ: امرأتي طالق.

(الشرح)

(امرأتي) نكرة أضيفت إلى معرفة فتفيد العموم.

(المتن)

لو قَالَ: امرأتي طالق طلقت جميع نسائه ما لم يرد واحدة معينة.

(الشرح)

يعني ما لم يكن يريد بهذا اللَّفْظ امرأة معينة.

(المتن)

ولو قَالَ: داري وقف وله ثلاثة دور صارت جميع الدور وقفًا؛ لأن المفرد المضاف يعم، ولو قَالَ: غلامي حر، عتق جميع غلمانه ما لم ينو.

القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

القرآن كله لتقرير التوحيد ونفي ضده، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده، لا شريك له...

التعليق:

هذا البحث من أهم البحوث؛ لأنه يجب أن يكون الإنسان موحدًا في القصد والعمل، في القصد لا يريد بذلك إلا وجه الله، في العمل لا يتبع إلَّا رسول الله، فلا بد من هذين التوحيدين: توحيد القصد وهو الإخلاص، وتوحيد الاتباع أو العمل وهو الاتباع للرسول، فإذا تحقق التوحيدان صحت الأعمال، وإذا اختل أحدهما فإنه يختل من عمله بقدر ما اختل من توحيده.

(الشرح)

عندما نتحدث حول توحيد الله فتوحيد الله ثلاثة أقسام، وعندما نطلق الحديث حول التوحيد فالمتبادر هو التوحيد المتعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فِحِيْنَئِذٍ يكون في ثلاثة أقسام. وتوحيد المتابعة هذا عند الحديث حول حق النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيسمى توحيد المتابعة من جهة إفراد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمتابعة؛ وهذا الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ يقر هذا المعنى، وأن إفراد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمتابعة يسمى توحيده؛ فهذه فائدة مهمة.

الطالب: **39:08.**

الشيخ: نعم، أدلتها كثيرة؛ كل دليل يدل على إفراد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمتابعة.

(المتن)

ويخبر أن جميع الرسل تدعوا قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه.

(الشرح)

إذن الآن الشيخ يتكلم حول طريقة القرآن في تقرير توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا المعنى لاحظه الشيخ في تفسيره ملاحظة ظاهرة، فذكر أنواعًا في دلالة القرآن على توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، والقرآن إنما جاء التركيز فيه على بيان أدلة توحيد الألوهية، إذ توحيد الربوبية مغروس في الفطر، فلا يحتاج إِلَىٰ استدلال، وهذا سينبه عليه الآن الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

التعليق:

(المتن)

لماذا لم يكن تقرير الأنبياء ودعوتهم إلى توحيد الربوبية؟ لأن أقوامهم كانوا مقرين به لا ينكرونه، ولم ينكر أحد توحيد الربوبية أبدًا إِلَّا مكابرة، ولا هناك أحد يعتقد أن هَٰذَا الكون خلق نفسه أبدًا، حتى المجوس الوثنية يرون أن للعالم خالقَين، ومع هذا يرون أن أحد الخالقين أكمل من الثَّانِي. نعم يرون أن النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، ويقولون: إن النور إله خير نافع، والظلمة إله شرير، ويقول بعضهم أيضًا: إن هَٰذِه الظلمة حادثة بعد إذ لم تكن بخلاف النور، وعَلَىٰ كل حال، ما تجد أحدًا من الخلق يقول إن هَٰذَا العالم خُلق بدون خالق أبدًا، إِلَّا مكابر. أما توحيد الألوهية، فإنه هو الَّذِي وقع فيه النزاع والجدال بين الرسل وأممهم مكابرة منهم، ولو رجعت إِلَىٰ قرارة أنفسهم لكان كما قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14].

وأن الكتب والرسل اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العمل لله فعمله باطل {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥]، **{وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأنعام: ٨٨]، **ويدعوا العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن المتفرد بالخلق والتدبير، والمتفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الَّذِي لا يستحق العبادة إِلَّا هو، وأن سائر الخلق ليس عندهم خلق، ولا نفع، ولا دفع، ولن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئا.**

ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يَتَمَدَّح به، ويُثني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة، والمجد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أُخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعاً ولا جزاء {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [يوسف: ٤٠].

(الشرح)

من الأدلة المعروف في القُرْآن وهو دليل في وارد في سور كثيرة وهو الاستدلال بالربوبية عَلَىٰ استحقاق الله للألوهية؛ وَهٰذَا تكرر في القُرْآن في مواضع. أنا أقرأ موضعًا من تلك المواضع من تفسير الشيخ عَلَىٰ ما ذكرت لكم أننا إن لم يمثل الشيخ سنمثل من تفسيره.

ماذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ؟

عند قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21-22]، فاستدل الله عَزَّ وَجَلَّ بالربوبية على استحقاقه للألوهية.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر عَلَىٰ وجوب عبادته وبطلان عبادة ما سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرًّا بأنه ليس له شريك بذلك فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك في عبادته، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري تَعَالَىٰ وبطلان الشِّرْك.**

هذا مثال من أمثلة كثيرة في القُرْآن، والشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ ينبه على هذا كَثِيْرًا عند الآيات التي جاء فيها الاستدلال على استحقاق الله عَزَّ وَجَلَّ للألوهية بكونه الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وأيضًا الدليل الآخر الذي ذكره وهو أن اتصافه عَزَّ وَجَلَّ بصفات الكمال يقتضي أن يُفرَّد بالعبادة؛ هذا أيضًا نبه عليه الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

التعليق:

(المتن)

هنا ما قَالَ: ولا قدرًا؛ لأنه يتكلم عن تقرير الألوهية، وإلا فلا يحكم غيره؛ لا قدرًا ولا شرعًا ولا جزاء، ولا يحكم إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعاً ونقلاً وفطرة، على جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم في شك وأمر مريج.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب هم أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات ضده، والله أعلم.

التعليق:

معنى هذه القاعدة أن الله تَعَالَىٰ يقرر توحيد الألوهية في القُرْآن، إما بكمال صفاته، وإما بتوحيد ربوبيته، ولهذا يستدل الله عَزَّ وَجَلَّ على هؤلاء المنكرين للألوهية بالربوبية؛ إذ أنه يلزمهم إذا أقروا أن الله وحده هو الْرَّبّ الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، يلزمهم أن لا يعبدوا إِلَّا إياه، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ولهذا نقول: إن العلاقة بين أقسام التوحيد الثلاثة هي أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية،

وتوحيد الأسماء والصفات من تمام توحيد الربوبية؛ لأنه يتضمن كمال صفات الخالق سبحانه وتَعَالَىٰ.

(الشرح)

توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فمن أقر بأن الله هو الْرَّبّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتوحيد الألوهية، فيعبد الله عَزَّ وَجَلَّ. وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، فمن يعبد الله عَزَّ وَجَلَّ فعبادته تتضمن اعتراف بأنه هو الْرَّبّ الخالق المالك للضر والنفع... إِلَىٰ آخره.

وأختم هٰذَا الدرس بمثال آخر من تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ يقول هنا عند قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102]؛ يقول: **(ذلكم الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر، الله ربه)**؛ أي: المألوه المعبود الَّذِي يستحق الذل ونهاية الحب، الْرَّبّ الَّذِي ربى جميع الخلق بالنعم، وصرف عنهم صنوف النقم، خالق كل شيء لا إله إلا هو فاعبدوه؛ أي: إذا استقر وثبت أن الله الذي لا إله إِلَّا هو فاصرفوا له جميع أنواع العبادة وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه، فإن هٰذَا هو المقصود من الخلق الذي خُلِقُوا لأجله.. إِلَىٰ آخر ما قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ. عموما هٰذَا الدليل ورد في القُرْآن في مواضع؛ اليوم أخذنا ثلاثة قواعد، ونواصل بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ غدًا، **هذا والحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ رسول الله.**

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

الْمَجْلِسِ (3)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل الليلة التعليق على شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي. ووصلنا إلى القاعدة السابعة.

القاعدة السابعة أيها المكرمون في موضوع مهم جدًّا وهو الذي بينه الشيخ بقوله: **(في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)**. هذا الموضوع موضوع مهم جدًّا، وقد اعتنى به شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عناية ظاهرة، وسبب ذلك أن المتكلمين يرون انحصار دليل النبوة بالمعجزات، فيقولون: دليل نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعجزات، ولا يوجد دليل إلا هذا الدليل. فبيّن شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة أن هذا غير صحيح، وهناك أدلة تدل على نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتنى شيخ الإسلام ببيان الأدلة.

السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فهم ما قرر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فهمًا جيدًا، ثم بيّن في تفسيره الأدلة الدّالة على نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي ذكره شيخ الإسلام ربطه السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بآيات القُرْآن، ومن قرأ تفسير السعدي رَحِمَهُ اللهُ يجد عناية السعدي في بيان أوجه دلالة القرآن على نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكنت أثناء قراءة تفسير السعدي بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ أحرص على تقييد كل كلام له رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في هٰذَا، وقد جمعت لكم بعض ما وقفت عليه، وسأذكره الليلة.

فلاحظت أثناء قراءة التفسير عناية السعدي بهذا الجانب، ولم أقف بعد على كلامه هنا، فلما قرأت كلامه هنا عرفت أنه كان يقصد إظهار دلالة القرآن على نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أنه يتعرض لها لدلالة الآيات عليها، وإنما كان يقصد بيانها. وقبل قراءة كلامه؛ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ يبين ويقول: **(إن قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه نبي مرسل من الله)** هذا خبر؛ وكل خبر هناك قرائن تقوم على صدقه أو عَلَىٰ كذبه، فأي خبر من الأخبار تجري القرائن لمعرفة صدقه وكذبه؛ فَهٰذَا كذلك، فلماذا تخصون إثبات صدق هذا الخبر بالمعجزات؟ فتقولون: لولا المُعجزة لما قام الدليل على صدقه، بل نقول: نُجرِي القرائن المعروفة، فإن ظهر صدقه فهو نبي، وإن لم يظهر صدقه فليس بنبي.

فمن القرائن الدالة على صدق نبوته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخلاقه؛ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان معروفًا بِالصِّدْقِ، ومعروفًا بالأخلاق الطيبة الحسنة، فمن كان يترك الكذب على الناس وفي حديثه مع الناس أَيَكْذِبُ عَلَىٰ اللهِ!؟ فأخلاقه الفاضلة تدل على أن إخباره بأنه نبي صدقٌ.

من الأدلة كذلك الدالة على صدق نبوته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشريعة التي جاء بها؛ رجلٌ أمي لا يعرف بأنه اطلع على الثقافات المنتشرة في ذلكم الوقت، ولا يعرف القراءة والكتابة؛ يأتي بشريعة عظيمة، أخبارها كلها صادقة، وأوامرها كلها محكمة؛ هذا دليل واضح على أنه نبي، إذ يستحيل أن يوجد هذا التشريع من إنسان، وإنما هذا تشريع إلهي.

من دلائل نبواته تأييد الله عَزَّ وَجَلَّ له، فالله عَزَّ وَجَلَّ الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ هل من الحكمة أن يكون هناك رجل يزعم أنه مبعوث من الله وهو كاذب؟ وأنه قد أُنزل عليه قرآن وهو كاذب؟ وأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهو كاذب؟ ثُمَّ يؤيده الله مع كذبه وينصره ويكفر أتباعه ويظهره عَلَىٰ الدين كله بالحجة والبرهان؟ هٰذَا ينافي الحكمة.

إظهار الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه وإعلاؤه لكلمته وتكثيره لأتباعه دليل عَلَىٰ أنه نبي مرسل منهم.

هذه الأدلة وغيرها كإخباره بالغيبيات السابقة والتي ستكون في المستقبل، ثم الغيبيات جاءت على وفق ما قَالَ، والسابقة جاءت على وفق ما أخبر، وصدَّق أهل الكتاب فيما يعرفون، وجاء بما لا يعرفون؛ هٰذَا كله دليل عَلَىٰ أنه صادق.

هذه الأدلة لها ما يدل عليها من كتاب الله، اجتهد السعدي رَحِمَهُ اللهُ، وهذا مما يميز تفسير السعدي. اجتهدي السعدي رَحِمَهُ اللهُ في بيان دلالة القرآن على نبوة مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد بيّن وجوه دلالة القرآن على نبوته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه القاعدة السابعة، إلا أنه لم يكثر من الآيات والاستشهاد بها. أنا سأذكر بعض المواضع التي وقفت عليها لا كل المواضع، وبفضل الله أحسب أني جمعت المواضع كلها من تفسيره. سأقرأ ثم أذكر الأمثلة في تفسيره رَحِمَهُ اللهُ.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

[القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء فهي في محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما نُزِّهوا عنه من النواقص والعيوب، فمحمد صلى الله عليه وسلم أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره، وقرر نبوته بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يُفاجَأ الناس حتى جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا ولا قَدِروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو متقول أو متوهم فيما جاء به.

وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: 46]، **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ}** [القصص: ٤٤]. **وكما في قوله:** ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]. **ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}** [يوسف:١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها تفصيلاً لم يتمكن أهل الكتاب الَّذِينَ في وقته ولا من بعدهم عَلَىٰ تكذيبه فيها ولا معارضته من أكبر الأدلة عَلَىٰ أنه رسول الله حقاً.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض موافق غاية الموافقة لحكمة الله وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما حازه من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه أعلاه وأكمله، فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها: الصدق، أليس هذا أكبرَ الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟!

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين، إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف دينه.

وتارة يقرر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمانه، والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقررها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجِدِّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه ويمنعه وينصره، وما ذاك إلا لأنه رسوله حقًّا، وأمينه على وحيه.

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القرآن الذي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:٤٢]، وتحدى أعداءه، ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل، وَهٰذَا القُرْآن هو أكبر ادلة رسالته وأجلها وأعمها.

وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدالِّة كل واحد بمفرده منها ـ فكيف إذا اجتمعت ـ على أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقررها بعظيم شفقته على الخلق، وحُنوّه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة وبراً وإحساناً إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه، وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم.

(الشرح)

كلام جميل جدًّا، ويحتاج لشيء، وهو أن كل نوع من هٰذِه الأنواع يُذكر شاهدها من القُرْآن، ولو أني قصدت فعل هٰذَا لذهب الدرس اليوم كله في الشواهد؛ فأنا انتقيت شيئًا أذكره لكم، فانتقيت شاهدًا، وقد ذكره هنا، ولكن أنا أذكر تفسيره لهذا الشاهد، لقوله: **(وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة)** وبعد هذا ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ؟ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: 46]، أي: لم تشهد هٰذَا، فعدم شهوده لهذا وإخباره به، وهو أمر غيبي وقع في زمن الماضي يدل عَلَىٰ أنه أُخبر به من قبل الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ هٰذَا ليس بمقدور البشر أن يطلعوا عليه. فأنقل كلامًا للشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في هذا من تفسيره:

وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، موسى! وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويريهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عنك. والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذه الأماكن فقصصتَها كما هي من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛ فِحِيْنَئِذٍ قد لا يدل ذلك عَلَىٰ أنك رسول الله، إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد عُلم وتُيُقِّن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك، فتعين الأمر الثاني وهو أن هذا جاءك من قبل الله ووحيه وإرساله؛ فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد. هذا الموضع اَلْأَوَّلُ.

موضعٌ ثانٍ؛ أيضًا يتعلق بالموضوع نفسه، وهو دلالة القرآن على نبوة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإخباره بقصص وقعت في الزمن الماضي، ومثلها لا يطلع عليه البشر. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 252]؛ خبر طالوت، هذه قصة وحادثة، أخبر بها القُرْآن. يقول تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: **ومن جملة الأدلة على رسالته هذه القصة، حيث أخبر بها وحيًا من الله مطابقًا للواقع.**

طيب هذا نوع من أنواع أدلة القرآن على نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكرت لكم شاهدين من تفسير السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ. نذكر نوعًا آخر:

قَالَ: **(وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه وتمكينه في الأرض موافق غاية الموافقة لحكمة الله، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته)**. وهذه قد ذكرتها لكم في المقدمة، أن كون رجل يدعي أنه مرسل من الله ثم ينصره **22:14** خلاف الحكمة، فما حصل للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدل على أنه نبي وصادق؛ والشيخ يذكر هٰذَا هنا. وذكر في التفسير هذا أَيْضًا، وسأذكر لكم ما قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24]. يقول الشيخ السعدي: يعني أم يقول المكذبون للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جرأةً منهم وكذبًا: افترى عَلَىٰ الله كذبًا، فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منهم، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرؤون على هذا الكذب الصراح! بل تجرأوا بذلك على الله تَعَالَىٰ فإنه قدح في الله، حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة على موجب زعمهم أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات والأدلة القاهرات والنصر المبين والاستيلاء على من خالفه، وهو تَعَالَىٰ قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على **24:07** الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يعي شَيْئًا، ولا يدخل إليه خير، وإذا خُتم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع، فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قَالَ، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته وسنته الجارية أن يمحو الباطل ويزيله وإن كان له صولة في بعض الأوقات فإن عاقبته الاضمحلال.

كلام موافق لما ذكره هنا، وهذا شاهد من القُرْآن، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: 24]، لو كان مفتريًا الكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ لعاقبه الله عَزَّ وَجَلَّ ولما أظهر دينه، فلما كان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منصورًا وهو يقول إنه مرسل

من الله عَزَّ وَجَلَّ والله يديم نصره، ويديم إظهاره، ويعلي كلمته، ويكثر أتباعه، ويجعل له الحجة، دل هٰذَا عَلَىٰ أنه رسول؛ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وتارة يقرر نبوته ورسالته بما حازه من أوصاف الكمال) نذكر شاهدًا لهذه من تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ. هذا الموضوع موضوع مهم، فإن أطلنا فيه شَيْئًا من الإطالة فهي إطالة ممدوحة بِإِذْنِ اللهِ وليست مذمومة.

ننتقل إِلَى: **(وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به)** لاحظوا هذا الكلام النفيس والتقرير البديع لشيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي. يقول: **(وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القُرْآن)** لاحظوا كيف انتزع هذا المعنى الشيخ السعدي من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 1-3]؛ الآن **(يس، والقرآن الحكيم)** قسم بالقرآن الحكيم، أين جواب القسم؟ إنك لمن المرسلين.

فما وجه جعل القرآن مُقسمًا به؟ وجعل جواب القسم: إنك لمن المرسل؟ فيقول الشيخ هناك ارتباط بين القرآن وبين الرسالة. يقول: **(إنك لمن المرسلين)** هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنك يا محمد من جملة المرسلين، فجئت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية.

وأيضًا؛ فمن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم عرف أنك من خيار المرسلين بما فيك من الصفات الكاملة والأخلاق الفاضلة. ولا يخفى ما بين المُقسَم به وهو القرآن الحكيم وبين المقسم عليه وهو رسالة الرسول محمدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم لكفى به دليلًا وشاهدًا على رسالة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة برسالة مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كلام عظيم جدًّا؛ هذا شاهد لقوله: **(وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القُرْآن)**.

وأيضًا من الأدلة إعجاز القُرْآن، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ تحدّاهم بأن يأتوا بسورة، وبعشر سور، وبمثله، ولم يستطيعوا. يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عند قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23-24]. يقول: وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحة ما جاء به، فَقَالَ: وإن كنتم يا معشر المعاندين للرسول الرادين دعوته الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا هل هو حق أو غيره، فهٰهُنا أمر نصف فيه الفيصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم ليس من جنس آخر، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم إنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصًا وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز ولم تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبيرة ودليل واضح جلي على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة أن كان وقودها الناس والحجارة... إلى آخر ما قَالَ.

كلام عظيم جدًّا؛ وجوه أدلة القرآن عَلَىٰ نبوة مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قَالَ الشيخ تزيد في الإيمان، وتُذهبُ وسوسة الشيطان، ولا بد من إظهارها وإكثار الحديث حولها، لا

سيما في هذا الزمن الذي وُجد فيه بين المسلمين من يلحد ويكفر بالله رب العالمين، ولا يصدق بنبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذه وجوه نفيسة، وقررها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في مواضع من كتابه، وقد ذكرت لكم بعضها.

الطالب: 32:58.

الشيخ: فيما يبدو أن الكتاب شُرح في دورة في ظني والله أَعْلَمُ، أظن هكذا لقلة التعليقات، أو أنهم شرحوه في مدة وجيزة فلم يتمكن الشيخ من التعليق، ولكن للشيخ كلام في هذا معروف رَحِمَهُ اللهُ.

(القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد) الآن أخذنا وقتًا في القاعدة الأولى، فهذه سنقرأ قاعدتين، وستكون قراءة مجردة عن التعليق.

(المتن)

[القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد]

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه، وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره وهو أصدق القائلين، ومع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه.

وَمِنْهَا: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها تذكيره العباد بالنشأة الأولى...

التعليق:

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ يقول: إنه أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه والصحيح أنه أمر نبيه أن يقسم عليه؛ لأن الإقسام عليه كثير، أكثر من ثلاثة مواضع، لكنه أمر نبيه أن يقسم في ثلاثة مواضع.

(الشرح)

إذن الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ يقول إن الله أقسم على المعاد في ثلاثة مواضع. الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يقول إن إقسام الله على المعاد في مواضع كثيرة، وإنما أمر نبيه بأن يقسم في ثلاثة مواضع.

لكنه أمر نبيه أن يقسم في ثلاثة مواضع:

في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: 53]، وفي سبأ: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: 3]، وفي التغابن: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: 7].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، لابد أن يعيدهم كما بدأهم، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المنكرون لذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياءه الموتى؟

وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يُؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه في الأمم الماضين والقرون الغابرة، وكيف نجى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوَّعَ عليهم العقوبات، وأحل بهم المَثُلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى بن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لابد أن يَرِدوا دار القرار، إما الجنة أو النار. وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة، والله أعلم.

التعليق:

وإنما أبدى الله سبحانه وتَعَالَىٰ وأعاد لسببين:

السبب اَلْأَوَّلُ: قوة المنازع والمكابر والمعاند والمنكر، وكلما قوي الإنكار وكثر المعاند فإنه لا بد أن يُكرر الأمر ردعًا له وإثباتًا للحق.

وَالثَّانِي: لأهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لن يعمل، فإن الإنسان إذا كان يقول: ما ثم بعث ولا جزاء ولا حساب فهو لن يعمل. مادام يقول: أنا إن فعلت الخطيئة أو فعلت حسنة فهو عليّ سواء، فلن يعمل. فلهذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ يكثر من ذكر البعث بعد الموت وضرب الأمثال له، والإقسام على ثبوته، وغير ذلك مما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لهذا السبب.

(الشرح)

هذه القاعدة قاعدة نفيسة، وأحسب أن الوجوه التي ذكرها تحفظون من القرآن شواهد لها، فاستخراجها من القرآن ليس بالشيء الصعب.

(المتن)

[القاعدة التاسعة: في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية]

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها. فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أَحَدُهُمَا: من جهة الحثّ على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق

بكل خلق حميد، والتجنب لكل خلق رذيل. فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها ـ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أو يعلق فعل ذلك على الإيمان، وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثَّانِي: أن يدعوهم بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هٰذِه النعمة بفعل كذا وترك كذا.

التعليق:

يقول رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

أَحَدُهُمَا: من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان وشروطه، وَالثَّانِي: أن يدعوهم بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة التي هي أجل المنن، ومُناداتهم بـ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}؛ لأجل إغرائهم وحثهم على أن يفعلوا، وأن ذلك من مُقتضى الإيمان. الثَّانِي: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} إشعار لهم بمنة الله عليهم بالإيمان، يعني: هذه النعمة الَّتِي أنعمت بها عليكم، وهي الإيمان الَّذِي ناديتكم به.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيه.

وتارة يدعوا المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، وبذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب وما لغيرهم من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، ويتعبدوا له، ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة؛ فالعبادات كلها وتعظيم وتكبير لله، وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك (إِلَىٰ ذلك أي: إِلَىٰ الأحكام الشرعية كما قَالَ هو: طريقة القُرْآن في أمر المُؤْمِنِيْنَ وخطابهم بالأحكام الشرعية)؛ لأجل أن يتخذوه وحده ولياً وملجأ، وملاذاً ومَعاذًا، ومفزعًا إليه في الأمور كلها، وإنابة إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتى يفوّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك. وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبَدَّلة، لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله {فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [يونس: 95]، **﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنعام: 52]، **{وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}** [الأعراف: ٢٠٥]، **{أَلَمْ يَأْنِ**

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]، **إلى غير ذلك من الآيات.**

(الشرح)

الكتاب مهم، وقواعده كلها جميلة، ولكن التعليق عَلَىٰ كل قاعدة متعذر مع الوقت المحدد، فنضطر إلى انتقاء ما يحتاج إلى تعليق فنعلق عليه، ونترك بعضه على أنه يحتاج إلى تعليق، إلا أن الحاجة دون الحاجة الملحة لما نعلق عَلَيْهِ، **هذا وَالحَمْدُ للهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ رسول الله.**

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

الْمَجْلِسِ (4)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ووصلنا إلى القاعدة العاشرة. الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في القاعدة التاسعة بيّن طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية، فلما بيّن طريقة القرآن في أمر المؤمنين أتبع ذلكم بقاعدة في الطرق التي في القرآن لدعوة الكفار على اختلاف مللهم ونِحلهم.

فقال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

[القاعدة العاشرة: في الطرق التي القرآن في دعوة الكفار على اختلاف مللهم ونِحلهم]

يدعوهم إلى الإسلامي، والإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ليهتدي مَنْ قصده الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند. وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام، فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي - صلى الله عليه وسلم - وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجون به، فإن الحق إذا اتضح عُلم أن ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أخذات الأمم وعقوبات الدنيا وعقوبات الآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، ويحذرهم من طاعة رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لابد أن تتقطع نفوسهم على طاعتهم حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم ستتبدل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضاً بنحو ما يدعوا المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضاً بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، والمقارنة بينها وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره، ويدعوهم بالتي هي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم، وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً، أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد، ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم وختم عليها، وسد عليهم طرق الهدى عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم للشيطان، وتخليهم من ولاية الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم. وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم.

[القاعدة الحادية عشرة]

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلّت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرح اللفظ بذكرها.

التعليق:

فتح لنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ **في العبارة أبواب الدلالة، وأنها ثلاثة أقسام: دلالة مطابقة، ودلالة تضمن، ودلالة التزام. فدلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على جميع معناه، ودلالة التضمن دلالته عَلَىٰ جزء من معناه، ودلالة الالتزام دلالته عَلَىٰ لازم معناه، ودلالة اللازم عَلَىٰ أمرٍ خارج. مثال ذلك إذا قلت: هٰذِه دارٌ فدلالة هذه الكلمة على ما في الدار من الغرف والحجر والفسحات والحمامات وما أشبهها دلالة مطابقة، ودلالتها على كل غرفةٍ بمفردها دلالة تضمن، ودلالتها عَلَىٰ أن لهٰذِه الدار بانيًا دلالة التزام.**

هذه أنواع الدلالات الثلاثة، ولا شك أن الله إذا فتح عَلَىٰ الإنسان معرفة هٰذِه الدلالات فإنه يحصل علمًا كَثِيْرًا بأدلة قليلة، ولهذا تجد بعض العُلَمَاء يستنبط من الآية أحكامًا كثيرة وآخرين لا يستنبطون منها إلا بعض هذه الأحكام، كل ذلك بما يفتح الله على الإنسان من الفهم في أنواع الدلالة.

(الشرح)

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: **(كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني وما تستدعيه من المعاني الَّتِي لم يصرح اللَّفْظ بذكرها)** وهذا الشيخ لاحظه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في تفسيره، كما أنه سيذكر أمثلة هنا توضح مراده. ولكن قبل هذا نفهم ما ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في توضيح أنواع الدلالات.

الدلالة الأولى دلالة المطابقة، عرفها الشيخ فَقَالَ: **(دلالة اللفظ على جميع معناه)**، ومثل رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فَقَالَ: **(مثال ذلك إذا قلت: هٰذِه دارٌ فدلالة هذه الكلمة على ما في الدار من الغرف والحجر والفسحات والحمامات وما أشبهها دلالة مطابقة)** الآن عندنا نقول بيت، البيت يشتمل عَلَىٰ غرف وغير ذلك، فدلالة لفظ البيت عَلَىٰ كل ما فيه دلالة مطابقة، فدلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على جميع معناه.

ودلالة التضمن هي دلالته -أي دلالة اللَّفْظ- عَلَى جزي معناه فعندما نقول: بيت، فإنه يدل عَلَىٰ الحجر دلالة تضمن؛ لأنه دلالة لِلَّفْظِ عَلَىٰ بعض معناه. يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: **(ودلالة التضمن دلالته عَلَىٰ جزء من معناه، ودلالة الالتزام دلالته عَلَىٰ لازم معناه، ودلالة اللازم عَلَىٰ أمرٍ خارج)** فدلالة الالتزام تدلّ عَلَىٰ لازم معنى اللَّفْظ، فهي دلالة خارجية وليست تدل على مدلول اللَّفْظ، لا بالمطابقة ولا بالتضمن. فعندما مثلنا الآن بالدار؛ الدار تدل عَلَىٰ كل ما فيها دلالة مطابقة، وتدل عَلَىٰ بعض ما فيها دلالة تضمن، وتدل عَلَىٰ الباني دلالة التزام؛ فلازم البيت أن يكون هناك من بناه، فدلالة الالتزام هي دلالة اللَّفْظ على لازم مَعْنَاهُ، لازم مدلول البيت أن يكون هناك من بناه. هذا بأسلوب موجز، استعمال هذا وملاحظة الدلالات في فهم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، واستنباط الأحكام باستعمال الدلالات أمرٌ دقيق يتفاوت فيه الناس تفاوتًا عظيمًا، وكلما رُزق العبد منه حظٌ كبير كان له نصيبٌ وافر من فهم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

نأخذ مثالًا؛ ولاحظوا أنتم هذا المثال، وكيف أن الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فهم بدلالةٍ اللازم حكمًا من آيةٍ يصعب الوصول للحكم في النظر فيها. فالآن مثلًا أذكر لكم ما استنبط رَحِمَهُ اللهُ بدلالة اللازم: الفقهاء يذكرون مسألة وهي صحة عقود الكفار؛ رجل وزوجته أسلما وكانا كافرين، ما حكم عقدهما؟ هل يحتاجان لعقد جديد؟ أم أن عقدهما الذي كانا عليه يُعد صحيحًا؟ أين تجد

هٰذَا في القرآن؟ منكم من يعرف في استنباط الشاهد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 1-4]، قال الشافعي في أن عقود الكفار صحيحة لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أثبت أنها امرأته، فلازم كونها امرأةً له أن يكون عقد النكاح صحيحًا، فمن أوتي فهمًا يستنبط الأحكام الفقهية من آيات يظن الظان أنها لا تفيد أحكامًا فقهية.

ودلالة الالتزام لا تتعلق بالقرآن فَقَطْ، القُرْآن.. في السُّنَّة، ويستعملها الفقيه في الترجيح، الدلالات كلها. ومن الأمثلة التي ذكرتها في أكثر من مناسبة في استعمال دلالة الالتزام في الترجيح في بعض المسائل؛ أهل العلم يقدرون شَيْئًا وهو أن لازم الحق حق، وبطلان اللازم يفيد بطلان الملزوم، فمتى ما أوجدنا للنص معنًى يلزم منه لازمٌ باطل فإن هٰذَا اللازم الباطل يدل عَلَىٰ فساد المعنى المفهوم، وحينئذٍ علينا أن نبحث عَلَىٰ المعنى الصحيح لهذا النَّصّ.

الكلام واضح؛ متى ما فهمنا من النص معنًى، وكان هذا المعنى يلزم عليه لزام باطلة، فإن بطلان اللازم يدل عَلَىٰ بطلان هٰذَا المعنى، وَحِيْنَئِذٍ علينا أن نعيد النظر في فهم النَّصّ. وإذا أخذنا حكمًا من نصٍ ولزم عَلَىٰ هٰذَا الحكم لازم الباطل، فإن اللازم الباطل يدل عَلَىٰ فساد هٰذَا الحكم، فَحِيْنَئِذٍ علينا أن نعيد النظر في دلالة هذا النص عَلَىٰ هٰذَا الحكم.

مثال: إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي؛ أخذ بعضهم أن تحية المسجد واجبة. ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ له كلام يفيد الإجماع على عدم وجوب تحية المسجد، وأنها مستحبة. ومما نوقش فيه الوجوب وجه لطيف؛ قالوا: إذا قلتم بوجوب تحية المسجد فيلزم على الوجوب إيجاب عدم دخول المسجد إلا على طهارة؛ لأن الداخل للمسجد ملزم بأن يصلّي، والصلاة لا بد لها من طهارة، وأنتم الآن أوجبتم عليه الصلاة، إذن يجب عليه أن يتوضّأ، وبالاتفاق لا يجب الوضوء لدخول المسجد، فاللازم باطل، فالملزوم باطل، فبطل اللازم من إيجاب تحية المسجد، فظهر بذا أن الملزوم وهو فهم الإيجاب من النَّصّ الشرعي باطل، إذًا علينا أن نعيد النظر في الحكم الشرعي الَّذِي استفدناه من هٰذَا النَّصّ.

أنا الآن الذي أريد أن أبينه هو ضرب أمثلة سهلة بِإِذْنِ اللهِ وميسورة، نفهم من خلالها أهمية دلالة اللازم الَّتِي بينها الشيخ هنا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، بيّن دلالة المطابقة، ودلالة التضمّن، ودلالة الالتزام؛ وبيّن أنها تفتح عَلَىٰ الإنسان فهمًا لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، هو فهم لكتاب الله، وفهم لسنة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفهم في الترجيح في المسائل الشرعية. ماذا قال الشيخ ابن عثيمين؟

(هذه أنواع الدلالات الثلاثة، ولا شك أن الله إذا فتح على الإنسان معرفة هذه الدلالات فإنه يحصل علم كَثِيرًا بأدلة قليلة، ولهذا تجد بعض العلماء يستنبط من الآية أحكامًا كثيرة، وآخرين لا يستنبطون منها إلا بعض هذه الأحكام، كل ذلك بما يفتح الله على الإنسان من الفهم في أنواع الدلالة) والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ له تأمّل في استنباط الأحكام الشرعية دقيقة، واستعمال لِهٰذِهِ الدلالات.

أنا أذكر لكم من لطيف ما وقفت عليه، وهو يتعلق بالشهر المبارك الذي نحن فيه؛ كنت أبحث في مسألة وهي: هل الإنسان يستطيع أن يصل إلى العلم بليلة القدر أم لا يستطيع؟ وأهل العلم يذكرون أنه قد يستطيع أن يعرف ليلة القدر على وجه التخصيص، ويذكرون أدلة.

أوضح دليل وقفت عليه للشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وهو بدلالة اللازم في شرح توضيح الأحكام، في شرح بلوغ المرام بفتح ذي الجلال والإكرام، عند فوائد

حديث عائشة: «يا رَسولَ اللهِ، أرأيْتَ إنْ عَلِمتُ أيَّ ليلةٍ لَيلةُ القدْرِ ما أقولُ فِيها؟ قال: قُولي: اللَّهمَّ إنَّكَ عفوٌّ، تُحِبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي»[1].

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (هذا فيه أن ليلة قدر قد تُعلم، فلازم تعليم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دعاءً تقوله في ليلة القدر يفيد أن ليلة القدر تُعلم على وجه التعيين) بل قد يقال إن هذا ليس من باب دلالة اللازم وَإِنَّمَا هو من با دلالة المطابقة؛ لأنها قالت: (إذا علمت ليلة القدر أي ليلة هي فماذا أقول فيها)، فأجابها النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. عمومًا تأمل هذه الدلالات جدًّا، ونحن قلنا لن نعلق، وَهٰذَا تعليق ميسور بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(المتن)

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد. فإن الذي أنزله هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تحتوي عليه القلوب وما تضمنه المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه. ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهماً جيداً، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، ولا تزال تفكر في هٰذِه الأمور وحتى تصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق. فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقاً ونوراً، انفتحت له العلوم النافعة، والمعارف الجليلة. ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسمائه [الرحمن الرحيم]، فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمة وسعة رحمته.

(الشرح)

قبل قراءة كلام الشيخ حَتَّىٰ تعرفوا مراده؛ (الرحمن) هٰذَا لفظ، يدل دلالة مطابقة عَلَىٰ أمرين: عَلَىٰ ذات الله، وعَلَىٰ صفة الرحمة. ويدل دلالة تضمن عَلَىٰ صفة الرحمة وحدها، أو عَلَىٰ ذات الله وحدها. ويدل دلالة التزام عَلَىٰ أنه حيٌّ.. إلخ. إذًا الرحمة لا تقوم إِلَّا بحي.

(المتن)

فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة أحد هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين، عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل الله تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: ٥٨]، فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها استدللت

---

(1) أخرجه الترمذي/ برقم: (3513)، وابن ماجه/ برقم: (3850)، وصححه الألباني.

بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك...

التعليق:

قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، هذا أمر بإداء الأمانة يستلزم أن نحفظها؛ لأنه لا يتم الأداء إلا بذلك، ولهذا لو أعطيتني أمانة ووضعتها عند العتبة عند الباب، فإني ما أديتها طبعًا. فإن قيل: ما هو الدليل على وجوب حفظ الأمانة في حرز مثلها وعدم التعدي فيها وعدم التفريط؟ قلنا: الدليل قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]؛ لأنه لا يتم الأداء إلا بذلك. وهذه دلالة التزام.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك على أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالماً بما يحكم به، فإن كان حاكماً عاماً، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلى ذلك، وإن كان حاكماً ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها، فلا بد أن يكون عارفاً بهذا الأمور التي يريد أن يحكم بها، ويعرف الطريق التي توصله إليها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة ونهانا عن أمور كثيرة. ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفته وعلمه، فكيف يُتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يدع الأمر الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمر لعباده أن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر، ليأمر بهذا وينهَى عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب. فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم على تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرباً وتعبداً.

التعليق:

كل هذه الأمثلة التزام إذا أمرنا الله بالصلاة فهو أمر بها، وبما لا تتم إلا بها، إذا أمرنا بالزكاة فهو أمر بها وبما لا تتم إلا بها، فهذا الرجل الذي عنده مال يجب عليه أن يتعلم أحكام الزَّكَاة، والذي ما عنده مال لا يجب عليه إلَّا إذا كان من باب فروض الكفاية، والإنسان يجب عليه الحج يجب عليه أن يتعلم حكام الحج بخلاف الآخر، والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا يمكن أن يأمر وينهى إلَّا وهو عالم بالحكم الشرعي، وعالم بالمعروف وعالم بالمنكر، وعلى كل حال ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب، وَهٰذِه القاعدة الفقهية الأصولية من هٰذَا الباب، دلالتها دلالة التزام، فهو وجوب التزام.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

ومن ذلك الأمر بالجهاد، والحث عليه، من لازم ذلك: الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به، من تعلم الرمي، والركوب، وعلم آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخولَ مطابقة في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠]، فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها.

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وهذا يدل على عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالى على من كذب بمنزلة آياته وأدلته.

التعليق:

وهذا واضح لأن أهل العلم هم الذين تُقبل شهادتهم فيما علموا. وأما الجاهل فلا، ولهذا لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علم، فلا يشهد بما ظن إلا أن يشهد به على وجهه، فيقول: هذا الرجل أتى ما تدل القرينة على أنه فعل كذا.

الحاصل أن الشهادة لا بد لها من علم، ولهذا قال تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 18]، أي: شهدوا. أما الجاهل فليس عنده من الآيات الدالة على وحدانية الله ما يستطيع أن يشهد بذلك، ولهذا لا يجوز أن تستفتي الا من تعلم أنه عالم أو يغلب على ظنك أنه عالم، فإذا أتيت بلدًا لا تعرف أهلها ولا تعرف من هو العالم فيها، ثم رأيت رجلًا يأتيه الناس ويستفتونه وهو يفتيهم غلب على ظنك أنه عالم؛ فَهَٰذِه طريقة.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

ومن ذلك سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إمامًا، يقتضي سؤالهم الله جميع ما تتم الإمامة في الدين به، من علوم ومعارف جليلة وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة؛ لأن سؤال العبد لربه شيئًا سؤال له، ولما لا يتم إلا به، كما إذا سأل العبد اللهَ الجنة، واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤال كل ما يقرب إلى هذه ويبعِّد عن هذه.

التعليق:

ومثله أيضًا: لوقا الطالب: اللهم إني أسألك النجاح، يتضمن وسائل المذاكرة والمراجعة.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

ومن ذلك: أنه أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين، فيُسْتدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب ـ عليه السلام ـ {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: ٨٨].

ومن ذلك قوله تَعَالَىٰ: **{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}** [الأحزاب: ٤٧]، **{حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ}** [لأنفال:٦٥]**، يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حث وتحريض وما يتوقف على ذلك، ويتبعه من الاستعداد والتمرن على أسباب الشجاعة والسعي في القوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة ونحو ذلك.**

ومن ذلك الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها، وتعليمها، فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلفين يدخل في ذلك، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، وَوُجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الأهلة -بالصيام والفطر والحج وغيره- إبلاغها بالأصوات والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها. وكذلك يدخل فيه كل ما أعان على إيصال الأصوات إلى السامعين، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها...

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

التعليق:

(المتن)

شيخنا عبد الرحمن رَحِمَهُ اللهُ دقيق في هذه المسائل، ولا يستوحش من المخترعات العصرية، بينما كان بعض الناس في وقته ينكرون أن تثبت الأهلة بالإذاعة أو البرقيات أو ما أشبه ذلك.

(الشرح)

تثبت الأهلة بالإذاعة!؟ لعلها تُبث.. لكن هو المراد نشرها بين الناس وليس المراد ثبوت الهلال؛ اللفظ يقتضي الحديث حول ثبوت الهلال، فالهلال لا يثبت بالإذاعة والبرقيات وإنما ينشر خبر ثبوت الهلال بالإذاعة والبرقيات؛ اللفظ الذي بين أيدينا. **(بينما يُنكِرون أن تُثْبَتَ الأهلَةُ بالإذاعةِ أو البرقيات أو ما أشبه ذلك)** ربما يريد أن تُثبت: أي لا يُعتمد على الخبر الذي ينقل للناس عبره. فلعل هذا المراد؛ بمعنى أنه إذا نُقِل للناس أن رؤية الهلال قد ثبتت عبر هذه الوسائل فإننا لا نصدق بهذا لأنها تنتقل في ظنهم عن طريق الشياطين.

(المتن)

شيخنا عبد الرحمن رَحِمَهُ اللهُ دقيق في هذه المسائل، ولا يستوحش من المخترعات العصرية، بينما كان بعض الناس في وقته ينكرون أن تثبت الأهلة بالإذاعة أو البرقيات أو ما أشبه ذلك. ويقول بعضهم إن هذه البرقيات سحر أو شياطين تنقل الصوت، لكن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ليس على هذا؛ وكان الناس قبل أن تأتي الإذاعة وقبل أن تأتي المدافع يمشون بالأسواق ويرمون بالبنادق، فهذه وسائل لا يقال عنها بدعة، كما اشتبه على بعض الناس فقالوا: هذه الوسيل ليست موجودة في عهد الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ وقالوا: وسيلة حفظ العلم بالأشرطة ليست موجودة في عهد الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فهي إذًا بدعة، وقد قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلُّ ضلالةٍ في النارِ»(1)، فتسجيلاتكم وأشرطتها كلها في النَّار؛ لأنها بدعة! هذا غير صحيح؛ لأن هذه وسيلة أنا لم أتعبد لله بأني أضعها في المسجل وأجعلها عبادة، إنما هي وسيلة كالأقلام من عهد الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد كانوا يكتبون بالعيدان والقصب وما أشبهها. أما الآن؛ فاختلفت الأحوال. وكذلك الورق كان نادرًا فكانوا يكتبون على العظام وَاللِّخَافِ وَمَا أَشْبَهَهَا.

فالمهم أنه يجب أن نعرف الفرق بين الوسيلة وبين القصد أو الغاية، فوسائل المشروع مشروعة؛ فالبدعة لا تكون إلا فيما قصد لذاته. أما ما كان وسيلة لغيره، فلا. والوسائل لها أحكام المقاصد، وليس قولنا: إن الوسائل لها أحكام المقاصد مثل قول بعض الناس: الغاية تبرر الوسيلة! لأن هذه الأخيرة مقولة خبيثة استخدمها الشيوعيون لأغراضهم ظنًا منهم أن غايتهم حميدة، فهي تتكلم في الحق لكن قد تؤدي إلى باطل.

أنا ما أستمع للمسجل للتعبد والاستماع، إنما أستمع للمسجل لضبط القرآن فَقَطْ. لو قال أحد: بدل أن نجعل واحدًا يقرأ ونستمع! نجعل هذا المسجل يقرأ ونستمع! قد نقول: هذا ليس مشروع؛ لأن هذا المسجل ما ينال الأجر، وإلا لقلنا إنه يصلح نجعله عند الميكروفون ويؤذنه بدل المؤذن، كما يفعل بعض الناس، وسمعت أنه في بعض البلاد الاسلامية يجعلون مسجلاً على الساعة، فإذا وصلت الساعة إلى الوقت انفتح المسجل بالأذان وهذا خطأ؛ لأن الأذان عبادة وهذا المسجل جماد لا يتعبد. لكن الاستماع للتلاوة من مسجل لا شيء فيه؛ لأنه يستمع إليه للتلاوة والضبط فَقَطْ، وكما ينظر إليه في ورق المصحف، كذلك يستمع إليه،

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (867).

ويمكن أن يكون له الأجر بما يكون في قلبه من الخشوع والإنابة وتدبّر المعنى كما لو سمع أحدًا يتلو.

فالمسجل لا يستمع إليه تعبدًا، وما يحصل في قلبه من خشوع وتدبّر يؤجر عليه من هذه الناحية. لكن ليس كما لو قرأ عنده إنسان أو اتفق وإياه على أن يقرأ؛ لأن القاري له بكل حرف عشر حسنات، والمستمع كذلك.

(الشرح)

كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فيه إطلاق هنا، ولعله رَحِمَهُ اللهُ أطلق لأن التعليقات تعليقات مختصرة، وإلّا فالبسط في هٰذا الموضوع معروف عنه، فقوله رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ هنا: **(فوسائل المشروع مشروعة)** هذا يُضبط بقاعدة الشيخ دائمًا يكررها، والقاعدة نبه عليها شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ في مواضع وبسّط القول فيها في اقتضاء الصراط المستقيم. نذكرها بشكل موجز جدًا، وهي: أن وسائل العبادة تُضبط بقاعدة وهي: إذا وُجد المقتضي لها في عهد الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يوجد مانع من فعلِها ففعلها **36:44**، الوسائل؛ وسائل العبادة المستجد، أي: التي لم تكن في عهد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إن كان مُقتضاها موجودًا في عهد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يوجد مانع يمنع من فعلها ولم يفعلها ففعلها غير مشروع، فإن كان المُقتضي موجودًا وثم مانع من فعلها ففعلها مشروع، هذه الوسائل تسمى بالوسائل المرسلة.

وسائل: أي: هي سبب ميسر لإيقاع العبادة، هذا معنى الوسيلة، فهي وسيلة.

مرسلة: أي: لا يوجد لها دليل خاص في القُرْآن وَالسُّنَّة، نريد أن نفعلها تُضبَط بهذه القاعدة، ننظر هل مقتضي هٰذِه الوسيلة موجودًا في عهد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم لا، ثم ننظر إن كان المقتضي موجودًا في عهد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل وُجد مانع من فعل هذه الوسيلة أم لا، فإن كان المقتضي موجود والمانع مفقود ففعلها الآن بدعة، وإن كان المقتضي موجودًا والمانع موجودًا، ففعلها الآن ليس بدعة.

نمثل بمثال: جمع المصحف وسيلة لحفظ القُرْآن؛ جُمع المصحف في عهد من؟ أبي بكر الصديق، هل المقتضي كان موجودًا في عهد النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ موجود، وهو حفظ القُرْآن، مقتضي لجمع المصحف، فهو موجود. هل كان يوجد مانع؟ نعم؛ لأن القرآن لا يزال ينزل، ولا يزال القرآن ينسخ بعضه بعضًا، ففعل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعل مشروع، إذ المقتضي للجمع وإن كان موجودًا في عهد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن في عهده مانعًا يمنع من جمعه، فجمع القرآن في مصحف وسيلة لحفظ القُرْآن.

نأتي الآن إلى وسيلة حادثة أخرى؛ الوسيلة التي تكلم عليها الشيخ وهي تسجيل دروس العلم، وبث العلم في الإذاعة. هل المقتضي موجود وهو حفظ العلم؟ كان موجودًا. حفظ العلم بهذه الوسيلة هل كان ميسرًا؟ لا، إذًا يوجد مانع، ففعل هٰذِه الوسيلة الآن ليس **40:41**.

نأتي إلى وسيلة محدثة وهي من باب البدع؛ الآن الدعوة بالأناشيد، يأتون بمنشد بحدث الدعوة، نقول: دعوة الناس المقتضي للإنشاد عندهم كان موجودًا في عهد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم لا؟ كان موجودًا. الإنشاد هل كان موجودًا أو كان متعذرًا؟ كان موجودًا، كانوا ينشدون على سبيل الترويح على أنفسهم. هل أنشدوا طلبًا للدعوة وترقيق قلوب الناس، وحثهم على الزهد والعبادة والتوبة؟ ما فعلوا؛ إذن المقتضي كان موجودًا، والمانع كان مفقودًا، ففعل فأخذ الإنشاد وسيلة للدعوة يعد من وسائل العبادات التي هي من باب الوسائل المرسلة، تُضبط بهذه القاعدة. وهذه القاعدة تحتاج إلى مزيد بسط وتفصيل وتمثيل، ولكن هذا القدر كافٍ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والداعي إليه تقييد إطلاق الشيخ، وهو إطلاق قد بينه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في

مواضع، وفصل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بذكر هذه القاعدة في مواضع، فالداعي له هو قول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ...

فالمهم أنه يجب أن نعرف الفرق بين الوسيلة وبين القصد أو الغاية، فوسائل المشروع مشروعة، هذا يُضبط في هذا القيد. فالآن ترقيق قلوب الناس أمر مشروع، هل الإنشاد لهذا أمر مشروع؟ ليس مشروع.

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

المجلس (5)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ووصلنا إلى الصفحة الثامنة والخمسين عند كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ الموضح للقاعدة الثانية عشرة التي قال فيها: (الآيات القرآنية التي ظاهرها التضاد يجب حمل كل نوع منها على حال بحسب ما يليق ويناسب المقام). فقال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في ضمن شرحه لهذه القاعدة:

(المتن)

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن مودتهم والاتصال بهم، وفي بعضها: الأمر بالإحسان إلى من له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين ونحوهم. فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ} الآية [الممتحنة: ٨، ٩]، فالنهي واقع على التولي والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع على الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الإنسانية على وجه لا يُخل بدين الإنسان.

التعليق:

الفرق بين البر والإقساط في قوله تعَالَىٰ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا﴾ [الممتحنة: 8] أن البر زيادة في الفضل والإقساط: العدل؛ فمثلًا: إذا أحسنوا إلينا نحسن إليهم، وإذا كان لهم حق نحسن إليهم. أما الثَّاني: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: 9]، ولم يقل: أن تبروهم، حتى هؤلاء ربما يكونوا في الإحسان إليهم خير، لكنهم ليسوا كالأولين. والموالاة والموادة لجميع الكفار محرمة. وكذلك الفرق الضالة إذا كانت بدعتهم تكفرهم فلا تجوز موالاتهم.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها. فهذه الآية تفسر المراد، وأن خلق الأرض متقدم على خلق السماوات، ثم لما خلق الله السماوات بعد ذلك دحا الأرض، فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومن ذلك: تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد ببعض أحوالهم، وهذا الأخير فيه زيادة معنى، وهو أنه يدل على المجازاة على ذلك العمل، سواء كان خيراً أو شراً، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلى السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة على الجهاد باليد، والآيات الأُخر حين قووا وصار ذلك عين المصلحة؛ والطريق إلى قمع الأعداء.

(الشرح)

في أول الكتاب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بيّن أن الذي له علم بالسنة ينتفع في فهم القرآن من علمه بِالسُّنَّةِ؛ هذا مثال لما أراد مثال. فالعلم بالسنة وما كان عليه المسلمون في العهد المكي، والعلم بالسنة وبما عليه المسلمون في العهد المدني، يفهم الفرق بين الآيات التي جاء فيها الأمر بالقتال والآيات التي جاء فيها الكف، فلا يجعل الآمر بالقتال ناسخة للآيات التي جاء فيها الكف عن القتال، وإنما يعلم أن هذه في حال وهذه في حال.

يقول الشيخ: **(ومن ذلك الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي والإخلاد إلى السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة ولا قدر على الجهاد باليد)** هذا في العهد المكي. **(والآيات الأُخر حين قووا وصار ذلك عين المصلحة، وهو الطريق إلى قمع الأعداء)** وهذه في العهد المدني.

(المتن)

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلى عموم القدرة، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته، فيفيد مجموع الأمرين إثبات التوحيد، وتفرد الباري بوقوع الأشياء بقدرته ومشيئته، وإثبات الأسباب والمسببَّات، والأمرَ بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحةَ مستوي الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في عمل الأسباب النافعة والنظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وأن لا يتكل على نفسه في أمر من الأمور، بل يتكل ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحاب تقع بمحض فضله وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد، فإن الأسباب هو الذي أنعم بها وهو الذي يسرها، وأن السيئات وهي المصائب التي تصيب العبد أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوق ربه، وتعديه لحدوده، فالله وإن كان هو المقدر لها، فإنه قد أجراها على العبد بما كسبت يداه، ولهذا أمثلة يطول عدها.

التعليق:

جاء في القرآن آيات ظاهرها التعارض يعني أن بعضها يعارض بعضًا ظاهرًا، ولا يمكن في القرآن ولا في صحيح السنة أن تتعارض النصوص؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، فما كان من عند الله فليس فيه اختلاف، والعلماء رَحِمَهُمُ اللهُ يذهبون إِلَىٰ الجمع بين هذِه النصوص التي ظاهرها التعارض، إما بحملها على اختلاف الأحوال، أو اختلاف الأشخاص، أو اختلاف الأسماء، أو اختلاف الأمكنة. فهذه أربعة احتمالات لا تعدوها هذه الأحوال. يعني: يكون هذا الذي ظاهره اختلاف ينزل على حال دون حال، أو في وقت دون وقت، أو في مكان دون مكان، أو في أشخاص دون أشخاص.

وقد ألفّ الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ كتابًا سماه (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب)، جمع فيه الآيات التي قيل إنها متعارضة، أي: ظاهرها التعارض، وجمع بينها. والجمع قد يكون متكلفًا وبعيدًا، وقد يكون قريبًا حسب ما يوفق الإنسان له. والمهم أن لدينا قاعدة ثابتة

راسخة وهي أن القرآن لا يمكن أن يتعارض؛ لأن التعارض معناه دفع بعضه ببعض، وهذا لا يمكن لأنه كلام من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وَالمُؤَلِّف رَحِمَهُ اللهُ ذَكَرَ أمثلة كثيرة من هذا النوع، وذكر كيف يُجمع بين هذه الآيات الَّتِي ظاهرها التعارض.

(الشرح)

أنا وعدتكم أن أمثل اليوم، ولكن طلبًا لإنجاز الكتاب سأترك التمثيل، وأحسب أن هذا الذي ذكره بإمكانكم أن تعرفوا الآيات التي دلت على هذه المعاني، والتي دفع الشيخ رَحِمَهُ اللهُ توهم التعارض بينها.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

القاعدة الثالثة عشرة: طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج وأقواها، وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج؛ فتأمل محاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحداً من الخلق ليس يقدر على نفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لابد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها. وكثيراً ما يحتج على المشركين به في عبادتهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين أنه المعبود وحده، فانظر إلى هذا البرهان، كيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة من هذا شأنه، ووجوب الإخلاص له...

(الشرح)

الأمثلة على هذا كثيرة، وهو تقرير استحقاق الله للألوهية بكونه الْرَّبّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد ذكرنا أمثلة في الدرس الثَّانِي أو الثَّالِث.

التعليق:

(المتن)

أظن الانتقال هذا واضحًا جدًا، مثلًا لو أن رجلا يعبد صنمًا، نقول له: هل هذا الصنم أوجدك؟ هل خلقك؟ سيقول: لا. هل هو الذي يرزقك ويعافيك ويدفع عنك النقم؟ سيقول: لا. من الذي يفعل ذلك؟ سيقول: الله. فإذا قَالَ: إن ذلك هو الله، قلنا: إذًا يجب عليك أن لا تعبد إلا الله، ما دمت تعترف أن النعم التي أمدك الله بها والنقم التي دفعها الله عنك قبل أن تصيبك ورفعها عنك بعد أن أصابتك، ما دمت تعترف أنها من الله، فإن الواجب عليك أن لا تعبد إلا إياه. وأظن هذا واضحًا جدًّا ولهذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 61]، ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: 69]**، يعني: كيف يصرفون عن الحق مع وضوحه؟**

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

...ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن أهلها شَيْئًا...

(الشرح)

إذًا الطريق الأول في إثبات كمال الله، وأنه مستحق لأن يُعبد. الطريق الثاني في إثبات نقص آلهتهم، فيه إذًا لا تستحق أن تُعبد.

التعليق:

(المتن)

هذا أيضًا من وجوه الإلزام بعبادته وحده أن يقال: هذه الآلهة التي تعبد هل هي تنفعك؟ ما هو الجواب: لا، بل هي بنفسها ناقصة ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: 73] **نقص في القدرة، وزيادة على ذلك نقص في الضعف ما يستطيعون ولا يدافعون عن أنفسهم، وإن يسلبهم الذباب شَيْئًا لا يستنقذوه منه. مع أن الذباب من أهون الحشرات وأحقرها، ومع ذلك إذا سلب هذه الأصنام شَيْئًا وأخذه منها ما استنقذوه منه! وهذا مثل عظيم إذا تأملته عرفت أن جميع ما يُعبد من دون الله لا يستحق أن يكون ربًا ولا معبودًا.**

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

...ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يُستغرب معه مخالفتهم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وينقض عليهم دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدقه وحقيته تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ} [يونس: ٣٢].

وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد في الدعوة للحق، ورد كل ما ينافيه، ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يُجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه بعض حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه. ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين. ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها؛ لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقاً نافعاً فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد احتوى عليه القرآن على أكمل الوجوه.

التعليق:

المباهلة هي مأخوذة من الابتهال إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وهي المبالغة في الْدُّعَاء، وصورتها أن يأتي المتخاصمان ويقول بعضهم لبعض لنتباهل، ونقول: اللهم من كان منا كاذبًا فعليه لعنة الله، وما أشبه ذلك مما يدعون به على الكاذب. وقد أشار الله إليها في قوله: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ **الآية** [آل عمران: 64]. **والآية الثانية كقوله تَعَالَى:** ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

والخلاصة أن هٰذه القاعدة في بيان مجادلة الْقُرْآن ومحاجته للمخالفين، وأنها من أبين المجادلات وأوضحها وأقومها حجة. ومن طريقة القرآن في المجادلة أنه يعدل إلى الطريق الذي لا نزاع فيه عن الطريق الذي فيه نزاع، حتى وإن أمكن إقناع الخصم بما فيه من نزاع، فإنه يدعه ويأتي بالطريق الواضح. مثاله محاجة إبراهيم للذي حاجه في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، **يعني: فأنا مثل ربك. كيف يحيي ويميت؟ هذا الرجل الظالم يقول: إنه يؤتى إليه ذو الرجل مستحقًا للقتل فيعفو**

عنه، وهذا على زعمه إحياء، ويؤتى إليه بالرجل غير جانٍ عَلَىٰ نفسه ولا غيره ولا يستحق القتل فيقتله، وهذا على زعمه إماتة. إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يذهب ليُحاج في هذه النقطة، ولو حاجه إبراهيم لغلبه بلا شك؛ لأن هذا ليس إحياءً ولا إماتة.

غاية ما هنالك في المسألة الأولى أن الذي يستحق القتل رُفع عنه القتل، والذي أبقى الحياة فيه هو الله، ولو شاء الله لمات. وفي الثانية أيضًا غاية ما فيه أنه فعل سببًا يقتضي أن يموت هذا الرجل فقُتل، ولكن الذي أماته هو الذي أحياه؛ فبإمكان إبراهيم أن يجادل على هذه النقطة، ولكنه عدل إلى أمر يفحمه ولا يستطيع التخلص منه، فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258]، فهنا ينبغي عند المحاجة خصوصًا إذا عرفت أن الذي يحاجك لا يريد إلا أن ينصر قوله، ينبغي أن تعدل عن الطريق الذي يحتاج إلى جدل إلى طريق واضح لا يحتاج إلى جدل، ما دام المقصود الوصول إلى إفحام الخصم، فإذا أراد أن يسد علينا طريقًا بإمكاننا أن نفتحه، فلنرجع إلى طريق آخر لا يستطيع أن يسده.

(الشرح)

عرفتم مراد الشيخ؟ الشيخ يَقُوْل: إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رَحِمَهُ اللهُ انتقل من حجة إلى حجة، فهذا يفيدك أنك عندما تناظر أحدًا فيخاصم في الحجة التي ذكرتها له، وعندك حجة أقوى منها لا يستطيع أن يخاصم فيها فتنتقل إلى الحجة القوية، وتدع الكلام في الحجة المتنازع فيها. إن كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بنى هذا على مجرد هذا المثال فيكون في هذا نظر واللهُ أَعْلَمُ؛ لأن هذا المثال المفسرون فيه على قولين:

فمنهم من يرى أن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ لم ينتقل من حجة إِلَىٰ حجة، وإنما ألزم النمرود بأن يُطرِدَ قوله، ﴿تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: 258]، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، ماذا قال النمرود؟ ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]. إذا كنت تحيي وتميت فأنت خالق ومدبر. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258] إذًا طردُ قولك إنك أنت تحيي وتميت أنك أنت الخالق المدبر، فإذًا أرنا فعلك واجعل الشَّمْس تظهر من المغرب؛ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

نسمع ماذا قال ابن الْقَيِّم رَحِمَهُ اللهُ في مختصر الصواعق المرسلة:

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: **(لما أجاب إبراهيم المحاج له في الله بأن الذي يحيي ويميت هو الله، أخذ عدو الله في المغالطة والمعارضة بأنه يحيي ويميت، بأنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هٰذَا؛ فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة، أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها بزعمه، فإنه ادعى أنه يساوي الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقًا فليتصرف في الشمس تصرفًا تصح به دعواه. وليس هذا انتقالًا من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النُظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة)**.

فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ يقول: **(ومن طريقة القرآن في المجادلة أنه يعدل إلى الطريق الذي لا نزاع فيه عن الطريق الذي فيه نزاع، حتى وإن أمكن إقناع الخصم بما فيه من نزاع)** هذا مبني على أن إبراهيم انتقل من حجة إِلَىٰ حجة؛ وهذا قول بعض المفسرين.

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ ابن عثيمين في تفسيره أشار للقول الثاني في تفسيره، فقال في فوائد هذه الآية في تفسيره: **(ومنها حكمة إبراهيم وجودته في المناظرة، سواء قلنا: إن هذا من باب الانتقال، أو قلنا: إنه من باب تفريع حجة على حجة)** هنا قرر أنه من باب الانتقال، وكلام ابن الْقَيِّم رَحِمَهُ اللهُ أشار إليه الشيخ ابن عثيمين في تفسيره.

عمومًا الخلاصة؛ الذي يظهر واللهُ أَعْلَمُ أنه ليس انتقالًا من حجة إلى حجة، وإنما كما بين ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ. وَحِيْنَئِذٍ يقال: إن كان هذا الطريق في المجادلة وهو الانتقال من حجة إلى حجة ليس له شاهد في القرآن إلا هذه الآية فحينئذ هو مبني على صحة هذا التفسير، فإن لم يصح فلا يقال حِيْنَئِذٍ من طريق المجادلة في القرآن للكفار الانتقال من حجة أضعف إلى حجة أقوى، أو من حجة فيها نزاع إلى حجة لا نزاع فيها. وإذا كان هناك مثال آخر فليُنظر، أنا عني لا أعرف إِلَّا هٰذَا المثال الَّذِي يذكرونه.

القاعدة الرابعة عشرة: حذف المتعلق -المعمول فيه- يفيد تعميم المعني المناسب له.

هذه القاعدة استعملها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في الاستنباط في تفسيره في مواضع؛ ما معنى حذف المتعلق يفيد العموم؟ المتعلق أيها المكرمون كالمفعول به، إذا ذُكر المفعول به فَحِيْنَئِذٍ المراد يتعلق بالمفعول به، مثل ما إذا قلت: أخرج الزَّكَاة؛ فالزكاة مفعول به، فصار المطلوب أمرًا معيّنًا، لكن إذا قلت لك: أخرج مما أعطاك الله زكاةً، أو أخرج مما أعطاك الله صدقةً؛ فحذفت المعمول -المفعول به-، فحذف المفعول به -حذف المعمول- يفيد العموم. والمفعول به نوع من أنواع المعمول، وليس المعمول يتعلق بالمفعول به فَقَطْ.

هذه القاعدة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ استعملها في تفسيره في مواضع؛ وأنا قلت لكم إذا الشيخ مثل لن أمثل، ولكن أذكر مثالين؛ ففي تفسيره عند قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34]؛ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً؟ بما أنفقوا من أموالهم زكاةً؟ يقول الشيخ: وحذف المعمول ليدل على عموم النفقة. وقال الشيخ في تفسير قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 16]؛ **(مما رزقناهم ينفقون)** صدقةً؟ زكاةً؟ حذف المعمول. قَالَ: **(ولم يذكر الشيخ قيد النفقة ولا المُنفق عليه ليدل على العموم)**. هذه كثير في القُرْآن.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

وهذه قاعدة مفيدة جداً، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة، وذلك أن الفعل أو ما هو في معناه متى قُيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلَق فعمم ذلك المعنى، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة، ولذلك أمثلة كثيرة جداً:

منها: أنه قال في عدة آيات {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣]، فيدل ذلك على أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه، وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، لعلكم تذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية، لعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من جميع الذنوب والمعاصي.

ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام، ولهذا كان قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٨٣]: يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي: لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين.

(الشرح)

يقول: **(ويدخل في ذلك ما كان السياق فيه)** يعني: إذا ورد حذف المعمول في سياق معين، فإن ما كان السياق فيه يدخل ضمن العموم، كفرد من أفراد العموم. فالآن الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}، السياق في ماذا؟ في الصيام.

ثُمَّ قَالَ: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، فيدخل في هٰذَا تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ **30:53** الصوم، وليس المراد فَقَطْ اتقاء الله في شأن الصوم، وَإِنَّمَا اتقاء الله في شأن الصوم فرد من أفراد التقوى. هٰذَا معنى قوله: **(ويدخل في ذلك ما كان السياق فيه)**.

(المتن)

ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام، ولهذا كان قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٨٣]: يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي: لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من المفطرات والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى، وتتخلقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]، أي: المتقين لكل ما يُتقى من الكفر والفسوق والعصيان، أي: المؤدين للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى، وكذلك قوله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف:٢٠١]، أي: إن الذين كانت التقوى وصفهم، وترك المحارم شعارهم متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب، كعظمة الله، وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوى، وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ من أين أُتوا، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا بالتوبة النصوح، فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئاً مدحوراً.

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق عن المُؤْمِنِيْنَ، وبلفظ " المؤمنين "، وبلفظ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٦٢] ونحوها، فإنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من الأصول والعقائد، مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات مثل قوله: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ} الآية [البقرة١٣٦] ونحوها.

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقاً، يدخل فيه كل صلاح كما يدخل في النهي كل فساد كذلك.

وكذلك قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، {وَأَحْسِنُوا} [البقرة: ١٩٥]، {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى} [يونس: ٢٦]، {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:٦٠] يدخل في ذلك كله الإحسان في عبادة الخالق، بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه، وعلم ومال وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر:١]، فحذف المتكاثَر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك قوله تَعَالَىٰ: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر:١، ٢]، أي: في خسارة من جميع الوجوه، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والصبر.

(الشرح)

في صفحة 67 قَالَ: **(وهذه قاعدة مفيدة جدًا متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة، وذلك أن الفعل أو ما في معناه، متى قُيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تَعَالَىٰ وحذف المتعلق فعمم ذلك المعنى)** الفعل **34:44**، ما في معناه اسم الفاعل وغير اسم الفاعل، المصدر؛ فالأمر لا يتعلق بحذف معمول الفعل فَقَطْ، فأيضًا حذف معمول اسم فاعل، حذف معمول المصدر يدخل في هذا الموضوع. والشيخ مثل بالفعل في مثل **(لعلكم تعقلون)** هٰذَا فعل حدث معمولًا، أين معمول **(تعقلون)**؟ محذوف. أين معمول **(تذكرون)**؟ محذوف.

طيب هذه أفعال: تعقلون، تذكرون، تتقون. طيب، هدى للمتقين؛ **(للمتقين)** اسم ماذا؟ فاعل؛ متقي اسم فاعل، أين معمول اسم الفاعل؟ محذوف. إذًا الأمر لا يتعلق بمعمول الفعل فَقَطْ، أيضًا الفعل وما في معنى الفعل. {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}؛ التكاثر ما هو؟ مصدر: تَكَاثَرَ، يتكاثر، تكاثرًا. أين معمول المصدر؟ محذوف. إذًا حذف المعمول سواء كان لفعل أو ما فيه معنى الفعل.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

التعليق:

(المتن)

ولهذا قَالَ: {لَفِي خُسْرٍ} فجعل الخسر ظرفًا له فيه. والظرف محيط بالمظروف، يعني: أن الإنسان منغمس في الخسر، والخسر محيط به من كل جانب، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3].

قَالَ الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَوْلُهُ: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣]، فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه، ليعم كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه.

وكذلك أمره تعالى بالصبر، ومحبة الصابرين، وثناؤه عليهم، وبيان كثرة أجرهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي: الصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. ومقابل ذلك: ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين والمنافقين والمعتدين ونحوهم، من غير أن يقيده بشيء ليشمل جميع ذلك المعنى.

ومن هذا قوله {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} [البقرة: ١٩٦]، ليشمل كل حصر، ومنه قوله {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً} [البقرة: ٢٣٩]، ليعم كل خوف. وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سيق الكلام لأجله، وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة لطالت، ولكن قد فتح لك الباب، فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم.

التعليق:

ويلتحق بهذه القاعدة أن الحكم المعلق بوصف يدل على علية ذلك الوصف فيه؛ فمثلًا إذا قلت: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: 45]، أي: لتقواهم؛ فالحكم معلق بوصف يدل على علية ذلك الوصف لهذا الحكم. ويدل أيضًا على أنه يعم بعموم هذا الوصف، وأنه يقوى كلما قوي ذلك الوصف ويضعف كلما ضعف. وقد أشار المؤلف إلى أن الأمثلة كثيرة، فمنها قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 6-8].

(الشرح)

لاحظوا؛ **(يتيمًا فآوى)** ما قَالَ: فآواك. **(ضَالًّا فَهَدَى)** ما قَالَ: فهداك؛ فحذف المعمول ليفيد العموم، فهو هداه وهدى به.

قَالَ:

(المتن)

لم يقل: ألم يجدك يتيمًا فآواك، وضالًا فهداك، وعائلًا فأغناك؛ لأن الذي حصل من هذا حصل له ولغيره، فإن الله تَعَالَىٰ آواه وآوى به أَيْضًا، فهو فئة كل مؤمن وملجأ كل مؤمن فيما يقدر عليه. (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) هداه وهدى به. (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) أغناه وأغنى به. ولهذا قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للأنصار: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بي، وَعَالَةً فأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بي، وَمُتَفَرِّقِينَ فألفكم اللَّهُ بي»[1]. هذه فائدة، لو قَالَ: ألم يجدك يتيمًا فآواك، ووجد ضالًا فهداك، ووجدك عائلًا فأغناك؛ صار مخصصًا، فلما حذف المتعلق صار عامًا.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ الله: **القاعدة الخامسة عشرة: جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان، وهذا في عدة مواضع من كتابه، فمن ذلك: النصر، قال في إنزال الملائكة به: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}** [الأنفال: ١٠].

(الشرح)

الملائكة أسباب، سبب للنصر، فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ سبب النصر مبشرًا، جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرة، فالأسباب الَّتِي تحصل بها المطالب العالية مبشرة. يقول: **(هَٰذِه طريقة متبعة في القُرْآن)**، فالملائكة سبب لتحقيق النصر، إنزالهم سبب لتحقيق النصر. قَالَ: **(قال في إنزال الملائكة به: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}** [الأنفال: ١٠]**)**. الرياح سبب لإنزال المطر، فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ الرياح مبشرات.

(المتن)

وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} [الروم: ٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس من ٦٢: ٦٤]**، وهي كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد بهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الثناء الحسن والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق، والتيسير لليسرى، وتجنيبهم العسرى.**

ومن ذلك: بل من ألطف من ذلك أنه يجعل الشدات مبشرة بالفرج...

التعليق:

لأن الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 5-7]**، ويقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾** [الطلاق: 4]**، فإذا رأيت الأمور متيسرة لك متسهلة، وأن الله يقدم لك الخير حتى وإن كنت لا تحتسبه، فهذه لا شك أنها بشرى. وإذا رأيت الأمر بالعكس فصحح مسارك، فإن فيك بلاءً. أما الاستدراج؛ فيقع إذا كنت مقيمًا على معصيته، والنعم ما تكون استدراجًا إلا لمن أقام على معصية الله؛ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: 182]**. أما إذا كانت للمؤمن فليست استدراجًا.**

---

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (2406).

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

والعسر مؤذناً باليسر، وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف لما اشتدت بهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، {وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، رأيت من ذلك العجب العجاب.

وقال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} [الشرح:٥، ٦]، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7]، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «واعلمْ أنَّ النصرَ معَ الصبرِ وأنَّ الفرجَ معَ الكربِ وأنَّ معَ العسرِ يسرًا»[1] وأمثلة ذلك كثيرة، والله أعلم.

القاعدة السادسة عشرة: حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد

أسلوب الشرط سبق أن بيناه، وأنه يتكون من أداة الشرط وفعل الشرط وجواب الشرط. في القُرْآن؛ يرد في مقام الوعيد حذف جواب الشرط، ويرد في غير مقام الوعيد. يقول الشيخ: **(حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقام)** يعني: إذا حُذف جواب الشرط في مقام الوعيد فيدل على عظمة الأمر وشدته. وَهٰذَا -وهو حذف جواب الشرط- المفسرون يعتنون ببيانه، وممن يلاحظ هذا ملاحظة ظاهرة ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، ومما يمتاز به تفسير ابن الجوزي عنايته في هذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ. كما أنه يمتاز في تحقيق مرجع الضمير؛ يعني: إذا أشكل عليك بيان مرجع الضمير في آية فارجع إلى ابن الجوزي، فكثيرًا ما يذكر الخلاف في مرجع الضمير.

الآن أنا في هذه الآيات سأنقل لكم كلام ابن الجوزي من زاد المسير، الشيخ يريد أن يمثل فيقول: **(وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة: 12])**؛ **(ولو)** أداة شرط. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: 12]، أين جواب الشرط؟ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: 51]، أين جواب الشرط؟ ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 165]، أين جواب الشرط؟ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 30].

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

فحدث الجواب في هٰذِه الآيات وشبهها، فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره؛ ليدل على عظمة ذلك المقابل، وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يعبّر عنه ولا يدرك بالوصف. ومثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 5]، أي: لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط والغفل واللهو.

(الشرح)

أذكر لكم كلام ابن الجوزي:

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165]؛ هذه الآية ذكرها الشيخ، أين جواب الشرط؟ يقول ابن الجوزي: **(وَإِنَّمَا حدث جواب لو لأنه أفخم لذهاب المتوعد إِلَىٰ كل ضرب من الوعيد)**. حذف جواب الشرط، فالمتوعد

---

(1) أخرجه الترمذي/ برقم: (2510) وحسنه الألباني.

يذهب إلى كل نوع من أنواع الوعيد، يتصور أن كل نوع من أنواع الوعيد سيقع به، فيكون الحذف أعظم.

يقول: **(وإنما حذف جواب لو لأنه أفخم، لذهاب المتوعد إِلَىٰ كل ضرب من الوعيد)**.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27]، آخر آية ذكرها الشيخ. يقول ابن الجوزي: **(وجواب لو محذوف، ومعناه: لو رأيتهم في تلك الحال لرأيت عجبًا)**. إذًا حذف جواب الشرط في مقام الوعيد يفيد عظمة الأمر وشدته.

يقول الشيخ بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

التعليق:

(المتن)

هذا واضح حذف الشيء في مقام التعظيم يدل على شدته وهوله، وكذلك إبهامه وإجماله.

(الشرح)

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أضاف إلى ما ذكر الشيخ السعدي فائدة، فَقَالَ: **(وكذلك إبهامه وإجماله)**، إذًا حذف جواب الشرط في مقام الوعيد يفيد شدة الأمر وعظمته.

وكذلك إبهام الأمر وإجماله مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: 78].

لم يبين الله عَزَّ وَجَلَّ ما الذي غشيهم، فلم يبين قدر ما غشيهم، وإنما قَالَ: **(ما غشيهم)** فأبهم الأمر.

(المتن)

فَهٰذَا يدل عَلَىٰ أنه غشيهم أمر عظيم، وَإِلَّا لقال قائل: هٰذَا تحصيل حاصل، غشيهم ما غشيهم، لكن هٰذَا من باب التعظيم وتفخيم الشيء. وإنّا غشيهم ما غشيهم لكن هذا من باب التعظيم وتفخيم الشيء، كذلك هذه الآيات التي فيها ذكر الشرط وحذف الجواب كلها تدل عَلَىٰ عظمة هٰذَا الجواب.

(الشرح)

أنا ذكرت لكم أَيُّهَا المكرمون أني قد أضيف في التعليق بعض القواعد التي تتعلق بالقاعدة التي ذكرها الشيخ أو فيها نوع مشابه. مما يذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره كَثِيْرًا أن النكرة تفيد التعظيم؛ هذه أيضًا يستعملها كثيرًا في تفسيره في مواضع، يبين أن النكرة تفيد التعظيم. هنا الاتصال في كون جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر في مقام الوعيد إن حُذف، فَهٰذِهِ أيضًا فائدة وقاعدة يكثر الشيخ من تطبيقها في تفسيره، وهي أن النكرة تفيد التعظيم.

لاحظوا هٰذِهِ يكثر منها في تفسيره؛ قَالَ: **(ثم ذكر سعادته في الآخرة، فَقَالَ:** ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: 3]).

قَالَ الشيخ: **(لأجرًا عظيمًا كما يفيد التنكير)** هٰذَا موضع.

موضع آخر؛ قَالَ: (﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: 250]).

قَالَ: **(أي: عظيمًا كما يدل عليه التنكير)**.

مواضع كثيرة، أنا لا أدري هل أتيت بموضع أو موضعين، هٰذَا الموضع الْثَّالِث: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: 15].

قَالَ: **(يذكر في هٰذَا القُرْآن وينوه بمنته عَلَىٰ داوود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير بدليل التنكير)** إذن النكرة تفيد التعظيم؛ لذا تم التعليق عَلَىٰ القدر الَّذِي أخذناه اليوم، **وَالحَمْدُ للهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ رسول الله.**

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

المجلس (6)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل التعليق على شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ووصلنا إِلَىٰ القاعدة السابعة عشرة. قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

[القاعدة السابعة عَشْرَةِ]

بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى المناسب له، وإذا قُرن مع غيره دل على بعض المعنى، ودل ما قرن معه على باقيه

(الشرح)

هذه القاعدة أيها المكرمون قاعدة معروفة مشهورة، نص عليها ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في مواضع من كتبه منها على سبيل التمثيل: الإيمان الكبير؛ وذكر أمثلة تندرج تحت هذه القاعدة. وممن نص عليها ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في كتابه النافع **(جامع العلوم والحِكم)**، وهي قاعدة مشهورة ولها أمثلة كثيرة.

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ معلقًا:

التعليق:

(المتن)

يقال: إذا أفردت عمت، وإذا قُرن معها غيرها خصت، ويقال: إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

(الشرح)

هذا الذي ذكره الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بقوله: **(إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا)**، وبقوله: **(إذا أفردت عمت، وإذا قرن معها غيرها خصت)** لا ينطبق على كل الأمثلة التي سيذكرها الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ، وسنلاحظ أن هناك مثالين لا يندرجان تحت هذا الذي ذكره الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، ولكنهما يندرجان تحت القاعدة التي ذكر لفظها الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

☚ ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: الإيمان، أُفرد وحده في آيات كثيرة، وقُرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة، وقُرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة، فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره، وهو عند السلف: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. والآيات التي قُرن الإيمان للعمل الصالح؛ كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة: ٢٧٧]، يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة. والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية.

(الشرح)

هٰذَا المثال اَلْأَوَّلُ الموضح للقاعدة، فعندنا الآن الإيمان والعمل الصالح؛ إذا أُفرد الإيمان شمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح. هٰذَا باختصار، وَإِلَّا الشيخ فصل أكثر من هٰذَا. وإذا أُفرد العمل الصالح شمل أعمال القلوب وإذا أُفرد العمل الصالح شمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح، إذا قرن الإيمان بالعمل الصالح فالإيمان يتضمن ما في القلب من عمل واعتقاد، والعمل الصالح يدل على أعمال الجوارح.

وقوله: **({إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة: ٢٧٧] يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية)** هذا على قول.

هناك قول آخر لأهل العلم وهو قول مرضي أَيْضًا، وهو أن يقال: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)** آمنوا: تتشمل الأعمال القلبية، وتتشمل اعتقاد القلب، وتتشمل قول اللسان، وتتشمل أعمال

الجوارح، وعُطِفَ على الإيمان العمل من باب عطف الخاص على العام. يقول شيخ الإسلام في مثل هذا التعبير (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) في مثل هذه الآيات، يقول: (فقد يقال: اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل، وإن كان لازمًا له) على ما ذكر الشيخ هنا. وقد يقال: (بل دخل فيه، وعُطف عليه عطف الخاص على العام). إذن قولان صحيحان معتبران.

(المتن)

وكذلك لفظ "البر والتقوى"، فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوى؛ ولهذا يرتب الله على البر والتقوى عند الإطلاق الثواب المطلق والنجاة المطلقة كما يرتبه على الإيمان. وتارة يُفسِّر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصي، وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ} [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] إلى آخر ما ذَكَرَ من الأوصاف التي تتم بها التقوى.

وإذا جمع بين البر والتقوى مثل قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢] كان (البر) اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. وكانت (التقوى) اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرمات.

وكذلك لفظ (الإثم) و (العدوان) إذا قرنت فُسِرَّ الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه، والعدوان بالتجرؤ على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. وإذا أفرد (الإثم) دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه أو بينه وبين الخلق، وكذلك إذا أفرد (العدوان).

وكذلك لفظ (العبادة وَالتَّوَكُّل)، ولفظ (العبادة والاستعانة)؛ إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطناً، ومن أول وأهم ما يدخل فيها التوكل والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥]، {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣]، فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفُسر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار ـ مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك (الفقير والمسكين) إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر كما في أكثر الآيات، وإذا جمع بينهما كما في آية الصدقات: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة: ٦٠]، فسِّر الفقير بمن اشتدت حاجته وكان لا يجد شيئاً، أو من يجد شيئاً لا يقع منه موقعاً، وفسر (المسكين) بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه، يشمل ذلك القيامَ بالدين كله، فإذا قُرِنت معه الصلاة كما في قوله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ} [العنكبوت: ٤٥]، وقوله {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [الأعراف: ١٧٠]، كان ذكر الصلاة تعظيماً لها وتأكيداً لشأنها، وحثاً عليها، وإلا فهي داخلة بالاسم العام، وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.

(الشرح)

نتنبه أيها المكرمون؛ الشيخ ذكر الأمثلة التالية:

المثال الْأَوَّلُ: الإيمان والعمل الصالح.

المثال الْثَّانِي: البر والتقوى.

المثال الْثَّالِث: الإثم والعدوان.

المثال الرَّابِع: العبادة والتوكّل.
المثال الخَامِس: الفقير والمسكين.
المثال السَّادِس: تلاوة الكتاب والصلاة.

وإذا تأملنا وجدنا أن الإيمان والعمل الصالح، والبرّ والتقوى، والإثم والعدوان، والفقير والمسكين؛ أمثلة تتفق في أمر، وهو: أحد اللفظين المقرونين إذا أُطلق فإنه يشمل الآخر، فالإيمان إذا أُطلق شمل العمل، والعكس. والبر إذا أُطلق فإنه يشمل التقوى والعكس. وإن اقترن أحدهما بالآخر فيشمل كل منهما بعض المعنى المستفاد من الإطلاق. وأما العبادة والاستعانة، وتلاوة القرآن والصلاة؛ فإذا أطلقت العبادة فإنها تشمل الاستعانة ولا عكس، وإذا أطلق تلاوة الكتاب فإنها تشمل الصلاة ولا عكس، وَحِيْنَئِذٍ ننتبه للفرق بين هذه المثالين وسائر الأمثلة. فهذان المثالان وهما: العبادة وَالتَّوَكُّل، وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة؛ لا يندرجان تحت قولنا: **(إذا أفردت عمّت، وإذا قرن معها غيرها خصت)**؛ لأن الصلاة إذا أُفرِدت لم تعم، بينما تلاوة القرآن إذا أُفرِدت عمّت، وإذا اقترنت كانت مختصة على قول، وعلى قول يقولون: إن إقامة الصلاة معطوف على تلاوة الكتاب من باب عطف الخاص عَلَىٰ العام.

هذا الذي قلته لكم؛ وهو قول الشيخ: **(إذا أفردت عمت وإذا قرن معها غيرها خصت، إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا)** يشمل أمثلة مما سيذكر الشيخ السعدي، ولن يشمل كل الأمثلة، فهناك مثالان لا يشملهما هٰذَا. طيب هل هذان المثالان وهما: العبادة والاستعانة، تلاوة الكتاب والصلاة؛ يندرجان تحت القاعدة الَّتِي ذكرها الشيخ السعدي؟

بعض الأسماء الواردة في القرآن الكريم إذا أُفرد دلّ على المعنى العام المناسب له؛ تلاوة الكتاب إذا أفرد دل على المعنى العام المناسب له، العبادة إذا أُفرِدَت دلَّت على المعنى العام المناسب لها. وإذا قُرِنَ مع غيره دلَّ على بعض المعنى؛ فتلاوة الكتاب إذا قُرِنَ معها الصلاة دلَّت على بعض المعنى، والصلاة دلَّت على تمام المعنى؛ هذا على قول.

على قول آخر يقولون: إن تلاوة الكتاب دلت على المعنى كله، وعُطفت عليها الصلاة من بعد عطف الخاص على العام. إذن يندرج تحت قاعدة الشيخ على قولنا بأن عطف الصلاة على تلاوة الكتاب يفيد عدم دلالة تلاوة الكتاب على الصلاة. وكذلكم عطف الاستعانة على العبادة؛ فالعبادة إذا أُطلقت فإنها تشمل الاستعانة، إذا عُطفت الاستعانة على العبادة فعندنا قولان:

- **إما أن يكون الباب عطف الخاص على العام، فحينئذ لا تدخل تحت القاعدة.**
- **وإما أن يكون لفظ العبادة حينئذ غير شامل للاستعانة، فحينئذ يندرج المثال تحت القاعدة.**

هذه القاعدة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ استعملها في القرآن كثيرًا، استعملها في القرآن في مواضع، وهي بفضل الله مقيدة ولكن لا حاجة للتطويل.

(المتن)

[القاعدة الثامنة عشرة: إطلاق الهداية والإضلال وتقييدها]

في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال، وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره.

(الشرح)

يقول: **(في كثير من الآيات يخبر بأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال)** إذن الله عَزَّ

وَجَلَّ في آيات يبين أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وفي آيات يذكر أسباب الهداية والضلال. **(وكذلك حصول المغفرة)** أي: وكذلك يذكر حصول المغفرة. **(وضدها)** أي: وحصول ضدها. **(وبسط الرزق)** أي: ويذكر بسط الرزق وتقديره.

(المتن)

وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقتر عَلَىٰ من يشاء؛ دل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء بيده، يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك، وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به في حصول ما يحبون منها، وفي دفع ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحداً غيره، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»(1) إلى آخره.

وفي بعض الآيات: يذكر فيها أسباب ذلك، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع ويدعوا الضار، كقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: الآيات من ٥: ١٠]، فبيَّن أن أسباب الهداية والتيسير تصديق العبد لربه وانقياده لأمره، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك.

وكذلك قوله تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ} [المائدة: ١٦]، {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦]، {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأعراف: ٣٠]، فأخبر أن الله يهدي من كان قصده حسناً، ومن رغب في الخير، واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن طاعة الله تَعَالَىٰ، وتولى أعداءه الشياطين، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين؛ وكذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} الصف: ٥] وقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠] .

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، ويُستحق بها العذاب، كقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى} [طه:٨٢]، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف: من الآيات ١٥٦، ١٥٧]، {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]، {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣]. ثم ذكر الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ} [البقرة: ٢١٨]، {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:٢٠٤]...

التعليق:

(المتن)

هذه الآية عظيمة؛ لو قال لنا قائل: أنا أرجو رحمة الله وأخاف عذاب الله! ننظر هل هو من هؤلاء المتصفين بهذه الصفات، إن كان كذلك فهو صادق، وإن كان غير ذلك فإنه ممن تمنى على الله الأماني؛ لأن الله قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (2577).

أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 218]. أما أن يقول: أنا أرجو رحمة الله، وهو لا يصلي مثلًا فهذا غير مقبول، فالذي يرجو رحمة الله حقيقة لا بد أن يسعى لها.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وأعم من ذلك كله قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران:١٣٢]، فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموماً، وهذه الأسباب المذكورة خصوصاً.

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة، وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله، والتولي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالى: {لا يَصْلاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} [الشمس من ١٥:١٨]، {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [طه:٤٨].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله، والسعي الجميل مع لزوم التقوى كقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: 2- ٣]، وانتظار الفرج والرزق كقوله: {سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً} [الطلاق: ٧]، وكثرة الذكر والاستغفار: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣]، {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً} [نوح:١٠، ١١]، فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة وقد عرفت طريقها فالزمه.

(الشرح)

القاعدة التاسعة عشرة

هذه القاعدة يقول فيها: **(ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلُّق بذلك الاسم الكريم)**. فالله عَزَّ وَجَلَّ إذا ختم آية باسم فإن هذا الاسم يناسب الحكم المذكور في الآية، وربما يكون تفسير السعدي رَحِمَهُ اللهُ أشمل تفسير في التمثيل لهذه القاعدة، وبفضل الله قد جمعت أكثر أو كل ما قال فيها، فوجدته كثيرًا.

وهنا مثل ببعض ما وقف عليه، وفي تفسيره تجدون الشيء الكثير، ويذكر أحيانًا كليات في الباب؛ فمن الكليات مثلًا التي ذكرها في تفسيره: قوله في الصفح مئة: **(وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يُجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له)** لاحظوا هذه الكلية النفيسة، ذكر هذا في تفسير: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 140].

وهنا سيذكر مهمات وأمثلة نفيسة، وكلامه واضح جدًا، فنقتصر على القراءة. عمومًا ليكن تفسير السعدي مرجعًا لك في هذا الموضوع؛ متى ما وجدت اسمين خُتمت بهما آية أو اسم خُتمت به آية وأردت أن تعرف المعنى ففي الغالب تجد بيان هذا عند الرجوع عند السعدي رَحِمَهُ اللهُ. وهذا الباب باب معروف، وممن اعتنى به ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، ابن القيم له عناية به، والسعدي انتفع من ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في بعض المواضع والأمثلة.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها.

(الشرح)

ومن فوائد ولطائف ابن القيم أنه استدل بهذا على أن أسماء الله أعلام وأوصاف، هٰذَا من الأدلة النفيسة المهمة لتقرير هذا المعنى، وهو أن أسماء الله أعلام وأوصاف. إذ لو كانت أعلامًا محضة لما كان هناك فرق بين أن تُختم آية الرحمة بالأسماء الدالة على التخويف وبين أن تُختم آية الوعيد بالأسماء الدالة على الرحمة، لو كانت أسماء جامدة. ومعروف أن قارئًا قرأ في الآية الدالة على حكم السرقة قَالَ: **(نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غفور رحيم)**، فسمعه أعرابي فَقَالَ: ما هذا الكلام؟ فقرأ على الصواب، فَقَالَ: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38]، قَالَ: نعم، عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما لم قطع. فهذا يدل على أن أسماء الله أعلام وأوصاف.

(المتن)

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم، فتجد آية الرحمة مختومةً بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر. ولا بأس هنا أن نتتبع الآيات الكريمة في هذا، ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها؛ فقوله تَعَالَىٰ في قوله: {فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٩]، ذِكرُ إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك:١٤]، فخلقه للمخلوقات من أكبر الأدلة العقلية على علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلامَ الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربهم في ذلك، فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء وعجزت الملائكة عنها وأنبأهم آدم بها: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:٣٢]، فاعترفوا لله تعالى بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم في استخلافه في الأرض. وفي هذا أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل عند علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على علم الله بآدم وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٣٧]، وختمه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم لفعل الأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها، ثُمَّ غفر لهم ورحمهم، فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانياً حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم، ولهذا**

قال في الآية الأخرى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا} [التوبة: ١١٨]، أي: أقبل بقلوبهم، فإنه لولا توفيقه وصرف قلوبهم إلى ذلك لم يكن لهم سبيل إلى ذلك حين استولت عليهم النفس الأمارة، فإنها لا تأمر إلا بالسوء، إلا من رحم الله، فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كماله قدرته وتفرده بالملك، فَقَالَ: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: ١٠٦- ١٠٧]، وفي هذا رد على من أنكر النسخ كاليهود، أو نسخه لما ينسخه من آثار قدرته، وتمام ملكه، فإنه تَعَالَىٰ يتصرف في عباده، ويحكم بينهم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فلا حجر عليه في شيء من ذلك.

ولما قال: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١١٥]، أي: واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي داخل في ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه في الأمور الماضية والمستقبَلَة، ومحيط علمه بما في التوجه إلى القِبَلات المتنوعة من الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلين لجهة من الجهات إذا أخطؤوا القبلة المعينة، فحيث تيمم المصلي تيمم إلى وجه ربه.

(الشرح)

أنا ما أعرف أن القبل جمع لقبلة، وقد يكون، فالمسألة تحتاج إلى بحث؛ جمع القبلة: قبلات.

التعليق:

(المتن)

المعنى: أن الناس كانوا أول ما قدم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة يصلون إلى بيت المقدس فهو قبلة. ثم نُسخ إلى بيت الله الحرام، فصار قبلة. فإذن؛ الحكمة في كون الله عَزَّ وَجَلَّ أقرهم أو أذن لهم أو شرع لهم أن يصلوا إلى بيت المقدس أول ما قدم الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ المدينة، ثم نُسخ ذلك.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وأما قول الخليل وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وهما يرفعان القواعد من البيت: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]، فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما، فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة ـ معنى المستجيب؛ كما قال الخليل في الآية الأخرى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [ابراهيم: ٣٩].

(الشرح)

هذا ضابط نفيس وجميل؛ **(السميع)** في مقام الدعاء -دعاء العبادة ودعاء المسألة- معناه المستجيب، وهذا المعنى كقولنا: **(سَمِعَ اَللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)** -سواء كان بالفعل أو بالاسم- نص عليه ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في بعض كتبه، وابن القيم، والسمعاني في تفسيره؛ أن السميع يراد به الاستجابة في المواضع، وهذا ضابط يدل على الموضع الذي فيه يكون السمع بمعنى الاستجابة فيه فيُضبط. قَالَ: **(فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة ـ معنى المستجيب)**.

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:
التعليق:

(المتن)

هذه فائدة: إذا جاء اسم الله السميع في مقام الدُّعَاء، سواء دعاء المسألة أو دعاء العبادة، فهو بمعنى الإجابة أو الاستجابة، ومنه في دعاء العبادة (سَمِعَ اَللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)، فإن الحامد يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعبادته، فمعنى: سَمِعَ اَللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، أي: استجاب. وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39]، فهذا دعاء مسألة، فمعنى: سميع، أي: مجيب الدُّعَاء.

وأما نحو قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: 181]، فهو سمع بمعنى إدراك المسموع.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وأما ختم قوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ} [البقرة: ١٢٩]، بقوله: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]، أي: فكما أن بعثتك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزة الله وكمال حكمته، فإنه ليس من حكمته أن يترك الخلق سدى عبثا، لا يرسل إليهم رسولا، فحقق الله حكمته ببعثه، لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها قدريها وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام.

(الشرح)

فيكتفي الله عَزَّ وَجَلَّ بذكر الاسم عن التصريح بالحكم، فالاسم يدل على الحكم. من الأمثلة لهذا مثال لم يذكره الشيخ هنا وذكره في تفسيره، وهو مثال لطيف وأهل العلم يذكرونه في الفقه: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 226-227]، يدل على أن الفيئة أحب إلى الله من الطَّلَاق، ففي الفيئة قَالَ: **(فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**، **(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** فذكر المغفرة والرحمة عند الفيئة، وذكر السمع والعلم عنده الطَّلَاق، فبيّن أن الفيئة أحب إليه من الطَّلَاق. هذا الباب يفتح على قارئ القرآن معاني جميلة، فذكر الله عَزَّ وَجَلَّ المغفرة والرحمة والسمع والعلم ولم يذكر الحكم، فدلت هذه الأسماء عَلَىٰ الحكم.

(المتن)

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالى: {فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ} [البقرة: ٢٠٩]، لم يقل: فلكم من العقوبة كذا، بل قال: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٠٩]، أي: فإذا عرفتم عزته وهو قهره وغلبته وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته - وهو وضعه الأشياء مواضعها، وتنزيلها محالها - أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم؛ لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة، وهو المصر على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} [المائدة: ٣٤]، لم يقل: فاعفوا عنهم أو اتركوهم ونحوها، بل قال: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٤]،

يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه، عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق، قال في آخرها: {نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: ٣٨]، أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدي شرعاً وقدراً وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدرها قال: {فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} [النساء: ١١]، فكونه عليماً حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفصّله في توزيع الأموال على مستحقيها الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وَكَلَ العبادَ إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم؛ لدخلها الجهل والهوى وعدم الحكمة، وصارت المواريث فوضى، وحصل في ذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال وأقواها للنفع؛ ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو قادح في علم الله وفي حكمته؛ ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه، ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب، وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]، أي: تعبَّدوا لله بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى: {لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} [الحج:٥٩]، والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة ختمت باسمين كريمين؛ فالأولى منها هذه ختمها بالعلم والحلم يقتضي علمه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم فكأنهم ما فعلوها.

وختم الثانية بالعفو الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلى مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تعبدوا لله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختم الآية الثالثة بالسميع البصير يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة بالعلي الكبير؛ لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده تضمحل معها المخلوقات، ويبطل معها كل ما عُبد من دونه، وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه باطل.

وختم الآية الخامسة باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه وخبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النَّمير، والخير الغزير.

نقف هنا أَيُّهَا المكرمون.

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

المجلس (7)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل التعليق على شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

وختم الآية الخامسة باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه.

(الشرح)

هم دائمًا يجعلونها بالكسرة **(سِعة)**، وهي **(سَعة)**.

(المتن)

وختم الآية الخامسة باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النَّمير، والخير الغزير.

(الشرح)

في الصفحة الرابعة والثمانين مر معنا جمع **(قُبلة)**، وأن الشيخ قَالَ: **(القِبل)**، فقلت لكم القبلات؛ القبلات جمع تأنيث، والقِبل جمع صحيح أيضًا للقبلة، وهو جمع تكسير.

(المتن)

وختم الآية السادسة بالغني الحميد، بعد ما ذكر ملكه للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها حاجة منه لها، فإنه الغني المطلق، ولا ليتكمَّل بها؛ فإنه الحميد الكامل؛ وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، وأنه حميد في أقداره، حميد في شرعه، حميد في جزائه، فله الحمد المطلق ذاتًا وصفاتٍ وأفعالاً.

(الشرح)

النسخة هٰذِه فيها أخطاء؛ وصفاتًا ووضع ألفًا، وَهٰذَا خطأ؛ لأن صفات جمع مؤنث سالم؛ هٰذِه الألف تُلغى.

(المتن)

وختم الآية السابعة بالرؤوف الرحيم، أي: من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السماوات والأرض وإبقاؤها لئلا تزول، فتختل مصالحهم، ومن رحمته سخر لهم البحار لتجري في منافعهم ومصالحهم، فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: 68،9، 104، 122، 140، 159، 191،175]، فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وإهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته، وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين، فإنه نجى الرسول وأتباعه بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته وحكمته. ويكون ذكر الرحمة يقتضي عظم جرمهم، وأنه لولا أن جرمهم تعاظم، وسدوا عَلَىٰ أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يكن لهم طريق إليها لما أحل بهم العقاب.

وأما قول عيسى عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنهم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة:١١٨]، ولم يقل: أنت الغفور الرحيم، فإن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه إلهًا مع الله، فناسب ذكر العزة والحكمة، وصار أولى من ذكر الرحمة.

(الشرح)

هذا مثل كلام ابن الْقَيِّم رَحِمَهُ اللهُ**، وابن القيم له إضافة وهي:** ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ أي: لبيان كون مغفرته مغفرة عن عزة لا عن ضعف. فالمغفرة التي تُمدح هي مغفرة مع قدرة عَلَىٰ المؤاخذة، لا مغفرة مع عدم قدرة عَلَىٰ المؤاخذة، فَقَالَ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، أي: مغفرتك صادرة عن عزة وحكمة، وليست مغفرة مع عدم القدرة على المؤاخذة.

(المتن)

ومن ألطف مقامات الرجاء أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة؛ مثل قوله: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ١٢٩]، وقوله: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} [الأحزاب:٧٣]؛ وذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من وُجد فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان، ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك.

(الشرح)

لاحظتم هذا الكلام النفيس والتقرير البديع، الله عَزَّ وَجَلَّ إذا ذكر المغفرة والرحمة يختم بأسماء المغفرة، ليبين أن مغفرته تغلب غضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 129]، ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: 73]، فذكر العذاب والتوبة ثُمَّ ذَكَرَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 73].

التعليق:

(المتن)

الخلاصة: تتضمن هذه القاعدة قاعدتين، أو قاعدة واحدة لها وجهان.

(الشرح)

خلاصة ما يريد أن يبين الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ أن هذه القاعدة على صورتين، تتضمن صورتين؛ فإما أن يقال: هي قاعدتان أم قاعدة لها صورتان أو وجهان:

⇦ إمَّا أن يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ الحكمة مع ختمه للآية بأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

⇦ وإما أن لا يذكر الحكم، ويكون الاسمان دالين عَلَىٰ الحكم.

وهذا ذكره الشيخ السعدي، فقال في القاعدة: **(ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم)** إذن؛ هنا حكم مذكور، وأسماء خُتمت بها الآية. وقال هنا الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ في الصفحة الخامسة والثمانين: **(وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامه)** فهاتان صورتان؛ فإما أن يقال: هما قاعدتان، أو يقال: هي قاعدة واحدة لها وجهان؛ هذا الذي يريد أن يبينه الشيخ ابن عثيمين حيث قَالَ: **(الخلاصة: تتضمن هذه القاعدة قاعدتين أو قاعدة واحدة لها وجهان)**.

اَلْأَوَّلُ: أن ختم الآية باسم من أسماء الله تَعَالَىٰ لا يكون إلا مناسبًا لذلك الحكم؛ هذا إذا ذُكر الحكم مع الاسم. **ولا يخرج عن هذه القاعدة شيء إلا لسبب، مثل قوله:** ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]. هل هذا المثال خرج عن القاعدة أو انه مثال يندرج تحت القاعدة ولم يخرج عنها؟ يقول: **(ختم الآية باسم من أسماء الله تَعَالَىٰ لا يكون إلا مناسبًا لذلك الحكم، ولا يخرج عن هذه القاعدة شيء إلا لسبب، مثل قوله:** ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]؛ **بَيَّنَّا أن هذين الاسمين هنا يتناسبان مع الحكم، حتى يظهر أن مغفرة عن عزة، وليست مغفرة عن ضعف)**.

فَهَٰذِهِ الآية واللهُ أَعْلَمُ الَّذِي يظهر لن تخرج عن هَٰذِهِ القاعدة، وأن الاسمين هنا أدل عَلَىٰ المقصود من الإتيان بالغفور الرحيم.

(المتن)

فقد يقول قائل: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لكن لما كان المقام مقام عزة وكمال تصرف؛ لكون هؤلاء لهم حالان: إمَّا عذاب، وَإِمَّا رحمه ومغفرة؛ فلهم ما تقتضيه العزة والحكمة بسبب عنادهم واستكبارهم.

(الشرح)

ماذا قال السعدي في التفسير؟ يقول السعدي رَحِمَهُ اللهُ: **(فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة؛ الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى أسباب المغفرة)** فالسعدي كلامه في التفسير يوافق كلام ابن الْقَيِّم، وكلامه هنا أيضًا فيه شيء من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، فالآية واللهُ أَعْلَمُ هذه لم تخرج عن القاعدة، بل خُتِمَت ذُكر حكم وذُكر اسمان يناسبان هذا الحكم في هذا المقام.

(المتن)

الوجه الْثَّانِي: أن ختم الآية باسم من أسماء الله يدل على أن الحكم مطابق لذلك الاسم.

(الشرح)

هذه هي التي ذكرها الشيخ هنا، حيث قَالَ: **(وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامه)** هذا الذي يريده الشيخ محمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

(المتن)

وهذا الوجه غير الوجه الأول، فمثلًا قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 34]، **يتوقع الإنسان أن يقال: فتسقط عنهم العقوبة، لكنه لم يقل هكذا، وإنما قَالَ:** ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 34]، أي: **لقد سقط عنهم الحد بمقتضى مغفرة الله ورحمته. ومن ذلك قوله تَعَالَىٰ في المولي:** ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 226-227]؛ **لأن فيأهم إلى زوجاتهم مما يحبه**

الله، ويكون سببًا للمغفرة والرحمة. وأن عزمهم الطلاق وهو أمر ليس محبوبًا إلى الله، ولهذا قرنه بما يفيد أو يشير إلى نوع من العقوبة، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 227].

فائدة: المعرف (بأل) يدل عَلَىٰ ملاحظة أصل الصفة، مثل: الفضل، العباس؛ فمثلًا قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]، وفي آية أخرى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36]. الآيتان سواء في اللفظ وفي كل شيء إلا في التعريف في سميع عليم، فتكون الآية الأولى لوحظ فيها مطلق الصفة، والثانية لوحظ فيها كمال الصفة.

(الشرح)

هذا يستفاد منه أن **(ال)** للمح أصل الصفة تدخل على النكرة؛ لأنه قَالَ: **(المعرف بأل يدل على ملاحظة أصل الصفة)**، وأهل النحو يقررون أن **(ال)** التي تدخل على الاسم للمح الأصل إنما تدخل على المعارف لا عَلَىٰ النكرات. ثم أيضًا يفيد أمرًا؛ وهو أن قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36]، تعرف السميع والعليم بـ **(ال)**، وهذا أيضًا فيه نظر؛ لأن أسماء الله معارف قبل أن تدخل عليها **(ال)**، فهي معارف بنفسها. و **(ال)** التي تدخل على أسماء الله هي كما بينا **(ال)** للمح الأصل وليست **(ال)** التعريفية.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

القاعدة العشرون: القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

(الشرح)

هذه القاعدة أيها المكرمون ذكرها شيخ الاسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في التدمرية، وهي قاعدة معروفة مشهورة. وكلام الشيخ فيها رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ -أي الشيخ السعدي- كلام واضح، فنقرأه.

(المتن)

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث، فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، وأنه: {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١]، ومعنى ذلك: أنه في غاية الإحكام ونهاية الانتظام، فأخباره كلها حق وصدق، لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأوامره كلها خير وبركة وصلاح، ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة فهذا إحكامه.

(الشرح)

إذًا إحكام القرآن بمعنى أن أخباره كلها صادقة وأوامره كلها محكمة، هذا الإحكام الكلي للقرآن.

(المتن)

ووصفه بأنه متشابه في قوله: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً} [الزمر: ٢٣]، أي: متشابهًا في الحسن والصدق والحق، ووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني.

(الشرح)

إذًا هو متشابه من جهة الحسن والصدق إلى آخره. عرفنا وجه وصفه كله بالإحكام، ووجه وصفه كله بِالتَّشَابُهِ. الآن ما وجه وصف بعضه بِالتَّشَابُهِ وبعضه بالإحكام؟

(المتن)

ووصفه بأن {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧]، فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكماً، ويقولون: {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]، أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع، فسره الموضع الآخر المحكم، فحصل العلم وزال الإشكال؛ ولهذا النوع أمثلة:

منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فإذا اشتبهت على من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكون جُزافاً لغير سبب، وضحت هذا الإطلاق الآيات الأخر، الدالة على أن هدايته لها أسباب يفعلها العبد ويتصف بها، مثل قوله: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} [المائدة: ١٦]، وأن إضلاله لعبده له أسباب من العبد، وهو توليه للشيطان {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إنهم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأعراف: ٣٠]، وفي سورة الصف: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]. وإذا اشتبهت على الجبري الذي يرى أن أفعال العباد مجبورون عليها، بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة، كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، وظنوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد، وأن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافى، فهي واقعة منهم وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالى خالقهم وخلق قدرتهم وإرادتهم، وما أُجمِلَ في بعض الآيات فسرته آيات أخر، وما لم يتوضح في موضع توضح في موضع آخر، وما كان معروفاً بين الناس وورد فيه القرآن أمراً أو ناهياً، كالصلاة والزكاة والزنا والظلم، ولم يفصله فليس مجملاً؛ لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون، وأحالهم على ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه، والله أعلم.

التعليق:

هذه القاعدة بيّن فيها المؤلّف أن الله تَعَالَىٰ وصف القرآن بأنه مُحكَمٌ، وبأنه متشابهٌ، وبأنه جامعٌ بينهما؛ مُحكَمٌ ومتشابهٌ.

فعلى المعنى الأول: مُحكَمٌ، أي: مُتقَن، فأخباره صدقٌ وأحكامه عدل؛ لأن الخلل في الخبر يكون بمخالفة الصِّدْق، والخلل في الحكم يكون بمخالفة العدل؛ ولهذا قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115].

إذن: كله محكم من هذا الوجه، أي: متقن في أخباره وفي أحكامه، ففي أخباره نقول: كلها صدق ليس فيها كذب، وفي أحكامه: كلها عدل ليس فيها جور ولا ظلم بوجه من الوجوه، ونزيد أيضًا بالنسبة لشريعة الإسلام المحمدية أن أحكامها كلها يسر ليس فيها مشقة، كما قال الله تَعَالَىٰ في وصف النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157].

ووصفه بأنه متشابه؛ أي: يشبه بعضه بعضًا في الكمال، والجودة في الأسلوب، والبلاغة في الصِّدْق، والعدل، وفي النفع، وفي كل شيء، فبعضه يشبه بعضًا، لا يخالف

أبدًا، ولا يناقضه، فجمع بين الأمرين الإحكام وَالتَّشَابُه، فمعنى الإحكام هنا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]، **أي: واضحات جليات؛ فالإحكام هنا بمعنى الإيضاح والبيان. والمتشابه هو الخفي المعنى الَّذِي لا يتبين وجه صوابه إلَّا للراسخين في العلم، ولهذا قَالَ:** ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 7].

يعني: وأما الراسخون في العلم فيقولون: آمنا به ويعلمون منه ما يخفى على غيرهم، وهنا محط النزاع ومحك الأفكار وموضع الاختبار، فإن من الناس من إذا رأى مثل هذه النصوص المتشابهة التي ظاهرها يخالف بعضًا أخذ منها سببًا للطعن في القرآن الكريم، وقال: إن هذا القرآن يتناقض، يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، **ثم يقول:** ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، **إذا كان سميعًا بصيرًا، فقد ماثل من له سمع وبصر! إذن فيه اشتباه. وقوله:** ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36]، **يناقض قوله:** ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 42]، **وقوله:** ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، **وقوله:** ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102]، **يناقض قوله:** ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106]، **فمثل هذه الآيات قد يقول قائل: كيف؟ هذا تناقض! نعم هم قالوا:** ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، **ويقول في الآية الأخرى:** ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 42]، **فالذي حلف أنه ليس مشركًا كاتم، بل حالف عَلَىٰ ذلك وهو كاذب، فَهٰذَا تناقض، وقائل هٰذَا هم الذين في قلوبهم زيغ -وَالعِيَاذُ باللهِ- يتبعون هذا المتشابه.**

الوجه الثَّالِث: المحكم، تعريفه: الواضح البين، والمتشابه: الخفي الذي لا يتبين إلا للراسخين في العلم.

فإن قلت: ما الحكمة في أن الله عَزَّ وَجَلَّ يجعل هٰذَا؟ لماذا لم يكن القرآن كله محكمًا ظاهر المعنى بيّنًا؟

قلت: الحكمة في ذلك الامتحان والإختبار؛ لأن الزائغين يتخذون من ذلك مطعنًا في القُرآن ليبرروا لأنفسهم الكفر به -وَالعِيَاذُ باللهِ-، وأما الراسخون في العلم فيتخذون من هذا بيانًا للحكمة؛ حكمة الله جَلَّ وَعَلَا في جعل القرآن على هذين الوجهين محكمًا ومتشابهًا، حتى يحيا من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، وهذا كما نراه في كلمات الله الشرعية يكون أيضًا في كلمات الله الكونية.

(الشرح)

يعني: الاختبار يكون في الكلمات الشرعية ويكون في الكلمات الكونية، أي: في أقدار الله عَزَّ وَجَلَّ، كما أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل كلماته الشرعية منها ما هو محكم ومنها ما هو متشابه، كذلك يقع التشابه في أقدار الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما يعرف هذا التَّشَابُه العُلَمَاء. والآن يريد أن يذكر مثلًا.

(المتن)

وَهٰذَا كما نراه في كلمات الله الشرعية يكون أيضًا في كلمات الله الكونية؛ فمثلًا: قد يأتي رجل إلى صاحب قبر، فيقول: يا ولي الله، يا سيدي! يا ملجئي! يا مستغاثي! أنقذ ولدي من المرض، فإذا ذهب إلى البيت ووجد ولده قد برئ! فيقع في اشتباه أن الذي أجاب دعوته هذا الولي صاحب القبر، لكن عندما يرد مثل هذه الحال إِلَىٰ الراسخين في العلم يقولون: لا يمكن أن يكون هٰذَا من صاحب القبر؛ لأن صاحب القبر ليس إلهًا دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: 20]، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ

دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5]، **فيقول الراسخون في العلم: نحن نعلم علم اليقين أن هذا البرء ليس من أثر دعاء هؤلاء، ولكنه فتنة من الله عَزَّ وَجَلَّ، حصل عند دعاء هؤلاء، لا بدعائهم.**

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

القاعدة الحادية والعشرون: القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

(الشرح)

وهذه قاعدة جليلة المقدار، وهي كما قال الشيخ المقدار، جلية المقدار، وأظنكم تعرفون أمثلة كثيرة لها، ربما تكون هنا لام محذوفة، **(وهذه قاعدة جلية المقدار)** أو **(جليلة المقدار)** أظنها **(جلية)**. أو يكون مراده واضحة المقدار، أي: أن مقدارها واضحة، أي: أن لها قدرًا واضحًا عند أهل العلم، يعني: قدرها ليس خفيًا على أهل العلم.

وهذه قاعدة جلية المقدار، عظيمة النفع، فإن الله أمر عباده بالمعروف، وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً وعرفاً، ونهاهم عن المنكر، وهو ما ظهر قبحه شرعا وعقلا وعرفا. وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك؛ فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة؛ فإنه أمر به في كل وقت، والواجب على الآخِرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة.

(الشرح)

إذن المعروف الذي لا يتغير في الأحوال والأوقات واجبٌ عَلَىٰ أول الأُمَّة وواجب عَلَىٰ آخرها.

(المتن)

وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر ونحوها ثبتت في كل زمان ومكان لا تتغير ولا يختلف حكمها.

(الشرح)

والمنكر الذي لا يتغير أيضًا بتغير الأوقات منكرٌ في حق أول الأُمَّة وآخرها.

(المتن)

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمة والأحوال، فهو المراد ههنا، فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت، وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده شيئًا مخصوصًا من الإحسان والبر، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر. فالواجب الذي أوجبه الله النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق الوالدين.

ومثل ذلك ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً، وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلى العرف.

التعليق:

يعني: ما تعارف عليه الناس أن هذا صلته يكفي؛ لأنه أمر بالصلة وأطلق، فيرجع فيه إلى ما سمناه الناس صلة؛ لأن المقصود بالصلة زوال ما في القلوب وائتلافها، إذا كان هذا

الرجل قد وطَّن نفسه على أن صاحبه أو قريبه لا يزوره إلا في يوم العيد أو في الأسبوع أو ما أشبه ذلك ما صار ذلك قطيعة، فما عُد صلة فهو صلة، أما من كان لا يأتيهم أبدًا ولا يأتيهم في المناسبات ولا يدري عنهم ولا يزورهم، ولا يعرف إذا مرضوا أو ماتوا فهذه قطيعة.

وقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (راجع في نوعه وجنسه وأفراده) النوع يختلف؛ فمثلًا: أحد تصله بدراهم، وأحد تصله بثوب، وأحد تصله بقلم، حسب الأفراد. حسب الجنس: لو أعطيت شخصًا كبيرًا عظيمًا غنيًا مئة ريال لغضب عليك، ولو أعطيتها قريبًا فقيرًا لفرح وسره ذلك.

أما ما دل الشرع عَلَىٰ تحريمه فهذا لا يكون صلة؛ فلو أن الناس قالوا: نحن تعارفنا أن ابنة العم تصافح ابن عمها بيدها، ولو قالت له: هذا حرام وكفت يدها؛ لغضب، نقول: الشيء الذي نص الشرع على تحريمه لا يمكن أن يتواصل الناس به أبدًا.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وكذلك قال تَعَالَى: **{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** [النساء: ١٩]، **{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** [البقرة: ٢٢٨]، **فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المتعارف عند الناس في قطرك، وبلدك وحالك؛ وذلك يختلف اختلافاً عظيماً، لا يمكن إحصاؤه عداً، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن وبراهين صدقه.**

وقال تَعَالَى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا} [الأعراف: ٣١]، **{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً}** [الأعراف: ٢٦]، **فأمر عباده بالأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئاً من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلق بها أمره حيث كانت، لا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن فقط.**

وكذلك قوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠]، **ومن المعلوم أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة في كل وقت وبما يناسبه ويليق به.**

وكذلك لما قال تعالى: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} [النساء: ٢٩]، **لم يعين لنا نوعاً من التجارة ولا جنساً، ولم يحدد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضى، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما عد تجارة ما لم ينه عنه الشارع، وأن ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضى من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات والتبرعات، وكم في القرآن من هذا النوع شيء كثير.**

(الشرح)

القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد أمثلة القُرْآن.

هذا الموضوع أيضًا من المواضيع الَّتِي اعتنى بها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، وكلامه فيها في التفسير مهم. ومن المواضع التي بيّن فيها كون الأمثال ترد في المعاني الجليلة العظيمة قوله عند تفسير قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: 43]، قَالَ: **(والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها اهم من غيرها لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها. وَأَمَّا من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك دليل عَلَىٰ أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيره من باب أولى**

وأحرى. ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها) فالأمثال أَيُّهَا المكرمون يقرر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يضرب الأمثال في الأمور العظيمة في أصول الدين ونحوها، وكلامه هنا كلام نفيس جدًا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه؛ فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحالة أهله، والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين، وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه، فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأراضي والأودية، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأراضي، فمنها أراضٍ طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير، كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه، وتعقله، وتعمل به علماً وتعليماً بحسب حالها، كالأراضي بحسب حالها. ومنها أراض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضيهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأُمَّة، ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين، وهؤلاء على خير ولكنهم دون أولئك. ومنها: أراضٍ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علما ولا حفظا ولا عملا.

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترى في غاية الظهور...

التعليق:

الأولون بمنزلة الأطباء، والآخرون بمنزلة الصيادلة. ومعلوم أن انتفاع الناس بالأطباء أكثر من انتفاعهم بالصيادلة، فحفاظ الحديث ورواة الحديث الذين ليس عندهم فقه وعلم هم بمنزلة هؤلاء، مثل الأرض التي يصيبها المطر؛ لكنها لا تنبت وإنما تحفظ الماء، فمن جاء استقى وشرب وانتفع، وأما أهل العلم والفقه فإنهم كالأراضي الخصبة التي تنبت، فينتفع الناس به.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وأما مناسبة تشبيهه الوحي بالغيث فكذلك؛ لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية. والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها معرفة وتصديقًا وإيمانًا وإرادة لموجبها، وتؤتي أكلها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة والهدْي المستقيم، ونفع صاحبها وانتفاع الناس به، وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثّل الله الشرك والمشرك بأن من اتخذ مع الله إلهاً يتعزز به، ويزعم منه النفع، ودفع الضرر في ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا إلى ضعفها. كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه ولياً ونصيراً من دون الله إلا ضعفاً؛ لأن قلبه انقطع عن الله، ومن انقطع قلبه عن الله حلّه الضعف من كل وجه، وتعلقه

بالمخلوق زاده وهناً إلى وهنه، فإنه اتكل عليه وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع!

وأما المؤمن فإنه قوي بالله بقوة إيمانه وتوحيده وتعلقه بالله وحده، الذي بيده الأمر والنفع ودفع الضرر، وهو متصرف في أحواله كلها، كالعبد الذي على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرادة حرًا عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه، بخلاف المشرك فإنه كالعبد الأصم الأبكم الذي هو كَلٌّ على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير؛ لأن قلبه متقيد للمخلوقين مُسْتَرَق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير، فمثله أيضاً كالذي خر من السماء فتخطفته الطيور ومزقته كل ممزق.

وهؤلاء الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويُدعون، لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم!! فكيف بفرد من مئات الألوف منهم!! وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئاً لم يقدروا على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شيء؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف منقسِّم قلبه بين عدة آلهة، كالعبد بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر، فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم، فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه. وأما الموحد فإنه خالص لربه، لا يعبد إلا هو، ولا يرجو ويخشى إلَّا هو، وقد اطمأن قلبه واستراح، وعلم أنه على الدين الحق، وأن عاقبته أحمد العواقب، ومآله الخير والفلاح والسعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها.

نقف هنا. هٰذَا وَالحَمْدُ للهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ رسول الله.

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لكتاب القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وقد شرعنا في قراءة بيان الشيخ للقاعدة الثانية والعشرين، والتي تتعلق بمقاصد أمثلة القُرْآن.

قَالَ الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده، كبستان في أحسن المواضع وأعلاها، تنتابه الرياح النافعة، وقد ضَحَى وبرز للشمس، وفي

خلاله الأنهار الجارية المتدفقة، فإن لم تكن غزيرةً فإنها كافيةٌ له كالطل الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضُه أطيب الأراضي وأزكاها؛ فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زَهاءِ الأشجار وطيب الظلال ووفور الثمار، فصاحبه في نعيم ورغد متواصل، وهو آمن عن انقطاعه وتلفه، فإن كان هذا البستان لإنسان قد كبر وضعف عن العمل، وعنده عائلة ضعاف لا مساعدة منهم ولا كفاءة، وقد اغتبط به حيث كان مادته ومادة عائلته، ثم إنه جاءته آفة وإعصار أحرقه وأتلفه عن آخره، فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك أو النفاق أو المعاصي المحرقة، فيا ويحه، بعد ما كان بستانه زاكيًا أصبح تالفًا قد أيس من عوده وبقي بحسرته مع عائلته! فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها، فقد ذكر الله صفة بستان من ثبته الله على الإيمان والعمل، وبستان من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده.

ويؤخذ من ذلك: أن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلًا، أنه ليس له بستان أصلاً.

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع؛ فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل لحياة القلوب الطيبة، وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عملُه كل زوج بهيج.

وقد مثّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء، فيأتيه وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، فيجده سراباً! ومثّله برماد الشيء الَّذِي أُحرق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية، وهذا مناسب لحاله وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة، وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة له، وهو كان يعتقده نافعًا له، فإذا وصله ولم يجده شيئًا تقطعت نفسه حسرات، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

كما مثّل نفقات المخلصين بذلك البستان الذكي الزاهي، ومثّل نفقات المرائين بحجر أمْلسَ عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد تركه صلداً لا شيء فيه؛ لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا إخلاص، بل هو قاس كالحجر، فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان، بل رياء وسمعة لم تؤثر في قلبه حياةً ولا زكاةً، كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئاً.

وهذه الأمثال إذا طبقت على مُمَثَّلاتها وضّحتها وبينتها وبينت مراتبها من الخير والشر والكمال والنقصان.

ومثّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة، فاستوقد ناراً من غيره، ثم لما أضاءت ما حوله، وتبين له الطريق، ذهب نورهم وانطفأ ضوءهم، فبقوا في ظلمة عظيمة أعظمَ من الظلمة التي كان عليها أولاً! وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان، فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة، فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه، وبقي في ظلمة متحيراً، فهم لا يرجعون لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى، واتضح له الحق ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية، لأنه رأى الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه، وهذا المثل ينطبق على المنافقين الذين تبصروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم الأعراض الضارة فتركوا الإيمان.

التعليق:

قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17]، نحن نعلم أن النار فيها حرارة وفيها نور، فإذا ذهب النور حلت الظلمة، وبقيت أيضًا الحرارة، فصاروا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- في حرارة وظلمة؛ فهؤلاء لما رأوا الإيمان وتركوه ذهب الله بنورهم، وكما قَالَ تَعَالَىٰ: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذارهم في طغيانهم يعمهون ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ

يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110]. ولهذا من أشد ما يكون أن الإنسان يُبين له الحق ولو في مسألة جزئية ثم يتركه اتباعًا لهوى نفسه أو خوفًا من العامة أو ما أشبه ذلك، فَهٰذَا ربما يُحرم الحق في المستقبل ولا يبين له، أو يبين له ويصر على خلافه، ولهذا يجب على الإنسان إذا علم الحق أن يبادر إليه أيًا كان، سواء كان ذلك في أصول الدين أم في فروعه، إن صح أن نقسم الدين إلى أصول وفروع، بعض العلماء كشيخ الإسلام يقول: الدين لا ينقسم إلى أصول وفروع، والتقسم إلى أصول وفروع غير منضبط، فقد اختلفوا فيه ما هي الأصول وما هي الفروع؟ وعلى حسب تقسيمهم الأصول هي الأمور العلمية، والفروع هي الأمور العملية، الأصول ما لا عذر فيه بالجهل، والفروع ما يعذر فيه بالجهل، وهذا صحيح حسب ما قسموه، وليس بصحيح حسب الواقع؛ فأركان الإسلام لا شك أنها أصول «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»(1)، وكما قال تَعَالَىٰ في كلمة الإخلاص: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 24]؛ فالصحيح أن يقال: إن الدين له أركان وله شرائع، ولا يجوز أن يقال في الدين قشور! فليس في الدين شيء اسمه قشور. كل الدين لب، لكن بعضه من أركان الإسلام، أو أركان الإيمان، وبعضه دون ذلك.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

والمثال الثاني وهو قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانهم مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩]، ينطبق على المنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن ولم يعرفوا المراد منه، وأعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعاً لرؤسائهم وسادتهم.

(الشرح)

هٰذَا كقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ؛ فابن كثير يجعل المثال اَلْأَوَّلُ في المنافقين الَّذِينَ دخل قلوبهم الإيمان، ثُمَّ فيما بعد نافقوا، فتركوا الإيمان وكفروا، وإن كانوا يظهرون الإسلام إِلَّا أنهم قد عرفوا الإيمان وآمنوا ثُمَّ كفروا. وَأَمَّا المثال الثَّانِي كما قَالَ الشيخ، وَهٰذَا قول ابن كثير، أنه في المنافقين الَّذِينَ لم يؤمنوا قط، فقول الشيخ هنا كقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

لاحظوا؛ قَالَ: (ومثل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة فاستوقد نارًا من غيره، ثم لما أضاءت ما حوله وتبيّن له الطريق ذهب نورهم وانطفأ ضوؤهم، فبقوا في ظلمة عظيمة أعظم من الظلمة التي كانوا عليها أولًا، وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان) أي: آمن، (فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة واستولت عليه الحيرة فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه) هؤلاء من؟ أهل المثال اَلْأَوَّلُ.

أما أهل المثال الثَّانِي؛ فَقَالَ فيهم: (ينطبق عَلَىٰ المنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن ولم يعرفوا المراد منه، وأعرضوا عنه وكرهوا سماعه اتباعاً لرؤسائهم وسادتهم) فالمثل الثاني فيمن لم يؤمن من المنافقين، والمثال الأول فيمن آمن ثُمَّ ترك؛ هٰذَا الَّذِي يذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وهو الَّذِي يظهر من كلام الشيخ هنا.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

ومثّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع، تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، ويظنون بقاءها، ولا يؤَمِّلون زوالها، فَلَهَوا بها عما خلقوا له، فأصبحت

---

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (8)، ومسلم/ برقم: (16).

عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت؛ كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هشيماً، وبعد الحياة يبساً رميماً، وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر، ولكن سكر الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الآجل.

التعليق:

هذه القاعدة تدل على أن بيان القرآن ينقسم إلى قسمين: بيان مستقل، وبيان بضرب الأمثال؛ وهو تشبيه المعقول بالمحسوس ليتضح ويتبين، فإن ضرب الأمثال يقرب المعاني إلى الأذهان، فإنك لو ذهبت تصف حال الذين يعبدون من دون الله أوثانًا في الذل والضعف وعدم وصول المقصود، لو ذهبت تتكلم بصفحة كاملة ما كان؛ كقوله تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: 41]، وهذا واضح جدًا، مع أنه كلمات يسيرة؛ لأنه شبه الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة البينة؛ وكذلك قوله في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: 14]، فالذي يمد يديه ويدعو هذه الأصنام كالذي يبسط يديه إلى الماء، ولو بسطت يدك إلى الماء هل يصل إلى فمك؟ أبدًا لا يصل، بل ولا يستقر على يديك، فهذا أيضًا للذين يدعون من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيُستفاد من هذه القاعدة أن من طرق تعليم القرآن وبيانه ضرب الأمثال، وهو تشبيه الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة لتتبين في الذهن صورتها وتتضح بأقرب وسيلة ممكنة.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

القاعدة الثالثة والعشرون: إرشادات القرآن على نوعين

أحدهما: أنه يرشد أمراً ونهياً وخبراً إلى أمر معروف شرعاً أو معروف عرفاً كما تقدم.

(الشرح)

أين تقدم؟ في أي قاعدة؟ في القاعدة الحادية والعشرين، قَالَ: (القُرْآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد)، فبين أن مِمَّا يأمر الله عَزَّ وَجَلَّ به ما هو ظاهر الفساد، والناس مأمورون بتركه قديمًا وحديثًا. ومنه ما يُرد فيه إِلَىٰ العرف، فهو بحسب العرف، وهكذا المنهي عنه، فذكر الصلاة والزكاة والصوم والحج؛ هذا مما يؤمر الناس به في كل زمان، وذكر الشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر، هذا مما يُنهى عنه الناس في كل زمان، وذكر أوامر يُرجع في فهمها إِلَىٰ العرف، كقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228].

(المتن)

أحدهما: أنه يرشد أمراً ونهياً وخبراً إلى أمر معروف شرعاً أو معروف عرفاً كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ويُعمل الفكر في استفادة المنافع منها.

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر. أما النوع اَلْأَوَّلُ؛ فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية داخلة فيها.

وأما النوع الثاني وهو المقصود هنا، فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلى النظر فيها، وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ} [الجاثية: ١٣]، ونبه العقول على التفكر فيها،

واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها؛ وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها وأوصافها وانتظامها، ولأي شيء خلقت؟ ولأي فائدة أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات؟ وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلى صدق رسله وحقية ما جاءوا به. وهذا النوع قد أكثر منه أهل العلم، وكلٌّ ذكر ما وصل إليه علمه، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب، وهذا أجل العِلْمين وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها ونستخرج منها المنافع المتنوعة، فإن الله سخرها لنا، وسلطنا على استخراج جميع ما لنا فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فسخر لنا أرضها لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج معادنها وبركتها، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا، لنستخرج منها الصناعات النافعة، فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها ـ لاسيما في هذه الأوقات ـ كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عُرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع منها وترقية الصنائع إلى ما لا حد له، وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق، وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب.

وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعاً، كما هي مطلوبة لازمة عقلاً، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القُرْآن؛ فإن القُرْآن نبه العباد على أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض، فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق إلى تحصيلها، وهي معروفة بالتجارب، وهذا من آيات القُرْآن، وهو أكبر دليل على سعة علم الله وحكمته ورحمته بعباده، بأن أباح لهم جميع النعم، ويسر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتاً بعد وقت، وقد أخبر في عدة آيات أنه تذكرة يتذكر بها العباد كل ما ينفعهم فيسلكونه، وما يضرهم فيتركونه، وأنه هداية لجميع المصالح.

التعليق:

خلاصة هذه القاعدة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **أرشد الناس بهذا القرآن العظيم، وأن إرشاده ينقسم إلى قسمين:**

اَلْأَوَّلُ: أوامر ونواهٍ وأخبار فيها عظة وعبرة.

وَالثَّانِي: إرشاد إلى أمور وراء ذلك لا تتعلق بالأمر وَالنَّهْي يستدلون بها عَلَىٰ كمال عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وكمال رحمته، وينتفعون بها أيضًا في أمور دنياهم، مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **[يونس: 101]، ومثل قوله تَعَالَىٰ:** ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ **[آل عمران: 191]، ومثل قوله تَعَالَىٰ:** ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ **[الحديد: 25]، فإنه إذا علم الإنسان أن في الحديد بأس شديدًا اعتمد عليه في الأمور التي تحتاج إلى قوة وإلى متانة. وكذلك إذا علم أن فيه منافع أخرى ذهب يطلب هذه المنافع، ويكيف هذا الحديد فيصهره ويصنعه على حسب المنفعة التي أرادها، فلو أن الله عَزَّ وَجَلَّ شرح هذه المنافع وكيف الصول إليها لكانوا يحتاجون إلى مجلدات كما هو موجود في كتب هٰذَا العلم، ولكن الناس في ذلك الوقت لا يعرفون عن هذا شيئًا، فإذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: الحديد فيه منافع، فمعنى ذلك أننا نسخر علومنا وأفهامنا للوصول إلى تلك المنافع التي عبر الله عنها في هذا الجمع، الذي هو صيغة منتهى الجموع.**

(الشرح)

إذن؛ خلاصة القاعدة أن القُرْآن مشتمل عَلَىٰ نوعين كما بين الشيخ من الإرشادات، إرشادات القُرْآن عَلَىٰ نوعين: أوامر، ونواهي؛ يأمر القُرْآن فيها بأمور نمتثلها، وينهى القُرْآن عن أمور، فعلينا أن نتركها. وهذه الأوامر منها ما هو معلوم، ومنها ما يُرجع فيه إِلَىٰ العرف، وهكذا النواهي.

النوع الْثَّانِي من إرشادات القرآن أن يرشد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ومثّل الشيخ بمثال، وهو إرشاد القرآن إلى التفكّر بالسماوات والأرض، فينتفع الإنسان من التَّفَكُّر في هٰذَا نوعين من الانتفاع:

اَلْأَوَّلُ: أن يستدل بهذا على ما لله عَزَّ وَجَلَّ من عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْثَّانِي: أن يستخرج ما فيها من منافع له في دنياه.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

[القاعدة الرابعة والعشرون: القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال في الأمور، ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد]

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠]، {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف: ٢٩]، والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة، والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها وأن لا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصر ويدع بعض الحق، ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في آيات كثيرة ونهى عن مجاوزة ذلك، وتعدي الحدود في آيات كثيرة، وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها: ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، وما فُقد فيه الأمرين أو أحدهما فهي من الأعمال اللاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل ـ صلى الله عليهم وسلم ـ أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة على محبة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهى عن الغلو فيها في آيات كثيرة، وهو أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله، ويجعل لهم من الحقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك شيء. كما نهى عن التقصير في حقهم كالإيمان بهم ومحبتهم وترك توقيرهم وعدم اتباعهم، وذمَّ الغالين فيهم، كالنصارى ونحوهم في عيسى في آيات كثيرة، كما ذمَّ الجافين لهم كاليهود حيث قالوا في عيسى ما قالوا، وذمَّ من فرق بينهم فآمن ببعض دون بعض، وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك يتعلق الأمر في حق العلماء والأولياء، يجب محبتهم ومعرفة أقدارهم، ولا يحلُّ الغلو فيهم، وإعطاؤهم شيئاً من حق الله، وحق رسوله الخالص، ولا يحلُّ جفاؤهم ولا عداوتهم، فمن عادى لله ولياً فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط بالنفقات والصدقات، ونهى عن الإمساك والبخل، والتقتير، كما نهى عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهى عن الجبن، وذم الجبناء، وأهل الخور وضعف النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأنفسهم وأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحث على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع والهلع والسخط.
كما نهى عن التجبر وعدم الرحمة والقساوة في آيات كثيرة.
وأمر بأداء حقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين والأقارب والأصحاب ونحوهم، والإحسان إليهم قولاً وفعلاً، وذمَّ من قصر في حقهم أو أساء إليهم قولاً وفعلاً، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله، وطاعتهم على طاعة الله.
وأمر بالاقتصاد بالأكل والشرب واللباس، ونهى عن السرف والترف، كما نهى عن التقصير الضار بالقلب والبدن.
وبالجملة فما أمر الله بشيء إلا كان بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط.

التعليق:

التوسط معناه أن تكون موافقًا للشرع في الكمية والكيفية، والغلو أن تزيد، والتفريط أن تنقص، كل أمور الخير قد أمر بها الشرع وأمر بالإكثار منها، حتى قال الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعنّي على نفسِكَ بكثرةِ السجودِ»(1). لكن في الأمور المحدودة لو قال قائل: أنا أريد أن أصلي في النهار والليل ست صلوات، قلنا: هذا لا يجوز؛ لأن هٰذَا ظلم ومجاوزة، أو قَالَ: أنا أريد أن أجعل الظهر ست ركعات، قلنا: هٰذَا لا يجوز. وكذلك في إنفاق المال لو زاد وأسرف، قلنا: لا يجوز. ولو نقص، قلنا: لا يجوز أيضًا؛ ولكن الخير كله في التوسط.

وخلاصة هذه القاعدة: أن القرآن يأمر بالاعتدال في الأمور؛ ولا تزد ولا تنقص، فمن زاد وشدد ورأى أنه لا بد أن نعمل حَتَّىٰ في الأمور المستحبة، وأن لا نفرط في شيء؛ نقول: إن هٰذَا مِمَّا نهى عنه الشرع ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 77]. ولو قصر وصار لا يبالي بالأمور المشروعة ويقول: أنا أكتفي بما يجب، قلنا: إنه فاته خير كثير، لكنه ليس كالأول؛ فالأول أشد في النَّهْي، والثاني فاته خير كثير، ولكن لا يقال: إنك أسأت؛ ولهذا قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجل الذي قَالَ: لا أزيد على هذا ولا أنقص: «دخَلَ الجَنَّةَ إنْ صَدَقَ»(2). فالحاصل أن هذا أمر ينبغي أن نتفطن له أيضًا حتى في الدعوة إلى الله نكون وسطًا بين التهاون والتفريط، وبين الغلو والتشديد، الدعوة إلى الله بالحكمة، والعدل من الحكمة.

ومن الحكمة مراعاة الحال، قد يكون مثلًا من غير الحكمة أن تدعو في كل الوقت لئلا يمل الناس؛ ولهذا كان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعاهد أصحابه بالموعظة، يتخولهم بالموعظة؛ فلكل مقام مقال، فالإنسان الحكيم يعرف ذلك، ربما تكون في مكان لا يناسب أن تقول شَيْئًا، ولكنك تقوله في مكان آخر، أو في وقت آخر في نفس المكان.

والمهم أن الإنسان يجب أن يكون وسطًا في جميع أموره، هذا ما يدعو إليه القُرْآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90]، تكون عدلًا في جميع الأمور لا تُفْرِط ولا تُفَرِّط.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

القاعدة الخامسة والعشرون: حدود الله قد أُمر بحفظها ونهي عن تعديها وقربانها
قال تعالى: {وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ} [التوبة: ١١٢] وقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩]، {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: ١٨٧].

---

(2) أخرجه مسلم/ برقم: (489).

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1393)، ومسلم/ برقم: (111).

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، والمحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها: أداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة. ويتوقف هذا الفعل وهذا الترك على معرفة الحدود على وجهها، ليعرفَ ما يدخل في الواجبات والحقوق، فيؤديها على ذلك الوجه كاملة غير ناقصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها، ولهذا ذمَّ الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله، وأثنى على من عرف ذلك.

وحيث قال الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩]، كان المراد بها ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع، فإنه نهى عن مجاوزتها وأمر بملازمتها. كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهى عن تعدي ذلك إلى ما حرم من الخبائث. وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح والطلاق والعدد وتوابع ذلك، ونهى عن تعدي ذلك إلى فعل ما لا يجوز شرعاً. وكما أمر بالمحافظة على ما فصله من أحكام المواريث ولزوم حده، ونهى عن تعدي ذلك، وتوريث من لا يرث، وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

(الشرح)

إذن؛ هٰذَا ضابط، وَهٰذَا ذكره رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره، وذكره غيره، وأحسبه معروفًا؛ أنه إذا قَالَ: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229]، فالمراد المشروعات، وإذا قَالَ: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187]، فالمراد المحرمات المحظورات.

(المتن)

وحيث قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: ١٨٧] كان المراد بذلك المحرمات، فإن قوله: {فَلا تَقْرَبُوهَا} نهي عن فعلها، ونهي عن مقدماتها وأسبابها الموصلة إليها والموقعة بها. كما نهاهم عن المحرمات على الصائم، وبين لهم وقت الصيام فقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا}. وكما حرم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئاً إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، قال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا}، وكما صرح بالمحرمات في قوله: {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى} [الإسراء: ٣٢]، وقال: {وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء: ٣٤]؛ فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والمحافظة عليها؛ كما أن أصل كل الشر وأسباب العقوبات الجهل بحدود الله، أوترك المحافظة عليها، أو الجمع بين الشرين، والله أعلم.

التعليق:

الحدود: ما حده الله لعباده من المباحات والمأمورات والمنهيات.

فَأَمَّا المأمورات فيقول الله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229]، وكذلك المحللات. وأما المنهيات؛ فيقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187]؛ وذلك لأن الراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فإذا قربت من هذه المحرمة أوشكت أن تقع، وكلما كانت المحرمات تدعو النفوس إليها أكثر كان النهي عن قربانها أشد وأوكد، ولهذا حرم على الرجل أن يرى المرأة الأجنبية منه أو أن يكلمها على سبيل التمتع والتلذّذ بصوتها؛ لأن ذلك يجر إلى الزنا، وقد قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء: 32]. وفي مسائل الرِّبَا حرّم الله أشياء ليس فيها ظلم، فإنك إذا اشتريت صاعًا من البر طيب بصاعين من البر الرديء يساويان صاعًا في القيمة، فليس ذلك بظلم، وهو أهوَن على المكلّف من أن يذهب فيبيع الرديء، ثم يقبض ثمنه، ثم يشتري الطيب، لكنه يجر إلى الربا الصريح، الذي يتضمن الظلم، وهي أن أعطيك عشرة دراهم نقدًا بخمسة عشر درهمًا مؤجلة، وهذا هو الرِّبَا.

والحاصل أن المحرمات يقال فيها: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187]، وينهى عن القرب إليها بكل وسيلة «ما أسكرَ قليلُه فكثيرُه حرامٌ»(1)، والقليل لا يسكر؛ لكنه يجره إلى شرب الكثير، فإن النفوس تدعو كَثِيْرًا إلى تناول هذا المسكر، فلذلك حرمت منه عَلَىٰ جه بعيد.

أما إذا كانت الحدود مِمَّا أمر به أو ما أحل، فقد قَالَ الله فيها: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229]، والاعتداء في الواجبات أن يزيد فيها أو يقصر، والاعتداء في المحللات أن ينتقل منها إلى المحرمات، فمثلًا: نحن أُمرنا بالأكل والشرب، ولكن نُهينا عن الإسراف ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام: 141]، فلو أن أحدًا قُدم له طعام شهي لذيذ، فأكل منه حتى صار لا يحمل بطنه إلَّا مع العصا، فهذا إسراف محرم، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: إنه يحرم على الإنسان الأكل إذا خاف تخمة أو أذى. والتخمة: النتن؛ أي: نتن المعدة وتغيرها؛ لأن المعدة إذا ثقل عليها الطعام ولم تهضمه أنتن فيها؛ لأن السوائل التي تذيبه وتذيب خبثه تعجز عنه، فينتن في هذا الوعاء المختوم، وتجد الإنسان إذا تجشأ يحس برائحة كريهة تخرج منه.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

القاعدة السادسة والعشرون: الأصل أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة.

وهذه قاعدة لطيفة، فإن الله متى رتب الله في كتابه حكماً على شيء، وقيده بقيد، أو شرط لذلك شرطاً، تعلق الحكم به على ذلك الوصف، الذي وصفه الله تعالى. وهذا في القرآن لا حصر له، وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين -إذا تكلموا عليها -: هذا قيد غير مراد. وفي هذه العبارة نظر؛ فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها وفيها فائدة قد تظهر للمتكلم، وقد تخفى. وإنما مرادهم بقولهم (غير مراد) ثبوت الحكم بها. فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلى حالة يبرزها لعباده، ليظهر لهم حسنها، إن كانت مأموراً بها، أو قبحها إن كانت منهياً عنها، وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عياناً.

(الشرح)

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: **(وهذه قاعدة لطيفة، فإنه متى رتب الله في كتابه حكمًا على شيء وقيده بقيد أو شرط لذلك شرطًا تعلق الحكم به عَلَىٰ ذلك الوصف الَّذِي وصفه الله تَعَالَىٰ، وَهَٰذَا في القُرْآن لا حصر له)** أي يريد: أن الأصل اعتبار القيود التي يذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه. ولكن ثم قيود تُذكر في القرآن وهي غير مرادة، أي: أن الحكم لا يتعلق بها، فالشيخ هنا يريد أن يذكر أنواعًا من هَٰذَا، وهذا الذي يسميه أهل العلم بالصفة الكاشفة.

فمنها قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [المؤمنون: ١١٧]، هل هَٰذَا قيد للحكم؟ ليس قيدًا، وَإِنَّمَا هو موضح لحال هؤلاء الَّذِينَ اتخذوا مع الله آلهة، وأن آلهتهم لا برهان لهم، يقيمونه عَلَىٰ صحة ما هم عليه. فسيذكر هنا أنواعًا، وفي تفسيره نبه على الأمثلة التي ذكرها هنا.

(المتن)

فمنها قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [المؤمنون: ١١٧]، ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان، وإنما قيدها الله بهذا القيد بياناً لشناعة الشرك والمشرك، وأن الشرك قطعًا ليس له دليل شرعي، ولا عقلي. والمشرك ليس بيده ما يُسوّغ له شيئاً من ذلك. ففائدة هذا القيد التشنيع البليغ على المشركين

(1) أخرجه أبو داود/ برقم: (3681)، والترمذي/ برقم: (1865)، وابن ماجه/ برقم: (3392)، وصححه الألباني.

بالمعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض نفسية ومقاصد سيئة، وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستجيزه من له أدنى إيمان ولا معقول.

التعليق:

القيد الَّذِي قد يُقال غير مراد؛ كقوله في الآية: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: 117] من قوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: 117]، فإنك لو اعتبرت هذا قيدًا لكان معنى الآية: ومن يدع مع الله إلهًا آخر له به برهان فلا حساب عليه! وهل هذا موجود؟ لا، ولكن أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبين شناعة هذا القول، وأن حقيقة الأمر انه لا برهان لمن دعا مع الله إلهًا آخر.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

ومنها قوله تعالى: {وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ} [النساء: ٢٣]

(الشرح)

هل الربيبة إن لم تكن في حجر الإنسان تكون حلالًا له؟ لا. إذن هٰذَا القيد هو الَّذِي يقول بعض أهل العلم: قيد أغلبي؛ أي: الغالب أن الربائب في حجر الزوج. وبعضهم يسميها بالصفة الكاشفة، وَهٰذَا قيد **(40:05)**.

(المتن)

ومنها قوله تعالى: **{وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ} [النساء: ٢٣]، مع أن كونها في حجره أو في غير حجره ليس شرطاً لتحريمها، فإنها تحرم مطلقاً، ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعاً لهذه الحالة، وأنه من القبيح إباحة الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألة متجليةً بثياب قبحها، لينفر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يُعلَّق بمثل هذه الحالة، فالأنثى إما أن تكون مباحة مطلقاً، أو محرمة مطلقاً، سواء كانت عند الإنسان أم لا، كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.**

التعليق:

(المتن)

وهذا الذي ذهب إليه شيخنا رَحِمَهُ اللهُ هو الصحيح.

(الشرح)

قَالَ: هو الصحيح؛ لأن بعض السلف اعتبروا هذا القيد، ويُنقل هٰذَا عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذه فيما أكثر من المسائل التي توقف فيها شيخ الإسلام لما عرضوا عليه بعض آثار **(41:17)**.

(المتن)

وهذا الذي ذهب إليه شيخنا رَحِمَهُ اللهُ هو الصحيح، والدليل أنه المراد، وأن الله تَعَالَىٰ ذَكَرَ هٰذَا لبيان قبح هٰذَا الأمر، لا شرطًا في الحكم أنه قَالَ: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 23]، ولم يقل: فإن لم يكن في حجوركم، فلما ذَكَرَ الحكم في مخالفة أحد القيدين عُلم أنه ليس قيدًا فيه.

قَالَ السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

ومنها قوله تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ} [الأنعام: ١٥١]، و: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [الإسراء: ٣١]، مع أنه المعلوم النهي على قتل الأولاد في هٰذِه الحالة وغيرها؛ فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله، كونه قتلًا بغير حق، وقتل مَنْ جُبلت النفوس على شدة الشفقة الَّتِي لا نظير لها عليه، وكون ذلك صادراً عن التسخط لقدر الله، وإساءة الظن بالله؛ فهم تبرموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم، حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت ضرورتهم، فصار الأمر بالعكس. وأيضاً فإنه إذا كان منهياً عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الافتقار أو حدوثه، ففي غير هٰذِه الحالة من باب أولى وأحرى. وأيضاً ففي هذا بيان للحالة الموجودة غالباً عندهم، فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة: {وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً} [البقرة: ٢٢٨]، فمن العلماء من قال: إنه من هذا النوع، وأنه يستحق ردها سواء أراد الإصلاح أو لم يرده، فيكون ذكر هذا القيد حثاً على لزوم ما أمر الله به من قصد الإصلاح، وتحريماً لردها على وجه المضارة، وإن كان يملك ردها، كقوله تعالى: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [البقرة: ٢٣١]، ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام، وأن الزوج لا يستحق رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح، فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها، وهذا هو الصواب.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ رسوله الأمين، نقف هنا.

*****

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

الْمَجْلِسِ (9)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشَّيْخُ/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، على كتاب "القواعد الحِسان" ووصلنا إلى القاعدة السادسة والعشرين. وقد قرأنا بعض مَا ذكر الشيخ في تبيانِها.

ووصلنا إلى قوله: ...

(المتن)

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: 283] مع أن الرهن يصح حضرًا وسفرًا. ففائدة هذا القيد: أن الله ذكر أعلى الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت فيها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض، وأن قبضه ليس شرطًا لصحته، وإنما ذلك للاحتياط وزيادة الاستيثاق، وكذلك فقد الكاتب.

التعليق:

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ليس شرطًا لصحته) لعله يريد ليس شرطًا للزومه لأن قبض الرهن ليس شرطًا للصحة، فالرهن يصح كما سبق وإن لم يُقبض لكنه لا يلزم إلَّا بالقبض؛ فلو اشتريت منك شَيْئًا بدراهم وقلت: رهنتُك سيارتي. فالرهن صحيح لكنه ليس بلازم، فلعل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يريد بذلك اللزوم لأن العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ اختلفوا في لزومه، والقول الراجح: أنه يلزم وإن لم يُقبض، وعمل الناس اليوم على هذا.

قال الشَّيْخُ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومنها قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: 282] مع أن الحق يثبُت بالرجل والمرأتين ومع وجود الرجلين، ولكن ذكر الله أكمل حالةٍ يحصل بها الحفظ للحقوق، بدليل أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «قضى بالشاهد الواحد مع اليمين»[1]، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم، لتمام راحتهم وحسم اختلافهم ونزاعهم.

التعليق:

الشهودُ في الأموالِ رجلان، أو رجلٌ وامرأتان، أو رجلٌ ويمين المُدعي؛ مثل: أن أدعي عليك، بأن يطلُبك مئةُ ريال وتُنكِر وعندي شاهدٌ واحدٌ فقط، وحلفتُ مع الشاهد؛ فإنه يقضي

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (1712) عن ابن عباس.

لي بالحق ويلزمُك ما ادعيته عليك. والقول الراجح: أَن اليمين في جانب المُدعى عليه أقوى المتداعيين، ولما أتى بالشاهد قويّ جانبُه.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وأما قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: 9] فإنها من أصل هذه القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع، وأنه يجب التذكير، نفعت الذكرى أو لم تنفع. ولكن قصر الآية على هذا غلطٌ، فنفع الذكرى إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه. فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه فإنه منهيٌ عنه في هذه الحالة، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما يُنهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شرٌ أكبر أو فواتُ خيرٍ أكثر من الخير الذي يُؤمَّر به، وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه شرًا وضررًا. فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: 125] فعُلم أن هذا قيدٌ مُرادٌ ثبوت الحُكم بثبوته وانتفاء الحُمن بانتفائه -والله أعلم-.

التعليق:

هَذِه المسألة فيها خِلافٌ بين العلماء هل أن قوله: (﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾) قيدٌ. والمعنى: أنه لا يجب التذكُر إلَّا إذا نفعت الذكرى فإن لم تنفع فلا تُذكِر؛ لِأَنَهُ لا فائدة منه لكونه مضيعةً للوقت، أَوْ أن هذا القيد للنداء عليهم بأن هؤلاء مَا ينفع فيهم الخير، لكن يُشرَّع أن تُذكِر على كل حالٍ كقولك مثلًا: علمه إن كان العِلم ينفعه. هل معناه: أنك لا تعلمه إلَّا إذا كان سينفعه؟ أَوْ المعنَى: علمه بكل حال؟ الثاني. إذا رأى بعض العلماء أنها من هذا الباب، وعلى القول الأول الذي رجحه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يكون قيدًا مُرادًا وأنه إذا لم تنفع الذكرى لم تجب.

وفي هذا المقام لا تخلو الحال من ثلاثة أمور:

1-إمَا أن تنفع.

2-أَوْ تضر.

2-أَوْ لا تنفع ولا تضر.

إن نفعت وجب التذكير، وإن ضرت فلا تذكير. بل يُنهى عَنْ التذكير، وإن لم تضر ولم تنفع فإنها لا تجب ولا يُنهى عنها. لكن هل الأَوْلَى أن يذكر إظهارًا للحق وبيانًا لَهُ، ولعلهم يرجعون إلى الحق فيما بعد؛ وهذا هو الظاهر. إذا لم يكن مضرة فإنه ينبغي أن يُذكِر، أما إذا نفعت فإنه يجب أن يُذكِر ولم يترجح عندي أحد هذين القولين؛ لأننا إذا نظرنا إلى وجوب التذكير وإعلان الشرع وبيانه قلنا: إن الآية تدل على أن ذكِر إن كان هؤلاء ينفع فيهم الذكرى ويكون المقصود به النداء على عنادهم وعلى استكبارهم وعدم رجوعهم للحق، وعلى كل حال: هذا موضع خِلافٍ بين العلماء، وشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ يُرجِّح أنه قيدٌ وأن الذكرى لا تجب إلَّا إذا نفعت.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: 61] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق. فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا تشنيعٌ لهذه الحالة التي لا شُبهة لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جُرمًا، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151] فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، [والحق] الذي قيّدها الله به جاء

مفسَّرًا في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارِق للجماعة»(1).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: 43] مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر، فإنه إذا فُقد جاز التيمم حضرًا وسفرًا، ولكن ذكر السفر بيانٌ للحالة الغالبة الموجودة التي يُفقَّد فيها الماء، أما الحضر فإنه يَندُر فيه عدم وجود الماء جدًا.

ومن هذا السبب ظن بعض العلماء أن السفر وحده مُبيحٌ للتيمم وإن كان الماء موجودًا، وهذا في غاية الضعف، وهدي الرسول وأصحابه والمسلمين مُخالِفٌ لهذا القول.

التعليق:

وكذلك قوله: (﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾) فإن المريض لا يُشترَّط لجواز تيممه فقدان الماء بل يتيمم وإن كان على حوض الماء؛ لأَنَّهُ مريضٌ. لكن قول الله تعالى: (﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾) هذا في السفر، وأما المريض فيجوز أن يتيمم سواءً وجد الماء أم لم يجد.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: 101].

(الشرح)

أنتم تتذكرون أيها المكرمون القاعدة تنص على ماذا؟ القاعدة تبحث أي موضوع؟ هل هَذِه القيود معتبرة أَوْ غير معتبرة؟ فالشيخ بيّن رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أن هَذِه القيود تُفيد معنىً إلَّا أنها ليس لها مفهوم يخالف المنطق. واضح أيها المكرمون؟!

فالآن هو يأتي بهذه الآيات التي لها قيود ويُبيِّن لك أن قيودها هَذِه لا يوجد لها مفهوم مخالفة، ولكن يُستفاد منها معنى؛ فهو يُبيِّن هذا المعنى المستفاد. واضح أيها الكرام؟!

(﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾) فالآن مثلًا هَذِه الآية قُيد فيها ماذا؟ القصر بالضرب في الأرض. فهل الخوف قيدٌ لَا بُدَّ منه ليجوز للمسلم أن يقصر؟ أَوْ ليس قيدًا؟ واضح أيها المكرمون؟!

(المتن)

قال: مع أن الخوف ليس بشرطٍ لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق. ولما أُورِد هذا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في جوابه: «صدقةٌ تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»(2) يعني وصدقة الله وإحسانه في كل زمانٍ ومكانٍ لا تُقيَّد بخوفٍ ولا غيره.

ومن العلماء مَن قال: إن هذا القيد من القسم الأول، وأن القصر التام ـ وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات ـ شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وُجِّد الخوف وحده لم يُقصَّر عدد الصلاة وإنما تُقصَّر هيئاتُها وصفاتُها. وإن وجد السفر وحده لم تُقصَّر هيئاتُها وشروطها وإنما يُقصَّر عددها، ولا ينافي هذا كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد؛ فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليحٌ موافقٌ للآية غير مُخالِفٍ لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.

التعليق:

---

(2) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (6878)، ومسلم/ برقم: (1676) عن عبد الله بن مسعود.

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (686) عن عمر بن الخطاب.

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: 130] فإن قوله: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ ليس قيدًا، ولكنه بيانٌ لأشنع الحالات في الربا وَهِيَ أن يأكله الإنسان أضعافًا مضاعفة كما يفعل أهل الجاهلية إذا حل الدّين قال: "إما أن تُوفي، وإما أن تُربي" فإن أوفاه فقد استوفى حقه وإن لم يُوفِ قال للذي عليه مئةٌ فقط: الذي عليك مئةٌ وعشرون؛ فإذا جاء الأجل الثاني ولم يُوفِ قال: يجب أن نجعل المئة وعشرين مئة وأربعين ومئة وخمسين وهذا أشنع مَا يكون.

لا يقال: إن قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ يدل على جواز الربا مرةً واحدة، وإن كان بعض الناس قد قال به لكنه أخطأ؛ لأننا نقول: إذا كنت تريد ذلك فلماذا تمنع الزيادة ثانيةً مع أنه لم يأكله أضعافًا مضاعفة وإنما أكله ضعفًا واحدًا. مثلًا: أعطيتك مئة درهم بمئةٍ وعشرين إلى سنة. قال بعض الناس: إن هذا جائزٌ لأن الله قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ فالعقد الذي فيه الربا ليس حرامًا، وبناءً على قوله: فإن معاملة البنك تعتبر غير ربوية إلَّا إذا كرروا زيادة.

قال: فإن قال عند رأس الحول أَوْ عند تمام الأجل: زِدتُك؛ صار ربا. فنقول لَهُ: إنك لم تأخذ بالآية؛ لأن الله يقول: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ وأنت الآن قلت: إن أول ضِعفٍ يكون حرامًا، فإن كنت تريد أن تأخذ بالآية فقل: إن أول ضعفٍ ليس بحرامٍ أيضًا وإلَّا فقد خالفت قاعدتك، لكن الأَمْر -كما قلنا-: إن هذا القيد لبيان أشنع الأحوال أَوْ أشنع المعاملات التي يكون فيها الربا.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: 33] المراد: فإن امتنعن عَنْ البغاء لغير التحصن فأكرِهوهن. لا، ليس الحكم كَذَٰلِكَ وإن كان ظاهر الآية هو هذا. لكن نقول: إن الآية ذكرت أشنع مَا يكون؛ لأن إكراه الإنسان أمته على البِغاء وَهِيَ تريد التحصن هو أشنع مَا يكون؛ لأَنَّهَا صارت أطهر منه وأنقى منه ثوبًا.

فالحاصل: أن مثل هَذِه الآيات أَوْ هَذِه القيود ينبغي التفطُن لها.

وخُلاصة هَذِه القاعدة: **أن الأصل في القيود والشروط أنها معتبرة وأن الحُكم في مفهوم المخالفة ثابت؛ إلَّا في مسائل قليلة دل الدليل على أنها هذا القيد أو الشرط ليس مفهوم المخالفة فيه مخالفة لحُكم المنطوق، وإنما ذُكِرت هَذِه القيود: إما لبيان الواقع، وإما لبيان الغالب، وإما لذكر الحال التي هِيَ أعلى مَا يكون في الشناعة أَوْ مَا أشبه ذَلِكَ.**

ثم هل يصح أن نعبر ونقول: هِيَ غير مُرادة؟ يقول شيخنا/ عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ: لا، إن هذا غلطًا؛ لأن الله تعالى لا يذكر في كلامه شيءٍ إلَّا كان مرادًا، لكن ليس المراد به إثبات نقيض الحُكم في المُخالِف، وإنما يُراد به مسائل أَوْ التنبيه على حالاتٍ تتبين بالتأمل. ولا نقول: مخالَفة، بل نقول: إن المُخالَفة في هذا الحُكم لا تخالف المنطوق.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

القاعدة: السابعة والعشرون.

(الشرح)

طبعًا القاعدة السابقة أيها المكرمون قاعدة مهمة، وفي ظني: أن مَن أراد أن يضبط القيود المعتبَّرة والقيود غير المعتبَّرة في الأحكام في القرآن عليه أن يرجع إلى هذا الموضع ويعتني به من **"القواعد الحِسان"**.

(القاعدة: السابعة والعشرون) هَذِه القاعدة يعني من بديع مَا ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب وهذه نبه عليها في تفسيره في أكثر من موضع، القاعدة السابعة والعشرون هِيَ تدل تأمل عظيم حقيقةً.

(المتن)

القاعدة السابعة والعشرون: **المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها.**

(الشرح)

خُلاصة القاعدة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يذكر شَيْئًا في سياقٍ معين؛ فالذهن يرد عليه وارد. واضح أيها المكرمون؟! وهذا الوارد المراد دفعه فيدفعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في سياقٍ معين معنىً مِنْ المعاني؛ قبل أن تُتِم الآية يَرِّد إلى ذهنك واردٌ يُراد دفعه؛ فيأتي التحرُّز القرآني بدفع هذا الوارد.

وهذا عجيب سبحان الله! في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وعجيبٌ من الشيخ أنه انتبه إليه وساقه في قاعدة وذكر لَهُ أمثلة، وفي تفسيره ذكر مَا لم يذكره. فهذه القاعدة -كما قلت لكم-: هَذِهِ القواعد الموجودة هنا بحاجة إلى زيادة تمثيل أَوْ تمثيل؛ لأن بعضها لم يُمثِل لَهُ من التفسير، وأنا سأذكر لكم شَيْئًا من التفسير على أنه هنا ذكر أمثلة، لكن حتى تلاحظوا دِقة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وعظيم نفع تفسيره وكتابه.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وهذه القاعدة جليلة النفع، عظيمة الوقع. وذلك أن كل موضع يسوق الله فيه حُكمًا من الأحكام أو خبرًا من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شيءٍ آخر؛ إلا وجدت الله قَرَن به ذلك الأمر الذي يَعلَق في الأذهان، فيُبينه أحسن بيان. وهذا أعلى أنواع التعليم، الذي لا يُبقي إشكالًا إلا أزاله، ولا احتمالًا إلا وضحه. وهذا يدل على سعة علم الله وحكمته. وذلك في القرآن كثيرٌ جدًا.

ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة، وتُحسّن للداخل الدخول إليها.

(الشرح)

هذا الكلام ليس كلامًا سهلًا. أتحسبون هذا الكلام سهلًا أيها المكرمون؟ والله هذا الكلام ليس بكلامٍ سهلًا؛ هذا يدل على تأمل عظيم. ثم كيف استطاع أن يصوغ هذا التأمل وهذا المعنى بهذا الأسلوب الجميل الأنيق؟ ثم كيف استطاع أن يُمثِل ولا يكتفي بمثال ولا بمثالين؛ هذا يدل على أن الرجل لَهُ صُحبة مع كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وتأمله.

(المتن)

فمِن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: 91] لمَّا خصها بالذكر ربما وقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 91].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: 109] لمَّا كان قد يقع في الذهن أنهم على حُجةٍ وبُرهان فأبان بقوله: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [هود: 109] أنهم ضُلّال اقتدوا بمثلهم، ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم، وعلى يقين من مذهبهم، وربما توهم أيضًا أن الأليق ألا تُبسَّط لهم الدنيا احترز من ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنهم لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: 109- 110].

ولما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 95] ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع المجاهدين ولو كانوا معذورين. أزال هذا الوهم بقوله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95].

يقول الشيخ ابن عثيمين:
"ورد في نسخة للكتاب قولٌ للمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع القاعدين) والصواب: مع المجاهدين بدلُ مع القاعدين".
قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:
وكذلك لما قال: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: 10] ربما توهم أحدٌ أن المفضولين ليس لهم عند الله مقامٌ ولا مرتبة، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: 10] ثم كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يُستحَق بمجرد العمل المذكور، ولو خَلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10].
ومنها: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: 48] ربما وقع في الذهن أنهم يُفسِدون وقد يُصلِحون؛ أزال هذا بقوله: ﴿وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: 48] أي: لا خير فيهم أصلًا مع شرهم العظيم.
ومنها: أنه قال في عدة مواضع: ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ربما يتوهم أحدٌ أنهم وإن لم يسمعوا فإنهم يفهمون الإشارة؛ أزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: 80] فهذه الحالة لا تقبل سماعًا ولا رؤية لتحصل الإشارة، وهذا نهاية الإعراض.
ومنها قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ربما توهم أحدٌ أن هدايته تقع جُزافًا من غير سبب؛ فأزال هذا بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56] أي: بمَن يصلح للهداية لزكاته وخيره ممن ليس كذلك، فأبان أن هدايته تابعة لحكمَتِه التي هي وضع الأشياء مواضعها. ومَن كان حسنُ الفَهم رأى من هذا النوع شيئًا كثيرًا.

(الشرح)

نذكر أمثلة من "تفسير الشَّيْخ"، أيضًا أمثلة جميلة. لاحظوا! يقول في الصفحة "السادسة والستين".
عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].
يقول: وهذا الحُكم على أهل الكتاب خاصة؛ لأن الصابئين الصحيح أَنْهُم من جملة فرق النصارى فأخبر الله أن المؤمنين من هَذِه الأمة واليهود والنصارى والصابئين مَن آمن بالله منهم واليوم الآخر وصدقوا رُسُلهم فإن لهم الأجر العظيم والأمن ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأما مَن كفر منهم بالله وَرُسُلِه واليوم الآخر فهو بضد هَذِه الحالة فعليه الخوف والحزن.
والصحيح: أن هذا الحكم بين هَذِه الطوائف من حيث هم لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد؛ فإن هذا إخبارٌ عنهم قبل بعثة محمد، وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فَلَا بُدَّ أن تجد ما يُزيل ذلك الوهم؛ لأنه تنزيل مَنْ يعلم الأشياء قبل وجودها، ومَنْ رحمته وسِعت كل شيء.
وذلك -والله أعلم-: أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يُبيّن مَن لم يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضا ذكر بني إسرائيل خاصةً يُوهِم الاختصاص بهم؛ ذكر تعالى حُكمًا عامًا يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويزول التوهم والإشكال، فسبحان مَن أودع في كتابه ما يُبهِّر عقول العالمين.

الكلام هذا سهل يا إخوان! التأمل هذا سهل؟! والله شيء عجيب. هذا يدلك على صِدق مَنْ قَالَ: **"كم ترك الأولُ للآخِر"**. فالشيخ جاء متأخرًا؛ إلَّا أنه فاق الكثير مِمَنْ كتب في التفسير مِمَنْ تقدمه.

لاحظوا! سأذكر الآن موضعًا آخر جميل أيضًا في الصفحة رقم "واحد وأربعين بعد الثلاثمائة".

هذا المثال ذكره هنا، لكن هنا كلامه فيه بسط فأحببت نقله؛ عند قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 95-96] بعد أن فسرها قال: ...

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولًا بين المجاهد وغيره ثم صرَّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم - أحسن لفظا وأوقع في النفس-.

وكذلك إذا فضَّل تعالى شيئا على شيء وكل منهما له فضل احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحدٌ ذم المُفضَّل عليه؛ كما قال هنا: ﴿وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 13] وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: 10] أي: ممَن لم يكن كذلك.

ثم قال: ﴿وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 79] فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة، وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض؛ لئلا يتوهم أن المفضَّل قد حصل له الكمال كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس. فليقل مع ذَلِكَ: وكلٌ منهما كافر، والقتل أشنع من الزنا وكل منهما معصية كبيرة حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

نسأل الله من فضله، كلام عظيم من إمامٍ كبير. نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر لَهُ وأن يرحمه، وأن ينفعنا بعلومه -اللهم آمين-.

(المتن)

القاعدة الثامنة والعشرون: **في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن.**

(الشرح)

هَذِهِ القاعدة أيها المكرمون قاعدة مهمة ونافعة وتُبين لك المراد بإطلاق لفظ: **"المؤمنين"** في القرآن، وأنه تارةً يشمل المؤمنين كلهم على اختلاف درجاتهم، وتارةً إنَّمَا يُراد بهذا اللفظ مَن حقق كمال الإيمان، وهذه قاعدة مهمة في هذا الباب في تحقيق مدلول لفظ: **"الإيمان"**.

(المتن)

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثامنة والعشرون: في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن]

لما كان الإيمان أصل كل الخير كله والفلاح، وبفقده يُفقَّد كل خيرٍ ديني ودنيوي وأخروي، أكثر الله من ذِكره في القرآن جدًا: أمرًا به، ونهيًا عن ضده، وترغيبًا فيه، وبيان أوصاف أهله، وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

فأما إذا كان المقام مقامَ خِطابٍ للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان؛ فإنها تتناول كل مؤمن، سواءً كان متممًا لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصًا في شيءٍ منها، وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد بذلك المؤمن حقًّا الجامع لمعاني الإيمان. وهذا هو المراد بيانه هنا.

التعليق:

هَذِه القاعدة مفيدةٌ وَهِيَ: أن الخطاب بالإيمان ينقسم إلى قسمين:

1-خِطابٌ يُراد به الإيمان الكامل.

2-وخِطابٌ يُراد به مطلق الإيمان.

فالأمر والنهي والأحكام المعلقة بالإيمان تشمل المؤمن الكامل وغير الكامل، كل مؤمنٍ وإن كان فاسقًا يؤمَّر بالصلاة ويؤمَّر بالخير وما أشبه ذلك، وأما إذا كان السياق سياق مدحٍ وثناء فالمراد به الإيمان الكامل فلا يدخل فيه فاسق.

فمثلًا قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19] المراد بذلك أهل الإيمان الكامل.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2] المراد أهل الإيمان الكامل وهكذا.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فنقول: وصف الله المؤمن في كتابه باعترافه وتصديقه بجميع عقائد الدين وبإرادة ما يحبه الله ويرضاه، وبالعمل بما يحبه الله ويرضاه، وبترك جميع المعاصي، وبالمبادرة بالتوبة مما صدر منه منها، وبأن إيمانهم أثر في أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم الآثار الطيبة.

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة: وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وأنهم يؤمنون بكل ما أوتيه الرُسل كلهم، ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، ووصفهم بأنهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2- 4].

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر، وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة، وأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60].

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا، وفي الصلاة خصوصًا وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأنهم بشهاداتهم قائمون، ولأماناتهم وعهدهم مُراعون.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون.

ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء لإخوانهم من المؤمنين السابقين واللاحقين، وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده

المؤمنين، ويتبرؤون من موالاة جميع أعداء الدين، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم؛ فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل، والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات وترك المنهيات، والوقوف على الحدود الشرعيات.

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلِم من العقاب، واستحق الثواب، ونال كل خيرٍ رُتِّب على الإيمان، فإن الله رتب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مئة فائدة، كل واحدة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها.

رتب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء، ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة وتعثر أحوالهم، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر على الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد، ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة وتيسيره العبدَ لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية، وجعلهم قرة عينٍ للمؤمن، والصبر عند المحن والمصائب.

وحمْل الله عنهم الأثقالَ، ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء، ورفع المؤاخذة عن الناسي والجاهل والمخطئ منهم، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه، ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد أو تخفيفها.

وثمرات الإيمان على وجه التفصيل كثيرةٌ، وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مُرَّتَبَةٌ على الإيمان، كما أن الشرور مُرَّتَبَة على فقده، والله أعلم.

[القاعدة التاسعة والعشرون: في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم الْقُرْآنِ]

(الشرح)

هنا لا يريد بـ **(علوم الْقُرْآنِ):** مَا يذكره المؤلفون في علوم القرآن، وإنما يريد المعلومات التي تُستفاد من القرآن وذُكِرت فِيهِ.

(المتن)

وهذه القاعدة تكاد أَن تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير وذلك أن القرآن مشتملٌ على علومٍ متنوعةٍ، وأصنافٍ جليلةٍ من العلوم؛ فعلى العبد أن يعرف المقصود من كل نوعٍ منها، ويعمل على هذا، ويتبع الآيات الواردة فيه، فيُحصِّل المراد منها: علمًا وتصديقًا وحالًا وعملًا، فأجلُّ علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال، فإذا مرت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها، فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد، وعَرَفَ أنه كما ليس لله مثيلٌ في ذاته فليس له مثيل في صفاته، وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب علمه بكمال الله وعظمته. فإن القلوبَ مجبولةٌ على محبة الكمال، فكيف بمَن له كل الكمال؟! ومنه جميع النعم الجِزَال. ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله، وأن هذا الأصل يقوى ويكمُّل بحسب معرفة العبد لربه، وفهمه لمعاني صفاته ونعوته وامتلاء القلب بمعرفتها ومحبتها.

وأيضًا يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإن هذا هو أصل العلم وأصل التعبد.

التعليق:

هذا أعلى أنواع العلوم: العِلم بالله وبأسمائه وصفاته وبما لَهُ من صفات والجلال والإحسان؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تدور صِفَاتِه على الكمال المطلق والجلال والعظمة والإحسان، ثم بعد ذلك صفات الرُسل عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما جُبِلوا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال -وهو النوع الثاني-.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن علوم القرآن: صفات الرُسل وأحوالهم، وما جرى لهم وعليهم، مع مَن وافقهم وخالفهم، وما هم عليه من الأوصاف الراقية. فإذا مرت عليه هذه الآيات عرف بها أوصافهم وازدادت معرفته به ومحبتهم، وعرف ما هم عليه من الأخلاق والأعمال خصوصًا إمامهم وسيدهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم بحسب ما يقدر عليه، ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم ومحبتهم واتباعهم، وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الكفاية.

ويستفيد أيضًا الاقتداء بتعليماتهم العالية وإرشاداتهم للخلق وحُسن خطابهم ولُطفِ جوابهم وتمام صبرهم؛ فليس القصد من قَصصهم أن تكون سمرًا! وإنما القصد أن تكون عِبرًا.

التعليق:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111] والعبرة في قِصص الرُسل من وجهين.

(الشرح)

قَصص أَوْ قِصص يا إخوان؟ ما رأيكم؟ نُبينُها بإذن الله بعد ذلك، نُبين الفرق بين القَصص والقِصص؛ لذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **(﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾)** وأنا قرأت قلت ماذا؟ **(والعبرة في قِصص الرُسل من وجهين)**.

(المتن)

الوجه الأول: من جهة أخلاقهم وصبرهم ومعاناتهم لأحوال الخلق وكيف يدعون الناس ويتحملون في الدعوة مَا لا يتحمله إلَّا مَن كان مثلهم.

والوجه الثاني: العبرة لما جرى من أقوامهم وأَنْهُم لم يتقبلوا دعوتهم لأول وهلة، بل نابذوهم وعاندوهم بل وقاتلوهم؛ فهذا نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أول رَسُولٍ أرسله الله على الأَرْض لبث في قومه ألف سنةٍ إلَّا خمسين عامًا. وقد قال الله عَنْهُ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7].

فالحاصل: أن نعتبر من وجهين من جهة حال الرُسل ومن جهة حال المُرسَل إليهم؛ **فإذا دعونا الناس ليؤمنوا فإننا لا نريد منهم مَن يقبلون من أول لحظة بل لَا بُدَّ أن نعاني منهم حتى يقبلوا الحق ولا نيأس أَوْ نستحسر، أَوْ نقول: هؤلاء لم يهتدوا. ولهذا لما قالت الطائفة الثالثة من أهل القرية التي كانت حاضرة البحر: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 164].**

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير وأهل الشقاوة والشر. وفي معرفته لهم ولأوصافهم ونعوتهم فوائد الترغيب والاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار، والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء، وبيان الصفات والطُرق التي وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم،

وأولئك إلى دار الجحيم، ومحبة هؤلاء الأتقياء من الإيمان، كما أن بُغض أولئك من الإيمان. وكلما كان العبد أعرف لأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله والإيمان باليوم الآخر، فإن تمامَ الإيمان بذلك يتوقف على معرفة ما يكون فيه، والترغيب والترهيب بالرغبة في الأعمال التي رتب الله عليها الجزاء الجزيل، والرهبةُ من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ فإن المُكلَفين مُكَلَفون بمعرفة ما أُمِروا به وما نُهوا عنه، وبالعمل بذلك والعِلم سابقٌ للعمل، وطريق ذلك: إذا مر عليه نصٌ في أمرٍ بشيء عرفه وفَهِم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائمٌ بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإن كان قائمًا به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصرًا فيه فليعلم أنه مُطالَبٌ به ومُلزَّمٌ به. فليستعِن بالله على فعله، وليُجاهد نفسه على ذلك.

وكذلك في النهي ليعرف ما يُراد منه، وما يدخل في ذلك الذي نهى الله عنه، ثم لينظر إلى نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله على ذلك، ويسأله أن يثبته على ترك المناهي كما يسأله الثبات على فعل الطاعات؛ وليجعل الداعي له على الترك امتثال طاعة الله، ليكونَ تركه عبادةً، كما كان فعله عبادة، وإن كان غير تاركٍ له فليتُبْ إلى الله منه توبةً جازمة وليبادر، ولا تمنعه الشهوات الدَنية عن مجانبة ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء.

فمَن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملًا على هذه الطريقة؛ فإنه ماشٍ على الصراط المستقيم والطريقة المُثلى فيما عليه من الاسترشاد بكتاب الله، وحصل له بذلك عِلمٌ غزير وخيرٌ كثير.

التعليق:

خُلاصة هَذِه القاعدة: بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن علوم القرآنِ متعددةٌ متنوعة فيه كل العلوم؛ فيه العِلم بالله جَلَ وعَلَا وأسمائه وصفاته وهذا أعلاها وأجلُّها، والعلم برُسُلِه، والعلم باليوم الآخر، والعلم بأحكام الله الشرعية، وكذلك الكونية، والعلم بالجزاء والعلم بما في الكون مما يدل على كمالِ حِكمة الله عَزَّ وَجَلَّ وعظمته وقدرته ورحمته وسِعة علمه، والعلم بأوصاف الخير والشر لأجل أن نتصف بما اتصف به أهل الخير ونبتعد عما اتصف به أهل الشر.

*****

هذا والحمد لله والصلاة والسلام عَلَى رسول الله

الْمَجْلِس (10)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشَّيْخ/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى على كتاب "القواعد الحِسان المتعلقة تفسير الْقُرْآنِ".

القاعدة الثلاثون: **أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار.**

وهَذِه قاعدة معروفة عندكم من القواعد التي ذكرها الشَّيْخ/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في **"القواعد المُثلى"**، وهذه القاعدة قد نص عليها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية وغيرها من كتبه؛ فهي قاعدة معروفة لا تحتاج إلى تعليق.

(المتن)

وهذه القاعدة العظيمة: خاصةٌ بأسماء الرب، وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما ينيّف عن ثمانين اسما ـ كُررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إِلَى المناسبة بها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسمٍ من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب؛

فعليك أن تؤمن بأنه عليمٍ، وذو علمٍ عظيمٍ محيطٍ بكل شيء.

(الشرح)

(وذو علمٍ عظيم) المراد وصف العلم، **(وذو علمٍ عظيمٍ محيطٍ بكل شيء).**

الطالب: هناك فاصلة.

الشَّيْخ: **(وذو علمٍ عظيم، محيطٍ)** الفاصلة خطأ، لا تعتمد عَلَى هذا، ولك أن تقول: **"فعليك أن تؤمن بأنه عليمٌ وذو علمٍ"** لأنه لا يريد **"عظيمٌ"** وصف لله، وإنما وصف للعِلم، عِلم محيطٍ بكل شيء، هو يريد: أن علمه عظيم محيط بكل شيء، لا أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عظيم مُحيط بكل شيء.

(المتن)

قديرٌ ذو قدرة وقوة عظيمة، ويقدر على كل شيء، ورحيم ذو رحمةٍ عظيمة ورحمته وسِعت كل شيء، والثلاثة متلازمة؛ فالاسم دل على الوصف، وذلك دل على المتعلَّق. فمَن نفى واحدًا من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته، الذي هو أصل التوحيد.

ولنكتفِ بهذا الأنموذج ليُعرَّف أن الأسماء كلها على هذا النمط.

التعليق:

خلاصة هَذِه القاعدة: **أن هَذِه الشروط الثلاثة فيما إذا كان الاسم متعديًا مثل: السميع، والعليم، والخلاق...وما أشبه ذلك، أما كان لازمًا فإنه يؤمن بالاسم والصفة فقط. فمثلًا:**

الحي؛ تؤمن بهذا الاسم اسمًا من أسماء الله، وتؤمن بِأنَّهُ ذو حياء وهذه هِيَ الصفة لكن ليس لها أصلٌ تتعلق به.

(الشرح)

فكونه مُحييًا لا يُؤخَذُ من كونه حي، فالحي: يدل على صفةٍ لازمة.

(المتن)

لأن هَذِه الصفة اللازمة لا تتعدى موصوفها والذي أنكر دَلالة الاسم الصفة هم المعتزلة قالوا: نؤمن بالاسم بدون أن يكون لَهُ صفة؛ فهو سميعٌ بلا سمعٍ، وبصيرٌ بلا بصر، ويدعون أن الله سميعٌ بذاته لا بصفةٍ هِيَ السمع، عليمٌ بذاته لا بصفةٍ هِيَ العِلم.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الحادية والثلاثون: ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة وخاصة]

(الشرح)

هَذِه القاعدة ذكرها في تفسيره. في أي موضع؟ موضع سهل أظن أنكم وقفتم عليه، الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2] ذكر هنا أن الربوبية نوعان، وهذا ذكره شيخ الإسلام في موضع معروف. هو ذكره في مواضع لكن هناك موضع معروف. مَن يذكره؟

الطالب: "**الحموية**".

الشَّيْخِ: "**الحموية**" في آخر "**الحموية**" ذكر أَن الربوبية نوعان.

(المتن)

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ومتعلقاتها ولوازمها. وهي على نوعين:

ربوبية عامة: يدخل فيها جميع المخلوقات: برها وفاجرها بل مكلفوها وغير المكلفين، حتى الجمادات. وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاجه أو تضطر إليه في بقائها، وحصول منافعها ومقاصدها فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

(الشرح)

ولا يتعلق فيها مدح ولا ذم؛ هذه ربوبية عامة، فالعباد كلهم، بل المخلوقات كلها تحت ربوبية اللَّه عَزَّ وَجَلَّ؛ فلا يتعلق بها مدحٌ لا ذم.

(المتن)

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه، فيربيهم بالإيمان الكامل، ويوفقهم لتكميله ويُكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاقَ الرذيلة، وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى. وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحِفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة؛ فحيث أُطلقت ربوبيته تعالى فإن المراد بها المعنى الأول.

(الشرح)

هذا ضابطٌ مهم يُبَيّن لك معنى هذا اللفظ في موارده في الْقُرْآنِ؛ فحيث أُطلِّقت الربوبية فالمراد بها: الربوبية العامة.

(المتن)

مثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 164] ونحو ذلك.

وحيث قُيدَّت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإنما المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول؛ ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن

بلفظ الربوبية غالبًا فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. فملاحظة هذا المعنى نافعة أعظم النفع للعبد.

ونظير هذا المعنى الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93] فكلهم مماليكه، وليس لهم من الملك والأمر شيء.

ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63] ثم ذكر صفاتهم الجليلة.

وكقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36] وفي قراءة ﴿عِبادَه﴾.

(الشرح)

هذه قراءة: حمزة، والكِسائي.

(المتن)

وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1].

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23] فالمراد بهذا النوع مَن قاموا بعبودية الله، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم.

فالعبودية الأولى: يدخل فيها البَر والفاجر.

والعبودية الثانية: صفة الأبرار.

ولكنَّ الفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبية وصف الرب وفعله، والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

(الشرح)

هَذِه القاعدة نافعة في فهم هذين اللفظين في مواردهما في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فتعرف أن الربوبية هنا المراد بها: الربوبية العامة، والربوبية هنا المراد بها الخاصة. والعبودية هنا هِيَ العبودية العامة، وهناك العبودية الخاصة.

موضوع العبودية وأنَهَا خاصة وعامة؛ بيَّنه أيضًا شيخ الإسلام في كتاب؟

الطالب: "**الحموية**".

الشَّيْخ: لا. ليس كل شيء في "**الحموية**".

الطالب: "**العبودية**".

الشَّيْخ: كتاب "**العبودية**"؛ بيَّن شيخ الإسلام أن العبودية نوعان:

1-عبوديةٌ إلهية.

2-وعبودية الربوبية.

عبودية الربوبية: لا مدح فيها؛ لا يتعلق فيها مدح ولا ذم. وَهِيَ: أن العبد مُعبَّد؛ أي: مُسخَّر تجري عليه أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذه العبودية لا مدح فيها ولا ذم، وَهِيَ المُراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93] هَذِه عبودية الربوبية.

وهناك عبودية الألوهية: هَذِه التي يتعلق بها المدح، ويتعلق بتركها الذم. وعبد على زِنَة: فَعلْ، وفَعلْ تأتي بمعنى: فاعل، وبمعنى: مفعول؛ فهو عبد.

باعتبار عبودية الألوهية عبد بمعنى: عابد؛ فهي بمعنى: فاعل.

وباعتبار عبودية الربوبية عبد بمعنى: مُعبَّد؛ أي: بمعنى مفعول.

"**أشهدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأن محمدًا عبدُه**" عبد أم مُعبَّد؟ كلاهما؛ فهو مُعبَّد تجري عليه أحكام الله عَزَّ وَجَلَّ القدرية، وَهُوَ عابدٌ ملتزمٌ بأحكام الله عَزَّ وَجَلَّ الشرعية.

وهل يُطلَّق اللفظ على زِنةٍ صرفية ويُراد به معنيان؟

الطالب: نعم.

الشَّيْخِ: ومن هذا اسم الله عَزَّ وَجَلَّ: الحكيم، والودود. الحكيم: بمعنى حاكم من حَكَمَ فهو حَاكِم، والحكيم أيضًا بمعنى: مُحكِم من أحكَم فهو مُحكِم.

✍ ابن القيم يقول في النونية:

وَهُــوَ الحكــيمُ وذاكَ مِــنْ أوصــافِه	نوعــان أيضًــا مَــا همــا عــدمان
حُكــمٌ وإحكــامٌ وكــلٌ منهمــا	نوعــان أيضًــا ثابتــة البرهــانِ

فأخذ ابن رَحِمَهُ اللَّهُ من اسمه تعالى: **"الحكيم"** معنيين؛ فهو لفظٌ واحد جرى على زِنَةٍ معينة، ولكن لاحظنا: أن هَذِه الزِنَة تفيد معنيين وكِلاهما جائزٌ في حق الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فأخذنا هذين المعنيين من هذا الاسم، وهذا استطراد، بل ربما نأخذ أكثر من معنيين. مثل اسم الله عَزَّ وَجَلَّ: **"الكريم"** فهذا تستطيع أن تجعله بمعنى: اسم المفعول فهو مُكرَّم؛ أي: عبادُه ينزهونه عَنْ خِصال السوء، وتأخذه: باسم الفاعل كريم فهو مُكرِّم، وتأخذه: على وجه المبالغة ففعيل من صيغ المبالغة لاسم الفاعل؛ أي: الذي يُكثِّر من إكرام عباده الصالحين.

و **"ربٌ"** أيضًا على زِنَة: فَعلٌ.

✍ لذلك قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وربٌ بمعنى: راب"** أي: باسم الفاعل.

(المتن)

التعليق:

أفاد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هَذِه القاعدة: أن الربوبية على نوعين، والعبودية على نوعين.

(الشرح)

✍ طبعًا الشيخ ابن عثيمين لَهُ تقسيم -ذكره في **"القول المفيد"** يقول: **"عبودية الربوبية، وعبوديةٌ إلهية الخاصة، وخاصة الخاصة"** وذكر آيات تُفيد هذا.

☜ هنا تنبيه: صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي تنقسم إلى قسمين: عام، وخاص. من أكثر العلماء الذين يعتنون ببيانها **"السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ"** التفسير بيَّن فيه جملةً من هَذِه الصفات التي تنقسم إِلَى عام وخاص، وقد جمعتُها بفضل الله، وموضعٌ آخر لغير السعدي أيضًا تجتمع فيه الفوائد المتعلقة بهذا الموضوع **"شرح الهراس للنونية"**، ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية أيضًا يُبيّن هذا ويُكثِر مِنْ البيان، والهراس -اللهم بارِك- من العلماء الذين جمعوا بين فَهم المعتقَد والقوة اللغوية؛ فيُبين كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(المتن)

الربوبية عامةٌ وخاصة، والعبودية عامةٌ وخاصة. العبودية تتعلق بالعبد، والربوبية تتعلق بالرب؛ فالعبودية المتعلقة بالربوبية هي العامة التي معناها المُلك والتدبير والخلق، والعبودية المتعلقة بالعبد.

(الشرح)

أنا أظن: **"والعبودية المتعلقة بالإلهية"** فالعبودية المتعلقة بالربوبية هِيَ العامة؛ فهو يُبَيّن تعلُّق العبودية بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ. فهناك عبودية تتعلق بالربوبية، وهناك عبودية تتعلق بالإلهية؛ فهنا يريد الشَّيْخِ: والعبودية المتعلقة بالإلهية معناها: **(طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ).**

(المتن)

هَذِه خاصةٌ بمَن أطاع، وقد اجتمع الصنفان في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: 121-122].

(الشرح)

﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عبودية عامة.
﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ خاصة.

(المتن)

﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هَذِه عامة، ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ هَذِه خاصة.
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63] هَذِه خاصة.
﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93] عامة.
«يا عبادي كلكم جائعٌ إلَّا مَن أطعمته»(1) عامة.
﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42] خاصة؛ لأن الشيطان لَهُ سلطان على الذين يتولونه.
﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: 99-100].
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82-83] خاصة.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثانية والثلاثون: الأمر بالشيء نهي عن ضده إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال]

(الشرح)

القاعدة الأُولَى: (إذا أمر الله بشيءٍ كان ناهيًا عَنْ ضده، وإذا نهى عَنْ شيءٍ كان آمرًا بضده) هَذِه ذكرها في التفسير في مواضع، يعني أنا راجعت الفوائد التي كتبتها أثناء قراءة تفسيره؛ فوجدت بنظرٍ سريع أربعة مواضع بنظر سريع، هَذِه القاعدة كررها في تفسيره في مواضع.

وأيضًا القاعدة الثانية: (وإذا أثنى على نفسه أَوْ على أوليائه وأصفيائه بنفي شيءٍ من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال) هَذِه قاعدة معروفة ويستعملها الشيخ في تفسيره كثيرًا.

سأقرأ بعض المواضع يعني لجمالها ونفعها، وهنا أمر لَا بُدَّ أن أتعرض إليه. وَهُوَ: هل الأمْر بالشيء نهيٌ عَنْ ضده؟ أَوْ يستلزم النهي عَنْ ضده؟ إذا قلت لرجل: اجلس. فهل هذا نهيٌ عَنْ القيام؟ أَوْ يستلزم النهي عَنْ القيام؟

بعض أهل العِلم: أرجع هَذِه القاعدة إلى مسألةٍ عقدية، أنتم -كما تعرفون- وهذا موضوع نتطرق إليه باختصار: أن علم أصول الفقه ألف فيه العلماء من فرقٍ متعددة؛ فألف فيه أهل السُنَّة، ألف فيه الأشاعرة، ألف فيه المعتزلة، وألف غيرهم، وهذا الفن يُرشِدُك إلى قواعد الاستنباط، فهو فنٌ مهمٌ جدًّا وكلٌ يتكلم به مستصحبًا أصله العقدي؛ فحينئذٍ بُثَّت المسائل العقدية في كتب أصول الفقه، ومنها شيءٌ ظاهر، ومنها شيءٌ خفي؛ هذا من المسائل الخفية.

فالأشاعرة يرون أن الكلام نفسيٌ، وعندهم الكلام شيءٌ واحدٌ باعتبار الكلام النفسي؛ فهو معنىً واحدٌ يتجزأ قائمٌ بذات الله عَزَّ وَجَلَّ، النهي هو عين الأمْر، والخبر عين الإنشاء؛ فعندهم

---

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (2577) عن أبي ذر.

باعتبار المعنى: النهي عَنْ الشيء هو الأمْر بضده لا باعتبار اللفظ. فيقولون: الأمْر بالشيء نهيٌ عَنْ ضِده من جهة المعنى لا من جهةٍ أخرى.

ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ لخص أي كتاب؟ لخص كتاب الغزالي **"المستصفى"** الغزالي ناقش مَن في **"المستصفى"**؟ المُعْتَزِلَة؛ فابن قدامة الآن هو من الحنابلة، فابن قدامة يريد أن يُبَيّن في كتابه أصول أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة خاليةً من عبث المتكلمين، ولكن هَذِه مهمة أن تأتي إلى كتاب **"المستصفى"** وكتاب **"المستصفى"** فيه نِقاشٌ أشعري اعتزالي وَهُوَ نقاشٌ دقيق؛ فأنت تأتي إلى هذا الكتاب وتُلخِصه ثم تصفيه مما وقع فِيهِ؛ هذا أمرٌ ليس سهلًا.

فمما جاء في كتاب ابن قدامة: الموافقة على هذا؛ فبيّن ابن قدامة أن الأمْر بالشيء نهيٌ عَنْ ضده من جهة المعنى لا من جهة اللفظ. فاستدرك مَن؟ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ، استدرك على ابن قدامة هذا الذي ذهب إليه، وأنا أقرأ لكم كلامه. فالشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن هذا التعبير يرجع إلى أصل عقدي.

✍ مَاذَا قال ابن قدامة؟ **"الأَمْرُ بالشيء نهيٌ عَنْ ضده من حيث المعنى، فأما الصيغةُ فلا؛ فإن قوله: قُم، غير قوله: لا تقعد. وإنما النظر في المعنى وَهُوَ: أن طلب القيام هل هو بعينه طلب ترك القعود؟"**.

✍ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ شرح -وأنا سأذكر بعض كلامه- قال: **"الذي يظهر -والله أعلم- أن قول المتكلمين ومَن وافقهم من الأصوليين أن الأَمْر بالشيء هو عين النهي عَنْ ضده مبنيٌ على زعمهم الفاسد أن الأمْر قِسمان: نفسي، ولفظي. وأن الأَمْر النفسي هو المعنى القائمُ بالذات المجردِ عَنْ الصيغة، وبقطعهم النظر عَنْ الصيغة واعتبارهم الكلام النفسي زعموا أن الأَمْر هو عين النهي عَنْ الضدِ؛ مع أن مُتعلَّق الأَمْر طلبٌ ومُتعلَّق النهي تركٌ، والطلب استدعاء أمرٍ موجود، والنهي استدعاء تركٍ؛ فليس استدعاءُ شيءٍ موجود. وبهذا يظهر: أن الأمْر ليس عين النهي عَنْ ضده وأنه لا يمكن القول بذلك إلَّا على زعم أن الأَمْر هو الخطاب النفسي القائم بالذات المجرد عَنْ الصيغة"**.

هذا كلام نفيس، الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ مَن هو في الأصول واللغة؛ كما قال الشيخ عبد الله الغُديان: **"مجتهد في كل فنون الشريعة"**؛ يرى أن هذا هَذِه المسألة ترجع إلى أصل اعتقادي.

من أهل السُنَة مِمَنْ شرح **"روضة الناظر"** مِمَنْ تكلم في هَذِه المسألة: مَن لا يرى أن المسألة ترجع إِلَى أصلٍ عقدي، وإنما ينظر في المعنى لا أنه المعنى القائم في النفس، وأني إذا أمرتُك بشيء فإن هذا يفيد أني أنهاك عَنْ ضده، ثم إذا قلت: هو الأَمْر بالشيء نهيٌ عَنْ ضده أَوْ يستلزم النهي عَنْ ضده. إذا اتفقنا على أننا لا نرى أن الكلام يتعلق بما هو قائمٌ بالنفس، وإنما نرى أن الأمْر بالشيء يلزم منه ألَّا تفعل ضده؛ فيرون التعبير بمثل العبارة.

وهذا فيما يظهر من كلام الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنه لم يُدقِق هذا التدقيق، أَوْ أنه لم يلحظ هذا الملحظ لأَنَهُ مَلحظٌ دقيق.

الأَوْلَى لا سيما مع وجود هذا المعتقّد الفاسد أن يُعبَّر فيقال: الأَمْر بالشيء يستلزم النهي عن ضده والنهي عَنْ الشيء يستلزم الأمْر بضده؛ حتى ننجو من هذا الإيهام الفاسد. طبعًا هذا استطراد لكن أنا صراحة مَا رضيت أن أمر على هَذِهِ القاعدة بدون التنبيه على هذا المعنى.

الطالب: 25:22

الشَّيْخِ: معروف النقيضان والضدان.

(المتن)

وذلك: لأنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل والإحسان، كان نهيًا عن الشرك وعن ترك الصلاة وترك الزكاة وترك الصوم وترك الحج وعن العقوق والقطيعة، وحيث نهى عن الشرك وترك الصلاة...إلى آخر المذكورات. كان آمرًا بالتوحيد وفعل الصلاة إلى آخرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر، وإقبال القلب على الله إنابةً ومحبةً وخوفًا ورجاءً، كان نهيًا عن الجزع والسخط وكُفران النّعم وإعراض القلب عن الله في تعلق هذه الأمور بغيره، وحيث نهى عن الجزع وكُفران النعم وغفلة القلب، كان آمرًا بالصبر إلى آخر المذكورات.

وهذا ضربُ مثلٍ، وإلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط، وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات، فحيث أثنى على نفسه، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب: كالنوم والسِنة واللُّغوب والموت، وخفاء شيء في العالم من الأعيان والصفات والأعمال وغيرها، والظلم، فلتَضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته، وسِعة علمه، وكمال عدله وحكمته؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه، حتى يُنفي تكميلًا للكمال.

وكذلك إذا نفى الله عن كتابه الريب والاختلافَ والشك والإخبارَ بخلاف الواقع كان ذلك لكمال دلالته على اليقين في جميع المطالب، واشتماله على الأحكام، والانتظام التام والصدق الكامل، إلى غير ذلك من صفات كتابه.

وكذلك إذا نفى عن رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكذب، والتقول على الله، واتباع الهوى والجنون والسحر والشعر ونحوها، كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4] ولكمال عقله ولزوال كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها، تنل خيرًا كثيرًا. والله أعلم.

التعليق:

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في هَذِه القاعدة: إن الله إذا أمر بالشيء كان نهيًا عَنْ ترك الشيء الذي عبر عَنْهُ بضده، وإذا نهى عَنْ شيء كان آمرًا بضد ذلك الشيء وهذه القاعدة ليست على العموم عند التتبع فإن ترك المستحبات المندوبات لا يستلزم وقوع الإنسان في النهي، ولهذا لا نقول: إن ترك المستحب مكروه. فالمكروه شيء وترك المستحب شيء آخر، نعم إذا كان الأَمْر واجبًا كان تركه حرامًا، وأما إذا كان الشيء مستحبًا فإنه لا يلزم من تركه أن يقع الإنسان في النهي، وهذا شيء ذكره أهل العِلم في الأصول. أما إذا كان النفي من باب المدح والتمدح بالشيء؛ فإنه إثباتٌ لضده، فهو يدل على اتصاله بكمال ضده، فإذا نفى الله عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نفسه النوم فلكمال حياته وقيوميته، وإذا نفى عَنْ نفسه التعب والإعياء فلكمال قدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: 38] يعني من تعبٍ وإعياء وذلك لكمال قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقوته وعلى هذا فقس، وإنَّمَا قلنا بذلك لأن النفي المحض عدمٌ محض والعدم المحض ليس بشيءٍ فضلًا عَنْ أن يكون مدحًا. ولهذا نقول: مَا من صفةٍ نفاها الله عَنْ نفسه إلَّا وَهِيَ تتضمن ثبوت مقابلٍ لهذا النفي، وإلَّا لو كانت نفيًا محضًا لم تكن كمالًا.

(الشرح)

هذا الكلام واضح عندكم بإذن الله، يحتاج إلى تمثيل أنا سأُمثِل من كلام الشيخ على الذي التزمناه في أول الكتاب: أن الشيخ إذا لم يُمثِل فإننا نُمثِل، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مَثل هنا ببعض

مَا نفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ نفسه، وببعض مَا نفى عَنْ كتابه، وما نفى عَنْ رسوله، ولكن لم يذكر الآيات بنصها.

أنا سأنتقي مثالًا جاز لي من تفسيره رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فأذكره لكم متعلق بالقاعدة الثانية "ألف وتسعمائة وستة وسبعين" مَاذا قال هنا؟

قال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: 3] أي: **ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يُربيك أكمل تربيةٍ، ويُعليكَ درجةٍ بعد درجة.**

﴿وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3] **ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليلٌ على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحًا، إلا إذا تضمن ثبوت كمالٍ، فهذه حال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الماضية والحاضرة، أكمل حالٍ وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درجات الكمال، ودوام اعتناء الله به.**

فقوله: ﴿وَمَا قَلَى﴾ أخذ منها ماذا؟ المحبة؛ لأنَّ النفي المحض عدمٌ محض ولا كمال فِيهِ؛ فنفي كونه قد قلاه يستلزم أنَّهُ قد أحبه؛ هذا تطبيق لهذه القاعدة مِنْ كلام الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في تفسيره، وكلامه في هذه القاعدة في تفسيره وتطبيقاته كثيرة -هذا بالنسبة للقاعدة الثانية-.

القاعدة الأولى؟ تطبيقاته أيضًا للقاعدة الأولى كثيرة؛ أنتقي مثالًا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 33] ماذا قال؟

"ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمرٌ" النهي عن الشيء أمرٌ بضده، **"فهو أمرٌ بإصلاحها وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلُح به علمًا وعملًا"**. وقد أشرت إلى أمثلة ولكن سيطول المقام بذكرها؛ فننتقل للقاعدة التي تليها.

(المتن)

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثالثة والثلاثون: المرض في القرآن -مرض القلوب- نوعان: مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات ومحرمات]

والطريق إلى تميز هذا من هذا ـ مع كثرة ورودهما في القرآن ـ يُدرك من السياق. فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين، كان هذا مرضَ الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل إليها كان مرضَ شهوة. ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته، وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته ما يحبه الله ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل وتركه؛ فإن كان علمه شكًا وعنده شبهات تُعارض ما أخبر الله به من أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفًا وكان مرض قلبه قوةً وضعفًا بحسب هذه الشكوك والشبهات. وإن كانت إرادته ومحبته مائلةً لشيءٍ من معاصي الله، كان ذلك انحرافًا في إرادته ومرضًا.

وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفًا في علمه وفي إرادته.

فمن النوع الأول: قوله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10] وهي الشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10] عقوبةً على ذلك المرض الناتج عن أسبابٍ متعددة، كُلُها منهم، وهم فيها غير معذورين.

ونظير هذا قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: 53] فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيءٍ يريبه ويؤثر فيه ويفتتن به.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32] أي: مرض شهوة، وإرادة الفجور أقل شيء من أسباب الافتتان يوقعه في الفتنة طمعًا أو فعلًا. فكل مَن أراد شيئًا من معاصي الله فقلبه مريضٌ مرض شهوةٍ، ولو كان صحيحًا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: 7- 8].

فمَن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره الله، فليحمده على هذه النعمة التي لا يقاومها شيءٌ من النعم. وليسأل الله الثبات على ذلك، والزيادة من فضل الله ورحمته.

التعليق:

خُلاصة هَذِه القاعدة: **أن مرض القلوب ينقسم إلى قسمين:**

1-مرض شُبهةٍ وَهُوَ نقص في العِلم.

2-ومرض شهوةٍ وَهُوَ نقصٌ في الإرادة.

فإذا اعتلت إرادة الإنسان بمعنى صارت إرادته بغير مَا يُرضي الله ورسوله فذلك مرض الشهوة، وإذا اعتل القلب بالجهل صار مرضه مرض شُبهة لأَنَّهُ اشتبه عليه الحق فصار مريضًا بذلك، وصحة القلب وسلامته أن يَمُّن الله على الإنسان فيجتمع في قلبه كمال العِلم وكمال الإرادة، وإذا اجتمع في القلب كمال العِلم وكمال الإرادة فهو؛ فهذا هو القلب الصحيح السليم، وفتش نفسك فتش قلبك عالجه. أعتقد أن بعض الناس يُطهّر بدنه كل يومٍ بالصابون، وأسنانه بالفرشاة لئلا يكون فيها وسخٌ ودرن، لكن القلب المسكين متروكٌ يشتبه عليه الحق ويلتبس عليه الباطل فلا يهمه ذَلِكَ.

ولهذا: يجب علينا أن نُطهّر قلوبنا وننظر فيها كل يوم نضعها في المختبر والتمحيص حتى ننظر أصحيحةٌ هِيَ أم مريضة؟ ولعلك تقول: كيف يكون هذا القرآن سببًا لزيادة الإيمان في قومٍ وسببًا لزيادة الرجس في قومٍ آخرين؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 124-125]؛ لأن المؤمنين إذا نزلت الآية صدقوا بها والتصديق زيادةٌ في الإيمان، وأما الذين في قلوبهم مرض فإذا نزلت الآية استكبروا عنها وشكوا فيها وكذبوا فازدادوا بذلك رجسًا إلى رجسهم -والعياذ بالله- وماتوا وهم كافرون.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الرابعة والثلاثون: دلَّ القرآن في عدة آياتٍ أنَّ مَن ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتُلِّيَ بالاشتغال بما يضره، وحُرِمَ الأمرَ الأول]

(الشرح)

وحُرِمَ هو الأمر الأول.

(المتن)

وذلك أنه ورد في عدة آيات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتُلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشرٌ، ابتُلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين.

(الشرح)

تتصل بهذه القاعدة قاعدة ذكرها في التفسير وسيذكرها هنا، تتصل بها؛ وَهِيَ على معنى يُضاد هذا المعنى، أَوْ هِيَ على عكس هذا المعنى: **«مَن ترك شَيْئًا لله عوضه الله خيرًا منه»**(1) هَذِه ذكرها أين؟ في التفسير، وذكرها هنا فقال: **"القاعدة التاسعة والستون: مَن ترك شَيْئًا لله عوضه الله خيرًا منه"**؛ فمَن اشتغل عَنْ الله عَزَّ وَجَلَّ بشيءٍ لا ينفعه ابتُلِيَ بالاشتغال بما يضره، مَن ترك مَا ينفعه ابتُلِيَ بالاشتغال بما يضره، ومَن ترك مَا لا ينفعه لله عَزَّ وَجَلَّ عوضه الله بما هو خيرٌ منه؛ فهما بينهما اتصال، وسأذكر لكم موضعًا بعد قراءة هذا الكلام.

(المتن)

التعليق:

هذا واضح لَما عدلوا عَنْ عبادة الله عبدوا اللات والعُزى، ولما لم ينقادوا لاتباع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اتبعوا أبا جهلٍ وأشباهه. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

هربوا من الرقِ الذي خُلِقوا لَهُ ... فبُلوا برقِ النفسِ والشيطان

فكانوا عبادًا للشيطان ولأنفسهم الأمارة بالسوء.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ولما عُرِض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولما بيَّن لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختيارًا ورضىً بطريق الغي على طريق الهدى؛ عوقِبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم، ولما أهانوا آيات الله ورُسُله أهانهم الله بالعذاب المهين، ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة.

ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: الآيات 75- 77].

والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي وأن يسلك الطريق المستقيم، ثم إذا تركها بعد أن عرفها، وزهد فيها بعد أن سلكها أَنَّهُ يُعاقَب ويصير الاهتداء غير ممكنٍ في حقه جزاءً عَلَى فعله؛ كقوله عن اليهود: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُم لا يَعْلَمُونَ (110) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: من الآيتان: 101- 102]؛ فإنهم تركوا أجلّ الكتب وأنفعها وأصدقها؛ فابتُلوا باتباع أرذلها وأكذبها وأضرها، والمحاربون لله ورسوله تركوا إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، وأنفقوها في طاعة الشيطان.

[القاعدة الخامسة والثلاثون: تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين]

في القرآن عدة آيات فيها الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته.

(الشرح)

هَذِه القاعدة أيضًا ذكرها في تفسيره في مواضع، وباطلاع مُوجَّز بفضل الله على الفوائد التي كتبتُها أثناء قراءة التفسير وقفت على أربعة مواضع؛ سأنتقي منها شيء.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده/ برقم: (21996) ولفظه: «إنك لن تدع شيئاً لله عز وجل إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه»، وصححه الألباني.

(المتن)

وهذه قاعدة جليلة. نبه الله عليها في آيات كثيرة.
فمن الأول:

(الشرح)

أي: الحث عَلَى أعلى المصلحتين.

(المتن)

فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال وتقديم الأعلى منها كقوله: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الحديد: 10] الآية.
وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 19].
وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: 95].
ومن الثاني:

(الشرح)

وهو: تقديم أهون المفسدتين.

(المتن)

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217].
بيَّن تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين من قتالٍ في الشهر الحرام أنه ـ وإن كان مفسدةً ـ فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر بالله وبالمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله مِنْ القتل.
وقوله: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ [الفتح: 25] الآيات؛ فكفهم الله عن القتال في المسجد الحرام مع وجود المقتضي من الكفار خوف المفسدة المترتبة على ذلك: من إصابة المؤمنين والمؤمنات مِنْ معرة الجيش ومضرته، وكذلك جميع ما جرى في الحديبية من هذا الباب: من التزام تلك الشروط التي ظاهرها ضررٌ على المسلمين، ولكن صارت هي عين المصلحة لهم.
ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة؛ لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضررًا من الصبر والإخلاد إلى السكينة.
ولعل من هذا مفهوم قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: 9] يعني: فإن ضرت فترك التذكير المُوجِب للضرر الكثير هو المتعين. والآيات في هذا النوع كثيرة جدًا.
ومن الثالث: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ﴾ [البقرة: 219] هذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه، فإن الله مِنْ حكمته لابد أن يمنع منه عباده ويحرمه عليهم.
وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابتٌ شرعًا؛ فإنه هو المعقول بين الناس المفطورون على استحسانه، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية، والله أعلم.

التعليق:

والقاعدة الثانية: "دفع المفسدة مُقدَّمٌ على جلب المصلحة" لأن سب آلهتهم لا شك أنه مصلحة، لكن سب الله أعظم جُرمًا، وهناك قاعدةٌ ثالثة؛ وَهِيَ: "أن الدين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح وتقليل المفاسد مَا أمكن".

(الشرح)

هَذِه دائمًا شيخ الإسلام يعبر عنها بقوله: **"الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، ودفع المفاسد وتقليلها"**.

(المتن)

هَذِه القاعدة التي سار عليها هذا الدين، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] فالدين الإسلامي جاء بتحصيل المصالح وتقليل المفاسد بقدر الإمكان.

وهذا يجمع القواعد الثلاثة؛ لأن المصالح المُرسَلة. الصحيح: أَنهَا ليست ثابتة.

(الشرح)

هذا رأي للشيخ معروف.

(المتن)

وأن المصلحة إن شهِد الشرع لها؛ فهي داخلةٌ في المصالح الشرعية، وإن لم يشهد لها الشرعُ أَوْ شهِد بقُبحِها فهي ليست مصلحةً وإن ظن صاحبها أنها مصلحة؛ فلا نُثبِت دليلًا يسمى: المصالح المُرسَّلة؛ لأن إثباتها دليلًا يجعل كل إنسانٍ يقول: هذا من المصالح المُرسَّلة؛ كما قيل في تحليل ربا البنوك أنه من المصالح المُرسَّلة؛ فإذا رأيت رجلٌ يفعل منكرًا فلو نهيته عَنْهُ لانتقل إلى منكرٍ أنكر؛ فدعه يبقى على منكره فإنه أهون.

كما ذُكِر: أن شيخ الإسلام حين استولى التتار على الشام مر بطائفةٍ من الجند يشربون **الخمر ويعبثون باللهو ولم يقل لهم شَيْئًا، وكان معه صاحبٌ لهم فقال لَهُ: لماذا لم تنهَ هؤلاء عَنْ المنكر؟ قال: "لأني لو نهيتهم عَنْ ذلك لتركوه وذهبوا يعيثون فسادًا في أراضي وأموال المسلمين؛ فبقاؤهم على مَا هم عليه من المنكر أهون من الاعتداء على المسلمين وعلى حُرماتِهم".**

(الشرح)

طيب، يعني كان في نيتي أن نأخذ أيضًا ثلاثة قواعد، ولكن استطردنا وعلقنا فقللنا القدر المقروء.

أنا سأختم بتمثيل لهذه القاعدة، هو الشيخ مَثَّل بمواضع؛ أنا سأنتقي منها، قال وَهُوَ يذكر الفوائد المُستفادة مِنْ قصة موسى:

قال: **"ومنها: أنه عند تزاحم المفسدتين"** الآن إذا تزاحمت مفسدتان؛ تُرتَكب الأقل ضررًا، أو تُرتَكب أخف المفسدتين؛ فتُدفَّع المفسدة الكبرى بارتكاب المفسدة الصغرى.

قال: **"ومنها: أنه عند تزاحم المفسدتين إذا لَا بُدَّ من ارتكاب إحداهما فإنه يُرتَكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يُقتَّل، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة، التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدُلّه غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبِعها موسى".**

الشيخ يحاول استنباط القواعد من القِصص المذكورة في الْقُرْآنِ؛ فيأتي بفوائد لطيفة.

أذكر موضعًا آخر؛ هذه مِنْ فوائد قصة الخضر مع موسى:

"ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو: "أنه يُدفَع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير" **ويُراعي أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شرٌ، ولكن بقاءه حتى يَفتِن أبويه عن دينهما، أعظم شرًا منه، وبقاء الغلام من دون قتلٍ وعصمتُه، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه، وإيمانهما خيرٌ من ذَلِكَ؛ فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من**

الفروع والفوائد، ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحُم المصالح والمفاسد كلها داخلٌ في هذا الباب".

هذان موضعين وثَم غيرهما، هَذِهِ القاعدة أشار إليها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مواضع؛ حتى تعرفوا أن هذا الكتاب **"التفسير"** تفسير عظيم جدًّا مليء بالقواعد، يعني يُورِّث طالب العِلم مَلكة في استنباط الأحكام الشرعية والمعاني من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

هَذِهِ القواعد التي ذكرها هنا أكثرها أَوْ كُلُّها موجودة في تفسيره مع تطبيقات، وفي التفسير قواعد زائدة. وأرجو إن يسر الله أني أجمعها ونذكرها كلها -هذه القواعد الزائدة- في مجلس مع تطبيقٍ لها.

*****

هذا والحمد لله، والصلاة والسلام عَلَى رسول الله

الْمَجْلِسِ (11)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشَّيْخ/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى على كتاب **"القواعد الحِسان المتعلقة بتفسير الْقُرْآنِ"** وقد وصلنا إِلَى: **القاعدة السادسة والثلاثين.**

(المتن)

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السادسة والثلاثون: مقابلة المعتدي بمثل عدوانه]

طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلته بمثل عدوانه، والنهي عن ظلمه، والندبُ إلى العفو والإحسان.

(الشرح)

هَذِه القاعدة أيها المكرمون ذكرها الشيخ أيضًا في تفسيره عند قوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: 237]، وقد التزمنا شَيْئًا وَهُوَ: أن القواعد التي يشير إليها الشيخ في التفسير نذكر كلامه فيها من التفسير.

وقد ذكرت لكم: أن هَذِه القواعد كلها أَوْ أكثرها قد نبه عليها الشيخ في تفسيره، واستعملها في بيان دَلالات القرآن، وفي التفسير من القواعد مَا لم يذكره في هذا الكتاب.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 237].

قال: **"أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه". إِلَى أن قال: "ثم رغب في العفو، وأن مَن عفا، كان أقرب لتقواه، لكونه إحسانًا مُوجِبًا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يُهمِل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة؛ لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدلٌ وإنصافٌ واجب، وهو: أخذ الواجب، وإعطاء الواجب. وإما فضلٌ وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجبٍ، والتسامح في الحقوق، والغضُ مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات".**

إذًا هذا الموضع من التفسير يذكر فيه الشيخ ويُشير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إلى طريقة القرآن، ويحث إِلَى أن القرآن أباح الاقتصاص من المعتدي، وأباح مقابلته بمثل عدوانه، ونهى عن ظلمه، وندب إلى العفو والإحسان؛ فيُبيح القصاص ويحث على مرتبة العفو.

وهذه القاعدة ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فيه تفسيره أيْضًا.

(المتن)

التعليق:

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: **هَذِه ثلاث حالات: اقتصاصٌ جائزٌ، ظلمٌ ممنوعٌ، عفوٌ وإحسانٌ مطلوب. لكن هذا الأخير يجب أن يُقيَّد بما إذا كان فيه إصلاح.**

(الشرح)

أي: العفو، لَا بُدَّ من تقييده بما فيه إصلاح، وهذا دائمًا يُنبِه عليه الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

(المتن)

لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40].

(الشرح)

انتبهوا لهذا الذي سيقوله! لأن واقعنا على خلاف، فالناس تطالب بالعفو على مَن وقع منه الجُرم وإن لم يظهر عليه الإصلاح. واضح؟! وهذا خطأ، يعني أن تعرف رجلًا مُجرم لا يُعرَّف بحُسن خُلق، ثم يرتكب أمرًا مَا بحق بعض الناس؛ فحينئذٍ لا تذهب وتشفع لَهُ ليعفو عَنْهُ مَا لم يُظهِّر توبةً وندمًا؛ لأنك إن شفعت في هذا فإنه سيعود إِلَى إجرامه وإفساده. لاحظوا الشيخ مَاذَا يقول؟!

(المتن)

أما لو جاءنا رجلٌ مُجرِمٌ قد فعل جريمته. قلنا لَهُ: عفونا عنك، فقال: الله يعافيك. ثم أخذ العصا وذهب يضرب الناس. فهل في عفونا هذا إصلاح؟! الجواب: لا. ولهذا يجب في هَذِهِ المسائل أن ينظر إلى الأمور بعين العقل لا بعين العاطفة، يأتي رجلٌ متهورٌ مثلًا ويدهس ابنًا لك أَوْ أخا فيجيء الناس الذين عقولهم في عيونهم فقط يصيحون عليك: ارحم هذا الرجل اعتِقه لَهُ أولادٌ لَهُ كذا لَهُ كذا، ويأتون بما يُرقِق النفس للعفو عَنْ هذا الرجل، لكن لا يعلمون أن هذا الرجل لو عفونا عَنْهُ الآن لآتانا ببليةٍ أخرى في آخر النهار. فهذا ليس أهلًا للعفو، فكل النصوص التي تحث على العفو يجب أن تكون مُقيدةً بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ لأَنَّهُ إذا لم يكن مع العفو إصلاحٌ كان ظلمًا، والظلم ممنوع.

(الشرح)

هذا أمر مهم أن ننتبه وأن نُنبه عليه.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وهذا في آياتٍ كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126].

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40].

فذكر المراتب الثلاثة ولما كان القتال في المسجد الحرام مُحرَّمًا قال تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: 191- 194] وهو كل ما حرمه الله وأمر باحترامه؛ فمَن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه، بقدر ما اعتدى به لا أكثر.

وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 194].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ [البقرة: 178] الآية.

وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45] الآية.

وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: 33].

وقوله: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148] والآيات في هذا المعنى كثيرة، والله أعلم.

التعليق:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ وَهُوَ سلطانٌ شرعيٌ طبعًا، وربما كونيٌ أيضًا بأن ييسر الله العثور على هذا القاتل فيُقتَّل. ولهذا يقول العامة: "القاتل مقتولٌ ولو بعد حين" لأن الله تعالى يقول: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ ويدل على هذا أنه شاملٌ للسلطان الكوني والشرعي، قوله: ﴿فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ يعني كأن الأَمْر مفروغٌ منه وأن هذا القاتل لَا بُدَّ أن يُقتَّل، لكن لا يُسرِّف الولي في قتله ولا يتجاوز ويتعدى.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السابعة والثلاثون: اعتبر اللَّه القصد والإرادة في ترتُب الأحكامِ عَلَى أعمال العباد]

وهذا الأصل العظيم: صرح به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «إنما الأعمال بالنيات»(1).

والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جدًا في هذا الأصل فمنها ـ وهو أعظمها ـ أنه رتب حصول الآجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه تعالى، لما ذكر الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114].

(الشرح)

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: 114].

(**﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**) إذًا الخير موجودٌ في هَذِه الأمور، ومَن فعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف يؤتيه أجرًا عظيمًا؛ فهذه الأمور فيها خيرٌ وإن لم ينوِ صاحبها الخير، ولكن الأجر مُرتَّبٌ على القصد. لماذا؟ لأَنَّ نفعها متعدٍ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ هَذِه نفعُها مُتعدِ، فهي من حيث هِيَ فيها خير، وأما الأجر فمُرتَّبٌ على القصد؛ **حتى إن بعض أهل العلم وَهُوَ قولٌ للشيخ محمد بن صالح العثيمين:** يرى أن الأمور التي نفعُها مُتعدٍ يؤجَّر صاحبها وإن لم ينوِ، والأجر مع النية يتضاعف.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فأثبت الخيرية.

(**﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**) ففهم أن مَن فعل ذلك ولم ينوِ فإن لَهُ أجرًا، ولكن ليس الأجر العظيم؛ هذا فهمٌ للآية. وممَن يقول به: الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

وبعض أهل العِلم يقول: الخيرية الموجودة باعتبار كون هذا النفع نفعا متعديًا؛ فالخيرية موجودة وليس الأجر، والأجر إنَّمَا قُيد بالنية. وهذا الذي يُفهَّم من كلام الشيخ السعدي وأنقل لكم كلامه بعد الدرس.

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1)، ومسلم/ برقم: (1907).

طيب، مَاذَا قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ؟ قال عند تفسير قوله: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38].

قال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: خيرٌ غزيرٌ وثوابٌ كثيرٌ؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص. فإن لم يُرَّد به وجه الله لم يكن خيرا لِلْمُعْطِي وإن كان خيرًا ونفعًا لِلْمُعْطى؛ كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ مفهومها أن هذه المستثنيات خيرٌ لنفعها المتعدي، ولكن (﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾).

وهنا الشيخ ابن عثيمين سيتعرض للكلام حول الآية، لكن لن يذكر هنا كلامه المعروف.

فالشيخ الكلام المعروف عَنْهُ: "أن النفع المتعدي يؤجَّر صاحبه وإن لم ينو؛ فإن نوى كان لَهُ من الأجر قدرٌ أكبر" حتى إنه يُمثِل يقول: "لو أن رجلًا عنده بستان وهذا البستان لم ينوِ أن يجعله غذاءً للطير والحيوان وغير ذَلِكَ. فهل يُؤجَّر على أكلهم من بستانه؟ قال: نعم؛ هذا نفعٌ مُتعدٍ، والنفع المتعدي يُؤجَّر عليه الإنسان وإن لم ينوِ وذكر هَذِه الآية وَهِيَ: (﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114])" إذًا هو يأخذ الأجر، ولكن إذا نوى أخذ الأجر العظيم.

التعليق:

الأمْر بهذه الأشياء خيرٌ من المعروف والصدقة والإصلاح بين الناس، لكن ثواب الآخرة لا يأتي إلَّا بالنية الخالصة: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أما مَن يفعله رياءً وسُمعةً -والعياذ بالله- فإنه وإن ترتب على فعله الخير وحصل الإصلاح والصدقة والمعروف فإنه لا يُؤتى عليه أجرًا عظيمًا.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 265] وفي مقابله قال: ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: 264].

ووصف الله نبيه وخيار خلقه الصحابة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُم بأنهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا.

وقال تعالى في الرجعة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: 228].

وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: 225].

وقال: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: 12].

وقال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: 4].

وقال: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 29].

وقال: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: 220].

وفي دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] قال الله: «قد فعلت»[1].

وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5].

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93].

وقال في الصيد: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: 95] الآية.

وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان، وصحتها وفسادها، ورتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب.

[القاعدة الثامنة والثلاثون: قد دلت آياتٌ كثيرة على جبر المنكسر قلبه، ومَن تشوفت نفسه لأمرٍ من الأمور إيجابًا أو استحبابًا]

(الشرح)

وهذه قاعدة عظيمة أيها المكرمون، جميلٌ بالمسلم أن يتخلق بهذا المعنى الذي دل عليه كتاب ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات.

منها: المُطلَّقة: فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينةً على فراق بعلها، أمر الله بتمتعها ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 236].

وكذلك مَن مات زوجها عنها، فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنةً كاملة وصيةً ومتعةً مُرغّبٌ فيها.

(الشرح)

هذا بناءً على قول؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: 240] هَذِه الآية بعض أهل يراها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234] بعضهم يراها منسوخة بهذا.

وبعضهم: لا يراها منسوخة، وهذا الذي رجحه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وبيَّن أن هذا على سبيل الاستحباب؛ فلها أن تمكث ماذا؟ سنةً.

(المتن)

وكذلك أوجب الله للزوجة على الزوج النفقة والكسوة في مدة العِدة، إن كانت رجعية، أو كانت حاملًا مُطلَقة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 8].

ويدخل الواجب والمستحب في مثل قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: 141].

التعليق:

وذلك لأن يوم الحصاد يحضره الفقراء في الغالب فكان إعطاؤهم مناسبًا جدًّا؛ لأنك إذا أنت تحصدُ الزرع وتكدِسُه وتدخره؛ فينبغي: ألّا تحرم هؤلاء الفقراء منه.

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (126).

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:
وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 17]، وتواصوا ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ [القلم: 24].
وقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 23-24].

التعليق:
قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ لأَنَهُ إذا بلغت الأم والأب الكبر ضعفت نفوسها ورقت واحتاجا إلى مَن يرحمهما؛ هذا من وجه. ومن وجهٍ آخر: إذا بلغا الكبر فإن الإنسان يَملُ منهما ويتعب ويحتاج أن يُوصى بهما خيرًا في مثل هَذِه الحال.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:
إلى قوله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26].
وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد وإجابته لأدعيتهم أوقات الحاجات والضرورات، وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات.
فهذا أصلٌ قد اعتبره الله وأرشد إليه؛ فينبغي للعبد أن يكون هذا على باله في وقت المناسبات ويعتبره عند وجود سببه.

التعليق:
هذا من الآداب العالية والخِصال الحميدة: أنه عندما تجد الإنسان منكسر القلب: إما لفوات محبوب...أَوْ غير ذَلِكَ؛ فينبغي أن تُدخِل عليه الفرح والسرور وتهون عليه المصيبة بتذكيره بما هو أعظم؛ فإن تلف لَهُ مال تقول: إن من الناس مَن تلفت لهم أموالهم كلها، وإذا أُصيب بمرضٍ في عينه تقول: إن بعض الناس قد يُصاب بالعمى...وهكذا؛ حتى تخفف عليه الأمور. ومن ذلك تعزية المصاب.

(الشرح)

الآن أيها المكرمون سنقرأ قاعدة فيها فوائد كثيرة، والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فسرها وتكلم فيها على خلافه في القواعد السابقة؛ فبسط القول شَيْئًا مَا في شرحه لهذه القاعدة، وَهِيَ قاعدة مهمة تتعلق بـ: **"السياسة الشرعية"** والكلام فيها سهل، هو كلامٌ عظيم إلا أن فهمه ميسورٌ وسهل فسنكتفي بالقراءة حتى نستطيع أن نُنجِز هَذِه القاعدة كلها.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:
[القاعدة التاسعة والثلاثون: في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية]
طريقة القرآن في هذا أعلى طريقةٍ، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفاسد، ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، وإخباره عن المؤمنين أن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]، فالأمر مفردٌ مضافٌ إلى المؤمنين.

(الشرح)

(فالأمر مفردٌ مضاف) أي في قوله تعالى: **(﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾)** أمر مفرد مضاف إِلَى الضمير **"ها"** الهاء، أمرهم، والميم للجمع، وقد مرت معنا: أن المفرد المضاف يفيد العموم، المفرد المضاف، النكرة المضافة إِلَى معرفة تفيد العموم؛ فهذا الذي يُبينه الشَّيْخ.
(إلى المؤمنين) أي: الضمير الذي هو **"الهاء"**، وأمرهُم؛ الهاء، فالهاء يُراد به: المؤمنين.

(المتن)

وفي الآية الأولى: قد دخلت عليه: [ال]، المفيدة للعموم والاستغراق.

(الشرح)

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ هذا [ال] الاستغراقية، وهذه تحدثنا حولها في أول درسٍ في التعليق عَلَى هذا الكتاب.

(المتن)

يعني أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم واستجلاب مصالحهم واستدفاع مضارهم، معلقٌ بالشورى والتراود على تعيين الأمر الذي يجرون عليه، وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى.

فالمسلمون قد أرشدهم الله إِلَى أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة، فإذا تعينت المصلحة في طريقٍ سلكوه، وإذا تعينت المضرة في طريقٍ تركوه، وإذا كان في ذلك مصلحةٌ ومضرة، نظروا: أيها أقوى وأولى وأحسن عاقبةً، وإذا رأوا أمرًا من الأمور هو المصلحة ولكن ليست أسبابه عتيدةً عندهم ولا لهم قدرةٌ عليها نظروا بأي شيء تُدرَّك تلك الأسباب، وبأي حالةٍ تُنال على وجهٍ لا يضر.

وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال على غيرهم المُلقي إلى التهلكة، وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا في هذا واجتهدوا، وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلكوا ما تعينت مصلحته فيُقدِّمون في موضع الإقدام، ويُحجِّمون في موضع الإحجام، وبالجملة: لا يدعون مصلحة داخليةً ولا خارجيةً، دقيقةً ولا جليلةً إلا تشاوروا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يُضادها ويُنقِصُها.

فهذا النظام العجيب الذي أرشد إليه الْقُرْآنِ: هو النظام الذي يصلح في كل زمان ومكان، وفي كل أمةٍ ضعيفةٍ أو قوية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]، فهذه الآية نصٌ صريحٌ بوجوب الاستعداد للأعداء بما استطاعه المسلمون من قوةٍ عقلية ومعنوية ومادية، مما لا يمكن حصر أفراده، وفي كل وقتٍ يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71]، ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلى التحرز من الأعداء، فكل طريق وسببٍ يُتَحَرز به من الأعداء فإنه داخلٌ في هذا، ولكل وقت لَبوسه، ومن عجيب ما نبه عليه الْقُرْآنِ.

(الشرح)

هذا التنبيه أيها المكرمون تنبيهٌ عجيب. تأملوا كيف سيستنبط الشيخ من قوله تعالى: (**﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: الآية144]**) كيف يستنبط منها هذا الحكم المهم. انتبهوا!

(المتن)

قال: **ومن عجيب ما نبه إليه الْقُرْآنِ من النظام الوحيد، أن الله عاتب المؤمنين بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، فأرشد عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالةٍ من الحكمة واستقامة الأمور على طريقها، لا يزعزعهم عنها فَقْدُ رئيس وإن عَظُمَ.**

وما ذاك إلا بأن يستعدوا لكل أمرٍ من أمورهم الدينية والدنيوية بعِدة أُناسٍ إذا فُقِد أحدهم قام به غيره، وأن تكون الأمة متوحدةً في إرادتها وعزمها ومقاصدها وجميع شئونها. قصدهم جميعًا أن تكون كلمة الله هي العُليا، وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، أي: اتقوا غضبه وعقابه بالقيام بما أمر به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين، فكل مصلحةٍ أمر الله بها وهي متوقفةٌ في حصولها أو في كمالها على أمرٍ من الأمور السابقة أو اللاحقة؛ فإنه يجب تحصيلها بحسب الاستطاعة. فلا يكلفهم الله ما لا يُطيقون. وكذلك كل مفسدةٍ ومضرةٍ لا يمكن اجتنابها إلا بسلوك بعض الطرق السابقة أو اللاحقة؛ فإنها داخلةٌ في تقوى الله تعالى، وذلك أن لازم الحقِ حقٌ، والوسائل لها أحكام المقاصد.

التعليق:

أشار شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى شيئين:

الأول: الشورى؛ بأن تجتمع الأمة وتتشاور في أمورها الداخلية والخارجية لأَنَّهُ إذا صدر الأَمْر من الشورى لم يكن رأيًا واحدًا بل عدة آراء ومن المعلوم أن تعدد الآراء أقرب إلى الصواب من الرأي الواحد فإن الإنسان أحيانًا إذا كرر النظر في الأَمْر يتبين لَهُ خطأ الرأي الأول الذي كان عنده لأول مرة، أحيانًا ينفذ شيئًا ثم يقول: ليتني لم أنفذ، ليتني بقيت أتروى في الأمر وأنظر حتى يكون الحكم على يقين وتؤدة، هذا وهو إنسانٌ واحد يجد من نفسه أنه كلما قرر الأمر ونظر فيه كان إلى الصواب أقرب، فكيف إذا كانوا جماعة، ولكن المُشكِل في زماننا هذا: هو أنك لا تكاد تجد شخصًا حسن النية - مخلصًا - وهذه هي البلية، لا تكاد تجد إنسانًا يتكلم في أمور السياسة الداخلية والخارجية وهو يقصد مصلحة الأمة، وهذا هو الذي يجعل الإنسان يتحير أحيانًا ويقول: ماذا تنفع الشورى وكل واحدٍ من هؤلاء المتشاورين لا يسعى إلا إلى مصلحته الخاصة.

ولهذا تأمل قوله تبَارَكَ وتعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ يعني: ينظرون إلى هذا الأمر والذي هو أمر الجميع وليس أمرًا خاصًا؛ فهذا هو الذي يُوجِب أن يقول القائل: كيف يمكن أن نحصل على الشورى وأين مَن نثِقُ بدينه وأمانته ونُصحه؟ هذا قليل، لو وجدنا شخصًا جيدًا في الرأي والتدبير، لكنه قد يكون خائنًا من حيث الأمانة ولو وجدناه أمينًا مخلصًا فقد يكون ضعيفًا من جهة الرأي والتفكير، فأمر الشورى لا شك أنه خيرٌ، لكن مشكلته أنك لا تكاد تجد مَن هو أهلٌ للشورى.

الأمر الثاني مما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه ينبغي للناس أن يعتزوا بأنفسهم لا بقُوادهم، وأن يعتقد كل واحدٍ أنه نفس ذلك القائد؛ لأنهم إذا جعلوا القيادة لواحدٍ حقيقةً وظاهرًا وتصرفًا فإنها تهون نفوسهم إذا فُقِد ذلك الواحد، وقد أرشد الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ هل إذا مات محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يبقى لكم بقيةٌ على الإسلام؟! هذا ليس بصحيح.

وهكذا ينبغي لنا أن لَا نركز على الرئيس الواحد، بل نعتقد أننا كلنا قائمٌ مقام هذا الرجل؛ حتى لا نفقد إذا فُقِد، وأن نجعل العمل سائرًا على ما هو عليه، وهذان الأمران مهمان، ولهذا يُذكَّر عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أنه إذا رأى قائدًا قد ركبه الناس وأُعجِبوا به فإنه يعزله، لسببين:

السبب الأول: ألا يتكِل الناس عليه.

والسبب الثاني: طردًا لإعجابه بنفسه وارتفاعه وتعاليه وتكبره، فهذه أيضًا مهمةٌ جدًا.

ولهذا نسمع عن بعض الخطباء من رؤساء العرب الذين مَلكوا القلوب في وقتهم يقول: أنا لست فلان – ويسمي نفسه - ولكنكم كلكم فلان، فانظر كيف يكون التأثير والتوجيه - كلكم فلان-! يعني أَنَّهُ إذا كانت السياسة قد أعجبتكم وأنا محل إعجابكم فلا يجب أن تجعلوني

وكأني أتصرف لشخصي أنا، ولكن اجعلوا أنفسكم كلكم أنتم ذلك الرجل. والآية الكريمة التي ذكرها الشَّيْخ تُشير إِلَى هذا.

ومن المهم أَيْضًا: إعداد القوة للأعداء، وتأمل قوله تعالى: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] تجد أن النكرة في سياق الإثبات، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

(الشرح)

طبعًا معروف عندكم الفرق بين نكرة في سيقا الإثبات، وفي سياق النفي.

في سياق النفي: تُفيد العموم.

في سياق الإثبات: تُفيد الإطلاق.

ومَن عنده إشكال نشرحه بعد الدرس.

(المتن)

لكنها لا تتعين بقوةٍ معينة، فإذا كان أعداؤنا يحاربوننا بالسلاح، فإعداد القوة يكون بالسلاح، وإذا كانوا يحاربوننا بالأفكار فإعداد القوة يكون بالأفكار، وأن ندرُس أفكارهم هذه لنرد عليها؛ لأننا لا يمكن أن نعرف الباطل حتى نقرأه ونتعلمه، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمعاذ بن جبل: «إنك تأتي قوما أهل كتاب»[1] أي: تدرُس أحوالهم، لو أردت أن تردُّ على صاحب باطل وأنت لا تعرف باطله. هل يمكن أن ترد عليه؟ أبدًا، بل اعرف باطله لترد عليه، وهذه طريقة العُلماء. كيف فند شيخ الإسلام رحمه الله أقوال الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين؟ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ درس هذه الأشياء وعرفها؛ فتبين أَن قوله تعالى: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ نكرة لا تتعين بقوةٍ معينة؛ فأي سلاح يغزوننا به، فإننا نعُد لهم ما نستطيع مِنْ هذه القوة، وعلى هذا فإذا غزونا بالأخلاقِ أو بالأفكارِ أو بالسلاح يجب أن نستعد لهم بكل هذه الأمور الثلاثة حتى يمكن أن نقابلهم.

وهل يشترط المثل في السلاح؟ يُشترَّط أكثر؛ فإن لم نستطع فلا يكلف الله نفسًا إِلَّا وسعها، لكن قوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يدل على أنه يكون بالقدر المستطاع ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾، وأعداؤنا الآن سبقونا بمراحل لكن ألَّا يمكن أن نتعلم؟ ألَّا يمكن أن نشتري منهم مَا استطعنا؟ وإن كانوا هم في الحقيقة يخادعون فيبيعون علينا التالفة في الخزائن وفي نفس الوقت يسببون المشاكل بيننا؛ لأن هذا السلاح مَا ينفذ إلَّا إذا وقعت مشاكل بيننا فيسوقونه علينا وهم خُبثاء لا يريدون السِلم أبدًا ولو نطحوا لطحنوا العالم، ولأنهم أذكياء قالوا: لما تقدمنا هذا التقدم الباهر في الصناعة والسلاح وغيرهما، نأتي بالسلاح الذي كنا أعددناه أولًا ونتخلص منه فنعطيه هؤلاء المساكين ونعمل لهم مشاكل ونجعلهم يتقاتلون.

أما نحن المسلمين فلو طبقنا الإسلام بمحاسنه وتشريعاته السامية وبذلنا الواجب في سبيل الدعوة إليه فإن معظم شعوبهم سيأتون إلينا ويدعون ضلالاتهم؛ لأن الدين عند الله الإسلام.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن الآيات الجامعة في السياسة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]، والآية التي بعدها.

فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، من أجَلِّها: الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، الدينية والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدى إلى أهلها بأن يُجعَّل فيها الأكْفاء لها، وكل ولاية لها

---

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1496)، ومسلم/ برقم: (19).

أكْفاءٌ مخصوصون. فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطُرق لصلاح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها.

التعليق:

وهذا أَيْضًا مِنْ السياسة الموجهة لعمل معينٍ أن يختصوا به، فلو أننا أردنا أن نولي شخصًا مِنْ متخرجي كلية الشريعة ليكون قَائمًا بتدريس كلية الهندسة لم يصلُّح؛ لَا بُدَّ أن يكون حسب الاختصاص؛ فيجب أَن تؤدى الأمانات إلى أهلها إلى الذين يمكن أن يقوموا بها ويؤدوا الأمانة فيها ولكل مقامٍ مقال، ولا نجعل عالِم الفقه يُدرِّس النحو أَوْ العالم بالنحو يُدرِّس الفِقه؛ لا يمكن، هَذِه تعتبر خيانة، وهَذِه هِيَ السياسة ام لا؟ هَذِه من أعظم السياسات، لو أن ولاة الأمور لاحظوها وجعلوا كل إنسان لَهُ اختصاصٌ بعملٍ أن يشغل عمله فليس من الحِكمَة أن يأتي خريج كلية الشريعة الذي أنفقت عليه الحكومةُ مَا أنفقت من الأموال ثم يعمل عملًا كتابيًا؛ هذا ضياعٌ للوقت وضياعٌ للمال وضياعٌ للرجال وللأعمال، العمل الكتابي كل واحد يستطيع أن يعمل فيه وإذا طبقنا هَذِه الحالة على الآية وجدنا أنها تضييعٌ للأمانة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ لكن الذي يجعل المتخرج من كلية الشريعة كاتب آلة أَوْ مَا ذلك ويفرح بذلك أيضًا لأَنَهُ ربما اجتاز اختباره بالغش، وإذا صار بالغش لا يكون عنده حصيلة وَإِنْ وقف يُدرِّس الطلبة ارتبك أمامهم واحتار وهم يلقون عليه سؤالًا صغيرًا؛ ولهذا ينفر بعض المتخرجين عمل التدريس، والسبب في ذَلِكَ: أَنْهُم مخفقون؛ فلذلك لا يريدون أن يُعلِموا، والله أعلم.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فيجب تولية الأمثل فالأمثل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده، ثم أرشدهم الله إلى الحُكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السماوات والأرض إلا به.

التعليق:

قوله: (يجب تولية الأمثل فالأمثل) ذكر الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ عشرة شروط للقاضي لو فتشت في وقتنا الحاضر عمَّن تنطبق عليه مَا وجدت أحدًا، لكن قال حبر زمانه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه يُولى الأمثل فالأمثل؛ حتى إنه يُولى أعدل الفاسقين إذا لم نجد عدلًا، نوليه ولو كان فاسقًا ولا ندع الأمور تذهب بدون ولايةٍ فينظر الأمثل فالأمثل، ومَن كان أمثل في القيام بهذا العمل ووليّ مَن هو دونه كان ذَلِكَ خيانة.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور، والحكم بالعدل من لازمه معرفة العدل في كل أمرٍ من الأمور؛ فإذا كان المتولون للولايات هم الكُمَل من الرجال والأكْفاء للأعمال وجَرَتْ تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد متجنبين للظلم والفساد، ترقت الأمة وصلُّحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور. فهل يوجد أكمل وأعلى من هذه السياسة الحكيمة التي عواقبها أحمد العواقب؟

التعليق:

طاعة ولاة الأمور تبعٌ لطاعة الله ورسوله كما يشير إلى ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59] ولم يقل: وأطيعوا أولي الأَمْر، بل قال: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ وهذا يدل على أن طاعته ولاة الأمور تابعةٌ لطاعة الله

ورسوله؛ وعليه: فإذا أمر ولاة الأمور بأمرٍ فيه معصيةٌ لله ورسوله فَإِنَهُم لا يُطاعون، وإذا أمروا بأمرٍ فيه طاعة الله ورسوله فَإِنَهُم يُطاعون من وجهين:

أولًا: هذا من طاعة الله ورسوله.

والثاني: أنه من طاعة ولاة الأمور.

وإذا أمروا بأمرٍ ليس فيه طاعة ولا معصية وجبت طاعتهم، وهذه هِيَ النقطة التي يجب أن نركز عليها، وإلَّا لو قلنا: إنْهُم لا يُطاعون إلَّا فيما هو طاعةٌ لله ورسوله لكانوا كغيرهم من الناس؛ حتى الواحد من الناس لو أمرك بطاعة الله كان أمره مطاعًا لا لأمره ولكن لأَنَهُ طاعة لله جَلَ وعَلَا، ولهذا يجب علينا أن نُطيع ولاة الأمور فيما نظموه لمصلحة الأمة وإن لم يكن طاعةً لله والرسول في ذاته إلَّا إذا كان معصية.

وأما قول بعض الجهال: نحن مَا نُطيعهم إلَّا إذا كان هذا مما أمر الله به؛ فهذه مصادمةٌ للنص مصادمةٌ لدلالته ومصادمةٌ لَهُ أيضًا، والله أمر بطاعة ولاة الأمور إلَّا في المعصية، وظاهر قوله: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ أنه مَا دامت إمرتهم باقية فلهم الطاعة ولا يُشترَّط في ذلك أن يكونوا عدولًا، بل حتى لو رأينا من بعضهم مَا هو معصية فإنه يجب طاعته. مَا نقول: والله مَا نطيعه إلَّا إذا أطاع الله، بل أطعه وَإِنْ «ضرب ظهرك وأخذ مالك[1] مَا لم يأمر بمعصية الله»[2].

ولهذا تجد هؤلاء الذين نعتبرهم سفهاء خرجوا على ولاة الأَمْر لمجرد أَنْهُم رأوا فِسقه. فماذا حصل؟ حصل من الشر والفساد مَا هو أعظم مما كان عليه هؤلاء الولاة. اقرأ التاريخ من حين حصل الاختلاف على الأئمة إلى يومنا هذا؛ تجد الشرور والفساد كله في الخروج على ولاة الأمور. مَاذَا حصل من قتل عثمان رَضْيَ اللهُ عَنْهُ؟ ومن قتل علي بن أبي طالب رَضْيَ اللهُ عَنْهُ؟ ومن قتل مَن قُتِل من بقية الخلفاء؟ حصل الشر والفساد؛ حتى أولئك السفهاء الذين خرجوا على ولاتهم واستحلوا كراسيهم وسموها ثورةً وما أشبه ذَلِكَ. مَاذَا حصل منهم؟ هل أصلحوا الوضع؟ أبدًا. بل إن المتأمل يجد أن الوضع الذي كان في السابق خيرٌ مما هو عليه الآن؛ كل ذلك بسبب الخروج عَنْ طاعة الله ورسوله، فلو أن هؤلاء أطاعوا الله ورسوله في الصبر على ولاة الأمور وطاعتهم في غير معصية الله لرأوا خيرًا كثيرًا، حتى لو رأيتهم يعصون الله في أمورٍ فأطعهم، طاعتك إياهم خيرٌ لك وإثمهم على أنفسهم، وإن قالوا: لا تتكلم؛ فلا تتكلم، وانصحهم فيما بينك وبينهم إن تمكنت، وإلَّا فأمرهم إلى اللَّه.

يذكر أن بعض الخلفاء من بني أمية سمع كلامًا من بعض الناس قال: لِمَ لا يكون هذا الخليفة مثل عمر بن الخطاب، مثل علي بن أبي طالب، مثل كذا مثل كذا؟ فجمع الناس والوجهاء وقال لهم: أنتم تريدون أن أكون لكم مثل عُمَر بن الخطاب؟ قالوا: نعم، قال: كونوا مثل الناس زمن عُمَر بن الخطاب أكن لكم مثل عُمَر بن الخطاب؛ فخصمهم، وهذا من حِكمة الله "كما تكونون يولى عليكم"[3]، وليس من الحِكمَة أن يأتي واحد مثل عُمَر بن الخطاب لقوم بينهم وبين وصف عُمَر بن الخطاب مثلما بين المشرق والمغرب.

---

(2) أخرجه مسلم/ برقم: (1847) ولفظه: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ».

(3) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (7144)، ومسلم/ برقم: (1839) ولفظه: «السَّمْعُ والطَّاعَةُ علَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيما أَحَبَّ وكَرِهَ، ما لَمْ يُؤْمَرْ بمَعْصِيَةٍ، فإذا أُمِرَ بمَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ».

(1) ذكره الشيخ ابن باز/ برقم: (384/5) وقال: هو من كلام بعض السلف.

جاء رجلٌ من الخوارج إلى عليٍ بن أبي طالب وقال: يا عليّ لما راح الناس عنك ولم يُقبِلوا عليك ويلتفوا حولك كما التفوا حول أبي بكرٍ وعمر؟ قال: "لأن رجال أبي بكر وعمر أنا وأمثالي ورجالي أنت وأمثالك فخصمه".

فالولاة الآن عليك أن تسأل الله لهم العافية فيما حصل لهم من المخالفات، ولكن لا تُثري الناس عليهم لأَنَّهُ لا يُفيد أبدًا بل مَا يزيد الأَمْرَ إِلَّا شدة.

قال ابن القيم وغيره: يُولى على الناس مَن كان مثلهم، ولو رجعنا إلى هؤلاء الذين يريدون من حكامهم أن يكونوا مثل الخلفاء الراشدين لوجدنا عندهم من البغي والحقد الشيء الكثير، بل إن هؤلاء لو تأملت أحوالهم لوجدت غاية مَا عندهم أن ينالوا المنصب ولا تجد منهم التقوى الحقيقية والإنابة والرجوع لله عَزَّ وَجَلَّ بل هم متساهلون في كثير من هَذِه الأشياء ويريدون أن يصلوا إلى المناصب فقط، وهذا أمر مشهور عمَن اشتُهِر بمحبة الخروج على الأئمة، وأن الغالب منهم أَنْهُم يريدون الوصول إلى الثَرى. وهذا هو الواقع ولا حاجة بنا أن نضع النقط على الحروف ونقول مثل كذا وكذا؛ فهذا أمرٌ معلوم، كانوا في الأول قاموا على مَن قاموا عليه يريدون أن يُمَكِنوا حُكم الله في الأَرْض فصاروا شِبه الأول.

فالسياسة الشرعية هِيَ أن نمشي على مَا في كتاب الله وسُنَة رسوله: «اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك»[1] ومَن رأى من أميره مَا يكره فليصبر إن لم يأمر بمعصية، لو قال للناس: تعالوا اضربوا على العود غنوا وارقصوا. قلنا: لا سمع ولا طاعة، أو قال: اظلموا الناس وكلوا أموالهم واضربوا أبشارهم؛ مَا أطعناهم في ذَلِكَ؛ لأن هذا معصيةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، أنا لا أقول اسكت، أنا أقول: انصحهم وناصحهم لكن لا تخرج عليهم.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع ما شرعه الله من الحدود على الجرائم والعقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده وهي في غاية العدالة والحُسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد، وفيها صيانةٌ لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكلم بالحق مع مَن كان وفي أي حالٍ من الأحوال، وكذلك ما فيها من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق، وفي الأمور التي لا محظور فيها، كما أن الحدود والعقوبات والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح فيها رد الحرية؛ فإن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن.

وأما إطلاق عِنان الجهل والظلم والأقوال الضارة للمجتمع والمحللة للأخلاق، فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد وانحلال الأمور والفوضوية المحضة؛ فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج، ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولى، وأغلقه عن الثانية، تحصيلًا للمصالح ودفعًا للمضار والمفاسد، والله أعلم.

التعليق:

هذا صحيح فإن الحرية المطلقة لشخصٍ مَا تكون على حساب حرية غيره، لو أطلقنا لشخصٍ الحرية لقال: أريد أن أتمتع بأموال الناس ومساكنهم ومراكبهم وحتى زوجاتهم أيضًا، سيكون على حساب الآخرين، ولكن نقول لك: حريةٌ فيما تملك فقط، وللآخرين حريةٌ فيما يملكون، فالحرية الكاملة هِيَ المبنية على كتاب الله وسُنَة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

---

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (1847) ولفظه: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ».

ولا أحد أحكم من الله ولا أعدل منه، وقد عدل عَزَّ وَجَلَّ في الحرية التي منحها لعباده؛ فجعل لكل إنسانٍ حريةٍ لا يتعدى بها على حرية الآخرين.

وهذا أيضًا من السياسة والحرية الظالمة الجائرة هِيَ التي تمنع مِنْ التكلم بالخير والتحذير من الشر، والحرية الحقة هِيَ التي تُطلّق لكل إنسان القول والعمل فيما هو من حقه؛ هَذِه حريةٌ صحيحةٌ نافعة، ولكل مقامٍ مقال؛ يعني حتى وإن ملكنا أن نتكلم وأن نفعل وكان المقام يقتضي أن لا نقول وأن لا نفعل فإننا لا نقول ولا نفعل ولا حرج في ذلك، والسياسة أصلًا مأخوذةٌ مِنْ ساس الشيء يسوسه، والسائس في الأصل هو المتولي للحيوان، فسائس الحيوان هو الذي يقوم بمصالحه، فالسياسة الشرعية هِيَ المبنية على الشرع، والسياسة الوضعية هِيَ المبنية على القانون الوضعي.

يقول بعض الناس: إن السياسة غير الدين وإن الدين شيءٌ والسياسة شيءٌ آخر، فنقول لهم: كذبتم! فالسياسة الشرعية هِيَ السياسة الحقة، وقد جاء بها الإسلام، ومَن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى كتاب "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية".

(الشرح)

وقد شرحه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، الكتاب هذا مشروح، وشرح الشيخ عليه نافع.

(المتن)

لشيخ الإسلام ابن تيمية وإلى كتاب "الطُرق الحُكمية".

(الشرح)

لتلميذه ابن القيم، وقد ذكر الرجلان رحمهما الله من السياسة الشرعية مَا تقوم به مصالح العباد والبلاد.

*****

هذا والحمد لله، والصلاة والسلام عَلَى رسول الله

الْمَجْلِس (12)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة كتاب: "القواعد الحسان المتعلقة بالْقُرْآنِ" بشرح الشَّيْخِ/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وهذا الدرس بإذن الله سيكون في أغلبه قراءةً مجردة، والقواعد التي سيذكرها قواعد واضحة، والتعليق عليها واضح بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

القاعدة الأربعون: **في دلالة القرآن على أصول الطب.**

(الشرح)

مَا سيذكره الآن مُستفاد من تأمله رَحِمَهُ اللَّهُ، وربما استفاده من ابن القيم. فابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قد ذكره في "زاد المعاد".

(المتن)

[القاعدة الأربعون: في دلالة القرآن على أصول الطب]

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحِمية من الأمور الضارة، ودفع ما عرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد، وقد نبه القرآن عليها في قوله تعالى في حفظ الصحة ودفع المؤذي: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: 31]، فأمر الله بالأكل والشرب الذين لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان، وينفعه في كل وقتٍ وحال، ونهى عن الإسراف في ذلك، إما زيادةً في كثرة المأكولات والمشروبات، وإما بالتخليط، وهذا حِميةٌ عن كل ما يؤذي الإنسان؛ فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب إذا صار بحالةٍ يتأذى منه البدن ويتضرر مُنع منه. فكيف بغيره؟!

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حِميةً له عن المضرات كلها.

وأباح للمُحرِم الذي به أذىً من رأسه أن يحلقه ويَفدي، وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضرره أكثر من هذا؟!

ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة، فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بمدافعته الذي لم يقع، والتحرز عنه وبمعالجة الحادث بالطريقة الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج وبقية الأعمال والإحسان إلى الخلق؛ فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رِضا الله وقُربه وثوابه، والإحسان إلى عبيده، فإن فيها صحةً للأبدان وتمرينًا لها، ورياضةً وراحةً للنفس وفرحًا للقلب، وأسرارًا خاصة تحفظ الصحة وتنميها وتُزيل عنها المؤذيات.

وبالجملة فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة، والله أعلم.

التعليق:

هَذِه أيضًا قاعدة نافعةٌ، خُلاصتها: أن القرآن أرشد إلى أصول الطب الثلاثة وَهِيَ التقيُد **بما يحفظ الصحة والبدن والحِمية عما يضره، وإزالة مَا يؤذيه؛ ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلها في الْقُرْآنِ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ هذا استعمال مَا يحفظ الصحة ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ هذا الحِمية عما يضر، أما دفع مَا كان ضار فذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لَهُ فدية الأذى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ [البقرة: 196] يعني فليحلقه؛ ففي هذا إزالة المؤذي، وإذا تم للبدن حفظ الصحة وحمايته مما يضره أَوْ يؤذيه ورفع مَا أضر به وأذاه تمت صحته.**

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الحادية والأربعون: قصر النظر على الحالة الحاضرة]

يُرشِد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم إلى الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب فيه والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليها من المصالح، ومن جهة النِعم إلى النظر إلى ضدها.

وهذه القاعدة الجليلة دل عليها القرآن في آياتٍ عديدة، وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يُرقى العاملين إلى كل خيرٍ ديني ودنيوي، فإن العامل إذا كان مشتغلًا بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإن قصر فِكره وظاهره وباطنه عليه نجح، وتم بحسب حاله.

وإن نظر وتشوقت نفسه إلى أعمالٍ أخرى لم يَحِن وقتها بعدُ فترت عزيمته، وانحلت هِمته وصار نظره إلى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه، ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه، وربما كان الثاني متوقفًا على الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف مَن جمع قلبه وقالَبه وصار أكبر همه هو القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته؛ فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعد له بقوةٍ ونشاطٍ وتلقاه بشوق، وصار قيامه بالأول معونةً على قيامه بالثاني.

ومن هذا: قوله تعالى مصرحًا بهذا المعنى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: 77].

فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي، فلما جاء العمل الثاني ضعفوا عنه كل الضعف عنه، ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحد في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: 143].

وقد كشف هذا المعنى كل الكشف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 66]؛ لأن فيه تكميلًا للعمل الأول، وتثبيتًا من الله، وتمرنًا على العمل الثاني.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 75-77].

فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت واجتمعت الهمة والعزيمة عليه، وصار القيام بالعمل الأول مُعينًا على الثاني، وهذا المعنى في القرآن كثير.

التعليق:

الشِق الأول من هَذِه المسألة: أن الإنسان ينبغي لَهُ أن بالعمل الذي بين يديه؛ لأن العمل الذي بين يديك هو وظيفة وقتك، بعض الناس يُفرِّط فيه من وجهين:

الوجه الأول: أن يتساهل ويتهاون ويقول: هَذِه مسألةٌ بسيطة، هذا عملٌ قليلٌ فيضيع عليه الوقت؛ فإذا حصره الوقت، وإذا عجز عَنْهُ انتقل هذا العمل من وظيفته الزمنية إلى وظيفة العمل الثاني، فضاق عليه وعجز عَنْ القيام بهما وعلى هذا قول صاحب الحِكمَة: "لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد"، وما أكثر مَا يظن الظان أن هذا العمل يسيرٌ وأنه سيخلُص منه ثم يتمادى به فيعجز، وإذا قابل الإنسان هذا العمل وقام به بهمة ونشاطٍ وبدأ فورًا ولم يتوانى فيه أدركه على سهولةٍ وأتقنه وأجاده، وهذه تقع في الأعمال اليومية تقول: هذا يسيرٌ، أكتب هذا إن شاء الله بعد قليل؛ فيمضي الوقت ولم تكتبه، لكن إذا عملت استرحت وجرب تجد وانتهز الفرصة كما قيل:

انتهـــز الفرصـــة إن الفرصـــة   تكـــون إذا لم تنتهزهـــا غُصـــة

الشِق الثاني الذي أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: أن بعض الناس يهون عليه الأمْر يقول: هذا العمل خفيفٌ وأنا أريد عملًا أشد، ويقول بعض الناس: دعونا نقرأ ليلًا ونهارًا. وهذا غير صحيح؛ هذا مَا ينبغي بل هون على نفسك لأنك بذلك تُرهِق نفسك ولا تتقِن العمل، لكن إذا جاء العمل يسيرًا تحملته النفس وأتقنته وانتقلت إلى العمل الثاني وَهِيَ قد أجادت العمل الأول فتلقته بانشراح ونشاط.

فهذان وجهان فِي هَذِه المسألة، ومن الناس مَن يتهاون بالعمل ويقول: هذا عملٌ قليلٌ أؤخره؛ فيضيع عليه وقته، ومن الناس مَن يستقل هذا العمل ويريد عملًا أكثر فإذا ابتُلِيّ به عجز عَنْه، ولهذا قال في الآية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

كَذَلِكَ الآية الثانية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 66].

وانظر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حينما قال: والله لأقومَن الليل مَا عشت ولأصومن النهار مَا عشت؛ فدعاه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسأله وَهُوَ الذي قال كذا قال: نعم، فبدأ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحاطِطه ويُنازله؛ حتى وصل إلى أن يصوم يومًا ويدع يومًا. فماذا كانت حال عبد الله في آخر عمره؟ شق عليه ذلك فكان يصوم خمسة عشر يومٍ سردًا ويُفطِّر خمسة عشر يومًا وقال: «ليتني قَبلتُ رُخصة النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(1).

وكذلك قراءة كتب العِلم يقال: إن الشيخ عبد الله أبا بطين.

(الشرح)

طبعًا بالفُصحى: بُطين.

(المتن)

رَحِمَهُ اللَّهُ وكان يلقب: مُفتي الديار النجدية، وكان عالمًا جيدًا في الفقه يقول: إنني مَا قرأت إلَّا "روض المُربِع في شرح زاد المستقنع" وَهُوَ شرحٌ مختصرٌ لكنه كان يكرره ويتأمل فيه ويأخذ بمنطوقه ومفهومه وإشارته ومع ذلك صار عالمًا بحرًا في الفقه، وأما أن يكون الشخص يقفز من غصنٍ إلى غصن ومن هذا الكتاب إلى ذاك كتاب يومًا يطالع في هذا ويوما يطالع في هذا يذهب عليه الوقت أحيانًا يأتي الإنسان ويريد أن يطالع حُكم مسألة معينة فإذا فتح الكتاب إذا هو كالبحر وإذا السمك أمامه وقد كان يريد حوتًا معينًا فجعلت الأسماك تتزارق فصار يأخذ هَذِه ويأخذ هَذِه ويضيع عليه الوقت ولم يراجع المسألة التي كان يطلبها؛ فعلى الإنسان مَا دام أنه يريد مسألةً معينةً أن يبدأ بالأول مَا يبدأ بها، وإذا حصل عنده فضل وقت فليرجع إلى المسائل الأخرى لكن في بعض الأحيان مع شغف بالعلم يقول: هَذِه مسألة جيدة أقرأها وهكذا يذهب عليه الوقت.

ثم شيءٌ آخر أيضًا أحيانًا تمر عليه مسألة نادرة الوجود ولو طلبها في محلها مَا وجدها، ثم في تلك الساعة يقول: الآن حفظت هَذِه المسألة ولا أنساها أبدًا، ولكنه لم يقيدها، ثم مَا هِيَ إلَّا أيامٌ قليلة حتى ينساها ويحاول أن يجدها فلا يجدها، وهذه مسألةٌ أيضًا ينبغي لطالب العِلم أن يلاحظها إذا مرت عليك مسألة مهمة إما قاعدة لا تكاد تجدها في الكتب، أَوْ مسألة

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1976)، ومسلم/ برقم: (1159).

فاحفظها وقيدها عندك ولا تقول: الآن استقرت في ذهني ولا أنساها؛ فإذا قيدتها ترجع لها، فاجعل عندك دفترًا.

ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كتابٌ سماه: "بدائع الفوائد" لم يؤلفه تأليفًا منسقًا كان كلما طرأ على ذهنه مسألة كتبها، وابن الجوزي لَهُ كتابٌ اسمه: "صيد الخاطر" يُقيد فيه مَا يَرِد في خاطره؛ فهذه أيضًا ينبغي أن يلاحظها فيجعل عنده كتابًا يُقيد فيه كل المسائل النادرة التي إذا طلبها الإنسان تَعِب في وجودها يُقيدها ولو بالخُلاصة.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وأما الأمور المتأخرة فإن الله يرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هِممهم على العمل المثمر للمصالح والخيرات، وهذا كالترغيب المتنوع من الله على أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها، وثمراتها الذميمة؛ فاعرف الفرق بين النظر إلى العمل الآخر الذي لم يجئ وقته، وبين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت هِمة صاحبه، وتأمل ما يترتب عليه من الخيرات استجد نشاطه، وقويّ عليه وهانت عليه مشقته، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104].

التعليق:

هَذِه الآية أيضًا اجعلها على بالك، كل عدو لك إذا كنت تعاني منه فإنه يعاني منك مثلمَا تعاني منه؛ سواءً كان ذلك عدوًا بالسلاح أَوْ بالأفكار أَوْ بأي شيء، لكن الفرق بين المسلمين وأعدائهم: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ هذا يخفف عنا كثيرًا، إذا كانوا يألمون كما نألم فهذا من باب التأسي والتسلي، والثاني: إذا كنا نرجو من الله مَا لا يرجون فهذا من باب الترقي، نحن أرقى منه كما قال المؤمنون لأبي سفيان: "لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار"(1).

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وأما إرشاده من جهة النعم التي على العبد مِنَ الله بالنظر إلى ضدها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله، ففي القرآن منه كثير، يُذكِّر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم، كقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103] أي: إلى الزيادة لشكر نِعم الله.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26].

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: 72] إلى آخر الآيات؛ حيث يذكرهم أن ينظروا إلى ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه منها،

(2) أخرجه الإمام أحمد/ برقم: (1/287-288)، والحاكم/ برقم: (2/296-297)، وصححه الألباني.

وهذا الذي أرشد إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال: «انظروا إلى مَن هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم، فإنه أجدر أنْ لَا تزدروا نعمة الله عليكم»(1).
وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69].
وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: 6-8] إلى آخرها.

[القاعدة الثانية والأربعون: الحقوق لله ولرسوله]

في أن الله ميز في كتابه بين حقه الخاص، وحق رسوله الخاص، والحق المشترك.

(الشرح)

هَذِه قاعدة نافعة، ومَن تدبر كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ يجدها ظاهرةً في آيات، الله عَزَّ وَجَلَّ يُفرِّق بين حقه الخاص، وبين حق رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والشيخ يُمثِل.

(المتن)

واعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة:
1-حق لله وحده، لا يكون لغيره: وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات.
2-وحق لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصٌ: وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق والاقتداء به.
3-وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، ومحبة الله ومحبة رسوله.
وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آياتٍ كثيرة من القرآن، فأما حقه الخاص: فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل له، والترغيب في ذلك، وهذا شيءٌ لا يُحصى.
وقد جمع الله ذلك في قوله في سورة الفتح: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح: 9] فهذا مشترك، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9] فهذا خاصٌ بالرسول، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 9] فهذا حقٌ لله وحده.
وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في آيات كثيرة.
وكذلك: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
وكذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: 62].
وقوله تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ فهذا مشترك، ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: 59] هذا مُختصٌ بالله تعالى.
ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه: أن ما لله منه يَثْبُت نظيره من كل وجهٍ لرسوله، بل المحبة والإيمان بالله والطاعة لله لَا بُدَّ أن يصحبها التعبد والتعظيم والخضوع، وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حبٌ في الله، وطاعةٌ من أجل مَنْ أطاع الرسول فقد أطاع الله، بل حق الرسول على أمته من حق الله تعالى، فيقوم المؤمن به امتثالًا لأمر الله، وعبوديةً له، وقيامًا بحق رسوله وطاعةً له، وإنما قيل له حق الرسول لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأقارب وغيرهم؛ كله حقٌ لله تعالى، فيقوم به العبد امتثالا لأمر الله وتعبدًا له، وقيامًا بحق ذي الحق، وإحسانًا إليه، إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلى أمته فما وصل إليهم خير إلا على يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا.

التعليق:

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (2963).

خُلاصة هَذِه القاعدة: أن الحقوق تنقسم إلى ثلاثة أقسام: حقٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، وحق للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وحقٌ مشترك، وهناك أيضًا حق رابع لا لله ولا للرسول ولكنه لذوي الحقوق كحق الوالدين والأقارب وما أشبه ذلك، ولكن كلام المؤلف الأخير يدلنا على أن كل شيءٍ أمر الله به سواءً مما يختص به أَوْ مما يكون لخلقه؛ فهو بالمعنى العام من حقوق الله، لأني حينما أبر بوالديّ فإني أقوم بذلك تعبدًا لله وامتثالًا لأمر الله، كَذَلِكَ حق النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لولا أن الله أكرمه بالرسالة وأوجب علينا تصديقه واتباعه لكان هو رجلًا من قريش، ولكن من أجل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صار بهذه المكانة.

فالإيمان بالله وبرسوله لا يستويان وإن اتفقا في أصلهما، لكنهما يختلفان الإيمان بالله إيمانٌ بالله لذاته لأَنَّهُ الرب، والإيمان بالرسول إيمانٌ به لأن الله أرسله وأمرنا بالإيمان به؛ فهما وإن اتفقا في الأصل لكنهما يختلفان.

ومن سفه بعض الناس أَنْهُم يجعلون حق الله متأخرًا عَنْ حق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويُقدِمون حق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حق الله، وما علِموا أن تعظيم الرسول من تعظيم الله وليس تعظيم الله من تعظيم الرسول، بل الأَمْر بالعكس تعظيم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تعظيمٌ لله. ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80].

إذًا هَذِه القاعدة من قواعد التفسير؛ وَهِيَ: أننا إذا تأملنا القرآن وجدنا أن الحقوق التي أثبتها الله تنقسم إلى أربعة أقسام: حقٌ لله، وحقٌ للرسول، وحقٌ مشتركٌ بينهما، وحقٌ رابع لذوي الحقوق. قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ [النساء: 36] إلى آخره، فقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا يتضمن حق الله وحق الرسول لأَنَّهَا لا تكون عبادةٌ إِلَّا باتباع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أما: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ إلى آخره؛ فهذه من حقوق ذوي الحقوق.

قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 9] كيف عرفنا أن بعضها لله، وبعضها للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعضها مشترك؟ لأن ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ واضح أنه يجب علينا أن نؤمن بالله ورسوله، والاشتراك بينهما ظاهر ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ التعزير والنُصرة والتوقير والاحترام للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ التسبيح لله؛ إذ إننا نعلم بالضرورة من الدين أنه لا يصح أن نقول: سبحان النَّبِيّ أبدًا، بل نقول: سبحان الله فصار الدليل على أن هَذِه الحقوق منها مُختصٌ، ومنها مشترَّك؛ إما من نفس الآية، وإما من أدلةٍ أخرى.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثالثة والأربعون: يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يُخشى من عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يُخشى فواتُها]

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة. قال تعالى في القسم الأول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: 94]، وفي قراءة: ﴿فتثبتوا﴾.

(الشرح)

قراءة حمزة والكسائي.

(المتن)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: 6].

وقد عاتب الله المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يُخشى من إذاعتها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] الآية.

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: 39]، ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وأنْ لَا يقول الإنسان ما لا يعلم، وفي هذا آياتٌ كثيرة.

وأما القسم الثاني: كقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133] الآية.

وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61].

وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: 10]، أيْ: السابقون في الدنيا إلى الخيرات: هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات. والآيات كثيرةٌ في هذا المعنى.

وهذا الذي أرشد الله عباده إليه، هو الكمال أن يكونوا حازمين لا يفوتون فُرص الخيرات، وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرّات ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

التعليق:

هَذِه القاعدة قاعدةٌ مهمة جدًّا؛ فالأمور ثلاثة أقسام: مَا عُلِمت مضرته فالإقدام إليه لا يجوز لا بالمسارعة ولا بالتأني، وما عُلِمت منفعته فالمبادرة إليه هو الأكمل وجوبا أَوْ تطوعًا حسب مَا تقتضيه الحال، لكن هنا قد يكون الشيء منفعةً في ذاته، ولكن يتردد الإنسان بين كون غيره أنفع منه أَوْ هو أنفع من غيره؛ وحينئذٍ يجب التثبت والتروي هو خيرٌ في ذاته، لكن يتردد الإنسان بين كون غيره أنفع أو هو أنفع؛ فحينئذ يتثبت لأن الإنسان لا يدري أخيرٌ هو أم غير خير، لا باعتبار ذاته ولكن باعتبار غيره. إذًا هذا يدخل في القسم الثاني وَهُوَ المشكوك فيه الذي يجب أن نتثبت فِيهِ؛ فهنا ثلاثة أقسام: قِسم عُلِم مضرته فلا نُقدِّم عليه لا مبادرةً ولا تأنيًا، وقسمٌ آخر علمت منفعته فتُقدِّم عليه، والقسم الثالث يتردد فيه الإنسان ويحتاج إلى تثبُتٍ فنتثبت فيه قبل أن نُقدِّم عليه، ويدخل في ذلك ما أشكل علينا بذاته وما أشكل علينا بمقارنته مع غيره. هل هو أنفع أم غيره أنفع؟ ولهذا يقول الشاعر:

قد يُدرِك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجِلِ الزَلَلُ

وربما فات قومًا جُل أمرِهِمُ ... مع التأني وكان الرأيُ لو عَجِلوا

(الشرح)

(قومًا) وليس قومٌ؛ مفعول به مُقدَّم.

(المتن)

فهنا ذِكر الحالين؛ فالبيت الأول: يشير إلى التأني في الأمور، والثاني مثلًا إذا عَنَ لك أن تقوم بطاعة الله فهنا لا تتأخر، إذا كان الحال تتطلب إزالة مانعٍ من موانع الصلاة مثلًا فلا تتأخر؛ ولهذا كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا أصابته نَجاسةٌ يبادر بإزالتها أَوْ بالأمر بإزالتها، بال عليه صبيٌّ في حجره «فدعا بماءٍ فأتبعه إياه»(1) ولم يقل: أنتظر حتى أصل إلى البيت، وبال أعرابيٌّ في طائفة المسجد «فأمر بدلوٍ به ماء فأُريق عليه»(2)،

(2) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (223)، ومسلم/ برقم: (287).

(3) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (221)، ومسلم/ برقم: (284).

والتأخير قد يسبب للإنسان إحراجًا. انظر إلى النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حينما أقيمت الصلاة ذات مرة وحضر، ولما تقدم ليُكبر أَوْ كبرَ ذكر أنه لم يغتسل فقال: «مكانكم ثم ذهب واغتسل»(1) وجاء وصلى بهم بعد أن أُقيمت الصلاة. انظروا للتأخير كيف يسبب والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يجري عليه مثل هَذِه الأمور لأجل أن يَسُنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده مثل هذه الأحوال.

الْمَجْلِس (13)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلَامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشَّيْخ/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لكتاب: "القواعد الحِسان المتعلقة بتفسير الْقُرْآنِ" ووصلنا إِلَى: القاعدة الرابعة والأربعين.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الرابعة والأربعون: علاج ميل النفوس إلى ما لا ينبغي]

عند ميلان النفس أو خوف ميلانِها إلى ما لا ينبغي، يُذكِرُها الله ما يفوتها من الخير، وما يحصل لها من الضرر.

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة؛ لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلقِ في كفهم عما لا ينبغي، حتى يُقرَّن بذلك ما يفوتُ من المحبوبات التي تزيد أضعافًا مضاعفةً على المحبوب الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرَّتب عليه.

كذلك قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]، فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن الاستقامة، قال مذكرًا لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلِموا من الفتنة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28].

وقال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: 109].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: 20].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: 205- 207].

والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرةٌ جدًا؛ فإذا بان للناظرِ أصلُها وقاعدتُها سَهُل عليه تنزيل كل ما يرِد منها على الأصل المتقرر، والله أعلم.

التعليق:

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (640)، ومسلم/ برقم: (605).

يُفيد رَحِمَهُ اللَّهُ في هَذِه القاعدة: أن الأوامر والنواهي في حد ذاتها قد لا تكفي في استقامة العبد، لكن إذا ذُكِر له مَا في تنفيذ الأمْر من فائدة نشطة؛ لأن النفوس مجبولةٌ على حب مَا يلائمُها، وإذا ذُكِر لَهُ في النهي مَا يقتضي العقوبة فإنه يحذر؛ لأن النفوس مجبولة على النفور مما لا يلائمها، وهذا واضح حتى في أوامرك أنت لولدك. لو قلت لولدك: افعل كذا؛ قد يتوانى، لكن إذا أعطيته جائزة أوْ قلت: لك جائزة فإنه يُقدِّم.

فالله عَزَّ وَجَلَّ أحيانًا إذا ذكر حالًا من الأحوال التي تميل إليها النفوس وربما تنسى مَا يجب عليها من حق الله ذكرها؛ فهنا قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: يفتتن بها الإنسان وينشغل بها عَنْ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولما كان هذا سببًا لميل الإنسان إلى أمواله وأولاده. قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فلا تُقدِّم هؤلاء الأولاد والأموال على مَا عند الله من الأجر.

وكذلك الآيات التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولنفرض أنكم نجحتم في ذلك، لكن: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهذه الآية تنفع في الدنيا وفي الدين أيضًا، فنقول لِمَنْ جادل بالباطل: لنفرض أنك لبيانك وفصاحتك غلبت صاحب الحق ولكن هل تغلب الله يوم القيامة؟ لا. وكذلك مَن دافع عَنْ باطل وتوكل عَن إنسانٍ في قضيةٍ مالية يدافع عَنْهُ بالباطل. فنقول: لنفرض أنك نجحت وخاصمت خصمك، لكن من يجادل الله يوم القيامة؟! وهذه آيةٌ عظيمة ينبغي للإنسان أن يتذكرها كلمَا همت نفسه أن يقوم بمخالفة لله جَلّ وعَلَا.

وكذلك أيضًا الآية الثالثة وَهِيَ قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ وهذه الآية أيضًا: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ مقيدةٌ بآيات أخرى وَهِيَ قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18] إذًا لا يحصل لَهُ كل مَا يريد، بل هو مقرونٌ بمشيئة اللَّه؛ ولهذا نجد ناسًا يسعونَ للدنيا وهم يريدون إلَّا الدنيا ولا ينالون منها شَيْئًا؛ ولهذا يُضرَّب المثل بفقير النصارى إذا أفلس أحدٌ في شيءٍ من الأشياء قيل لَهُ: أنت مثل فقير النصارى، لا حصل دينًا ولا دنيا، ومعلومٌ أن النصارى وغيرهم من الكفار يسعون للدنيا لا للآخرة، ومع ذَلِكَ: قد يُصابون بالفقر المدقع وبالهلاك وبالأمراض وبكل شيء مكتوبٍ في هَذِه الآية: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ يقينًا، ولو نظرنا إلى الآية هَذِه نفسها لكانت دلالتها يقينا لأنَهَا جملة شرطية خبريةٌ والخبر لا يُخلَّف، لكنها مقيدةٌ بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18].

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الخامسة والأربعون: حث الباري في كتابه على الصلاح والإصلاح]

هذه القاعدة من أهم القواعد، فإن القرآن يكاد أن يكون كله داخلًا تحتها.

التعليق:

الأفصح أن يقال: يكاد يكون كذا. قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: 40].
وقال تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71] لا أن يفعلوا. وقال ابن مالك:

وكونه بدون أن بعد عسى ... نزرٌ وكاد الأمر فيه عُكِسا

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فإن الله أمر بالصلاح في آياتٍ متعددة والإصلاح، وأثنى على الصالحين والمصلحين في آياتٍ أُخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمةً معتدلةً مقصودًا بها غايتها الحميدة؛ فأمر الله بالأعمال الصالحة وأثنى على الصالحين، لأن أعمال الخير تُصلّح القلوب والإيمان، وتُصلِح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد هذه الأشياء، وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين ما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس والتصالُح فيما بين المتنازعين، وأخبر على وجه العموم أن الصُلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم، كما قال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88]، فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية للمسلمين فإنه مُصلِّحٌ، والله يهديه ويرشده ويسدده، وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مُفسِدٌ، والله لا يُصلِح عمل المفسدين.

التعليق:

من الآيات في الثناء على المصلحين: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

ففي الآية الأُولَى بيَّن الله جزاءهم، وفي الآية الثانية بيَّن الله تعالى وارتفع عَنْهُم من العذاب بسبب الإصلاح. وانتبه لهذا الشرط! ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ولم يقل: وأهلها صالحون؛ إذًا فالصلاح في الأمة بدون إصلاح لا يضمن ارتفاع الهلاك عنهم، بل لَا بُدَّ أن يكونوا مصلحين آمرين بالمعروف ناهين عَنْ المنكر مع صلاح أنفسهم، أما الإصلاح بين الناس فكقوله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: 114].

وكذلك قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9].

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن أهم ما يكون أَيْضًا: السعي في الصُلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق بين الزوجين، والواجب أن يُصلِح بالعدل، ويسلُك كل طريقٍ تُوصِل إلى الملائمة بين المتنازعين، فإن آثار الصُلح بركةٌ وخيرٌ وصلاحٌ؛ حتى إن اللَّهَ تعالى أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إِلَى المسالمة والمصالحة أن يوافقوهم في ذلك متوكلين على الله.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر، وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها: الكلية والجزئية، المتعدية والقاصرة، والله أعلم.

التعليق:

إذا جنح الكفار إلى المسالمة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: 61] وهذا في حال ضعف المسلمين، وأما في حال القدرة والقوة؛ فإن الواجب مقاتلة الكفار حتى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] أَوْ يُسلِموا فإن أسلموا فذاك وإِلَّا بدله الجزية؛ فإن أبوا وجب علينا قتالهم إصلاحًا لهم لأن غيرهم إذا رآهم قُوتِلوا من أجل كفرهم ربما يُسلِمون فيكون في ذلك خيرٌ، ونحن إذا قاتلناهم لا نقول لهم: ادخلوا في ديننا لأَنَّهُ ديننا، ولكن نقول: ادخلوا في ديننا لأَنَّهُ ديننا ودينكم

وواجبٌ عليكم أن يكون هذا دينكم؛ لأَنَّهُ الله وأنتم عباد الله، فكان هذا الدين واجبًا علينا وعليكم، لكن أنتم خرجتم منه فنريد أن نردكم إليه؛ ولهذا قال شعيب: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 89].

فالإنسان يجب أن يُبين لهؤلاء الكفار أننا لا نقاتلهم تعصبًا لدينٍ نحن عليه في مقابل دينهم الذي هم عليه، لكننا نقاتلهم ليدخلوا في دينٍ هو لنا ولهم مفروضٌ علينا وعليهم؛ لأَنَّهُ دين الله الذي خلقهم وأمرنا بقتالهم حتى يدخلوا في دين الله أَوْ ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ والإنسان الحر لا يرضى لنفسه أن يعطي الجزية عَنْ يدٍ وَهُوَ صاغرٌ فيكون في هذا عذابٌ نفسيٌ يوجب لهم في النهاية أن يُسلموا.

الخُلاصة: **أن هَذِه القاعدة فيها إشارة إلى فائدة الصُلح، وإلى فائدة الإصلاح، وأن الإنسان عليه أن يكون صالحًا لنفسه ساعيًا في إصلاح غيره -هذا أولًا-.**

وثانيًا: عليه أن يُصلِّح بين المسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وهذا خِلاف طريق النمام -والعياذ بالله- الذي يسعى بين الناس في الإفساد والفُرقة، وربما يخلُق أشياءٌ لم يكن لها أصلٌ، ربما يأتي إلى شخصٍ ويقول: قال فيك فلان كذا وقال فلان كذا وَهُوَ لم يقل لكن ليُفرِق بينهم، وأشد من ذَلِكَ: مَا يسلكه بعض الناس الظلمة -والعياذ بالله- الذين هم في الحقيقة من أعداء الإسلام؛ أولئك الذين يوشون بين العلماء بعضهم على بعض ويأتون إلى فلان يقولون: أرأيت فلانًا مَاذَا قال؟ قال هذا الكلام المنكر وربما يقول: قال فيك كذا وكذا وَهُوَ لم يقل كل هَذِه الأمور التي هِيَ إفسادٌ وليست إصلاحًا وهؤلاء الذين يوشون بين أهل العِلم ويُوقعون بينهم العداوة والبغضاء والأخذ والرد في أمورٍ يسع المسلمين الخلاف فيها لكونها أمورًا اجتهادية مبنيةً على الاجتهاد؛ هؤلاء في الحقيقة من أعداء المسلمين، هم يظنون أَنْهُم مصلحون وهم مفسدون؛ لأن إضعاف جانب حملة الشرع هو إضعافٌ لجانب الشَرع.

فإذا أضعفنا حملة الشرع وجعلناهم خُصماء فيما بينهم فمعنى ذَلِكَ: أَنَّا أضعفنا الشرع كله وصار الناس لا يثقون بأحد، كلما أراد أحد أن يحتج بقول عالمٍ من علماء المسلمين، قالوا: لكن انظر مَاذَا قال. تكلم فيه فلانٌ، وانظر مَاذَا حدث، وانظر رد فلان عليه؛ وهذا لا شك أنه أمرٌ مُنكَّر، وأن هذا من وحي الشيطان لهؤلاء الأغرار الذين نعتبرهم صغار العقول وسفهاء الأحلام.

فالواجب على المسلمين إذا رأوا تصدعًا بينهم ولا سيما بين علمائهم أن يقوموا بالإصلاح ورد الصدع وجمع الكلمة حتى يكون الناس أمةً واحدة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92].

وأنتم أيها الشباب عليكم إذا رأيتم مثل هؤلاء المفسدين أن تحذروا الناس منهم ومن طريقهم وتُبينوا أن هؤلاء من أشد الناس ضررًا، ليس على الشخص الذي يهاجمونه فحسب ولكن على المسلمين وعلى الإسلام، أما هم فقد ضل سعيهم ويحسبون أَنْهُم يُحسنون صُنعًا -والعياذ بالله-.

فالواجب علينا: أن نُصلِّح مَا استطعنا، ومع ذلك فإنه يجب علينا أن نقول كلمة الحق ويمكن إظهار كلمة الحق بأن يقول الإنسان الحق بدون أن يتعرض للطعن في شخصٍ معين؛ فلا يلزم أن نطعن في شخصٍ، بل إذا قال الإنسان الحق وبينه بأدلته النقلية والعقلية عرف الناس فساد ضده وبقيت الأمور ليس فيها تحزبٌ وليس فيها تكتل، وليس فيها أنت مع فلان وأنا مع فلان؛ كما هو حادثٌ في بعض البلدان -نسأل الله السلامة العافية-.

قَالَ الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السادسة والأربعون: ما أمر الله به في كتابه، إما أن يُوجَّه إلى مَن لم يدخل فِيهِ؛ فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يُوجَّه لمَن دخل فيه فهذا أمره به ليصحح ما وجده منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد منه]

التعليق:

هذا القاعدة مهمة إذا وُجه الخطاب بشيءٍ إلى شخصٍ لم يتصف به؛ فهو مَا فواهم بفعله وإيجاده مثل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21] فليس كل الناس عابدين لله؛ فيكون الخطاب موجهًا حتى إلى الكفار، فيكون أمرًا بفعل هذا الشيء، أما إذا وُجِه الأَمْر إلى مَن تلبس به واتصف به فهو أمرٌ بتحقيقه وتكميل مَا نقص منه؛ كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: 136] وما أشبه ذَلِكَ.

وهذه القاعدة مهمةٌ؛ لأَنَّهُ أحيانًا يَرِّد على الإنسان كيف يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وَهُوَ يأتي بشعائر الإسلام كلها فيكون أمرًا بإتمام مَا نقص منه وإكمال مَا كان موجودًا منه.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [النساء: 47]، من القسم الأول.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [البقرة: 104]، من الثاني والثالث، فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، والنهي عما يفسدها وينقصها.

وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان أمرٌ بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومُكمِل لذلك العمل، والنهي عن كل مُفسِدٍ ومُنقصٍ لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمرٌ بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يُورَّد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، والله قد هداهم للإسلام!

جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة.

ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل، فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزًا، وهو في غاية اليُسر والوضوح.

التعليق:

المؤمن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] فقد هُديت، ولكن بقي عليك تكميل. فما أنا فاعله يحتاج إلى تكميل وتحسين وإكمال فيما نقص مني، فأنت مثلًا تصلي الصلوات لكن هل تأتي بالرواتب كلها؟ قد لا تأتي بها، تصلِي الصلوات لكن هل الصلوات كاملة؟ قد تنصرف من صلاتك ولم يُكتَّب لك منها إلَّا العُشر مثلًا. فهذه القاعدة كما قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: قاعدةٌ مهمةٌ جدًّا يزول بها إشكالٌ كثير، ويستحضر الإنسان بها كيف يدعو الله جَلَ وعَلَا إذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

(الشرح)

هذا إشكالٌ معروف، وقد أجاب عَنْهُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بجوابٍ نفيس؛ هذا مُلخصه: وَهُوَ أن الإنسان يُهدى هداية التوفيق والإلهام.

➢ وهداية التوفيق والإلهام تنقسم إلى قسمين:
1-هداية إجمالية.
2-وهداية تفصيل.

الهداية كما تعلمون هداية دلالةٍ وإرشاد، وهذه الهداية هداية الدلالة والإرشاد تحصل للناس عمومًا، ثم منهم مَن الله عَزَّ وَجَلَّ ويهديه هداية توفيق وإلهام، ومنهم مَن لا ينال هداية التوفيق والإلهام. مَن حصل هداية التوفيق والإلهام؟ فهداية التوفيق والإلهام هدايةٌ إجمالية وهدايةٌ تفصيلية.

نوضحها: كما أن هداية الدلالة والإرشاد هداية تفصيلية وهداية إجمالية. الآن لو أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل سببًا في شرح الإسلام لرجلٍ كافر، فشرحت لَهُ الإسلام؛ هديته هداية دلالةٍ وإرشاد، فإن هداه الله هداية توفيقٍ وإلهام فأسلم وعمِل بما علمته حصلت لَهُ هداية التوفيق والإلهام الإجمالية؛ فحصلت لَهُ هداية دلالة وإرشاد إجمالية، وهداية توفيق وإلهام إجمالية، ثم جاء فقال: أنا أسلمت؛ فأخذت تشرح لَهُ تفاصيل أحكام الإسلام؛ فالآن أنت تُبين لَهُ شَيْئًا من هداية الدلالة والإرشاد التفصيلية؛ فإن هداه الله وعمِل علمته حقق شَيْئًا من الدلالة والإرشاد التفصيلية.

فالآن نحن المسلمون معهم من الهداية مَا يصح به إسلامهم، ثم هم يتفاوتون في الهداية التفصيلية وهم فيها على منازل لا يعلمها إلَّا الا الله، والمسلم يطلب الزيادة من هَذِه الهداية فيقول في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] فلا إشكال في هذا.

فلا يقول القائل: هو مُهتدٍ فلماذا يطلب الهداية؟ هو يطلب الزيادة من هداية الدلالة والإرشاد التفصيلية، والزيادة من هداية التوفيق والإلهام التفصيلية؛ هذا توضيح لما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وابن رجب في **"جامع العلوم والحِكَم"** وَهُوَ هذا الذي يُفيده كلام هنا. مَاذَا قال؟ **(وإما أن يُوجَه لِمَنْ دخل فيه فهذا أمره به ليُصحح مَا وُجِد منه ويسعى في تكميل مَا لم يُوجد)** فما هُديت إليه وفعلته فأنت تُطالَب بأن تصححه وتأتي به على أحسن صورة، وما لم تُحصله فأنت مطالبٌ بتحصيله من الهداية التفصيلية.

هَذِه القاعدة الآن التي سيذكرها قاعدة نفيسة جدًا، وتطبيقاتها تُظهِّر لك إحكام الله عَزَّ وَجَلَّ، تُظهِّر لك وجهًا من وجوه الإحكام. لاحظوا القاعدة!

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السابعة والأربعون: السياق الخاص يراد به العام إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحُكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام]

(الشرح)

إن كان السياق في أمرٍ خاص وأراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحكم على هذا الأَمْر الخاص فلا يذكر الحُكم خاصًا، وإنما يذكر حُكمًا عامًا يشمل هذا الخاص وغيره، وهذا تجده في آياتٍ في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، والشيخ سيُمثِل وأنا سأذكر شَيْئًا من تفسيره؛ فهذه القاعدة من القواعد التي نص عليها الشيخ في تفسيره.

بإذن الله ستكون هناك محاضرة بعد رمضان في هذا الموضع "القواعد التي ذكرها السعدي في تيسير الكريم الرحمن ولم يذكرها في القواعد الحِسان" أذكرها وأذكر تمثيل الشَّيْخ؛ حتى تجمعوا بين القواعد التي ذكرها في تفسيره، والقواعد التي ذكرها في الكتاب بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:
وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليلٍ على إحكامه وانتظامه العجيب.
وأمثلة هذه القاعدة كثيرة:
منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، واستثنى منهم التائبين، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 146]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يُظَن اختصاص الحُكم بهم.
ولما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: 150]، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 151] لم يقل: وأعتدنا لهم.

(الشرح)

(﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾) فما قال: وأعتدنا لهم، وإنما قال: **(﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾)** ليشملهم ويشمل غيرهم.

(المتن)

للحكمة التي ذكرناها، ومثله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 64]، أي: هذه الحالة التي وقع السياق مِنْ أجلها ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64].

التعليق:

وهذه أيضًا تقع كثيرًا في مقام الإظهار في موضع الإضمار.

(الشرح)

هذا من "علوم الْقُرْآنِ" وذكرنا لكم هذا الكلام من علوم القرآن التي يذكرها أهل العِلم: الإظهارُ في مقام الإضمار.

(المتن)

لأن الله تعالى أحيانًا يُظهِّر في موضع الضمير ليُفيد الحُكم بالعموم؛ فالآيات التي ذكر المؤلف واضحة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: إلَّا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين.
قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لو قال: وسوف يؤتيهم؛ لتوهم واهِمٌ أن هذا الأجر العظيم لهؤلاء فقط، ولكنه قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأظهر في موضع الإضمار. وفائدته: أن الحُكم عامٌ لهم ولغيرهم.

(الشرح)

قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لو قال: وسوف يؤتيهم؛ يعني: لو أنه عبر عنهم بالضمير لكان مُوهِمًا الخصوصية، فدفع هذا التوهُم فقال: **﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** فأظهر في موضع الإضمار.

(المتن)

وهناك فائدة أخرى: أن هذا الأجر ثبت من أجل الإيمان؛ فكل مؤمنٍ وإن لم يسبق لَهُ نفاق فإن الله تعالى يؤتيه أجرًا عظيمًا، والمهم أن هَذِه القاعدة كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: قاعدةٌ مهمةٌ جدًّا؛ وَهِيَ: أن الله تعالى يحكم بحكمٍ عام يشمل ما سيق من أجله وما لم يُذكَر، وهذا مِنْ بدائع القرآن وجمعه، وأَنَّهُ من جوامِع الكلِم.

(الشرح)

أذكر مثالًا ممَا قاله في التفسير:

قال: **"وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصةٍ معينة أو على شيءٍ معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحُكمٍ لا يختص به ذكر الحُكم وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سِيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهامُ باختصاص الحُكم بذلك المعين".**

☜ **لماذا ذكر هَذِه القاعدة؟** ذكرها عندما فسر آيةً جاء فيها هذا الذي ذكره في القاعدة. لاحظوا!

﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: 25] حيث كادوا هَذِه المكيدة وزعموا: أَنَّهُم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقووا، وبقوا في رِقهم وتحت عبوديتهم فما كيدهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ حيث لم يتم لهم مَا قصدوا بل أصابهم ضد مَا قصدوا أهلكهم الله وأبادهم عَنْ آخرهم.

قال هنا: فلهذا لم يقل: وما كيدهم إلَّا في ضلال. لاحظوا! ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ مَا قال: وما كيدهم. فلهذا لم يقل: وما كيدهم إلَّا في ضلال، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ فأظهر في موضع الإضمار.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثامنة والأربعون: متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء]

(الشرح)

هَذِه القاعدة قاعدة مهمة تضبط لك معنى هذا اللفظ في موارده، وآيات كثيرة في القرآن جاءت على هذا المعنى الذي ذكره هنا، وأنا سأذكر شَيْئًا من التفسير.

(المتن)

قال: وذلك أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن والجليات والخفيات والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال.

وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا؛ ليعلم كذا.

فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وأما علمه بأعمال العباد وما هم عاملون قبل أن يعملوا، فذلك علمٌ لا يترتب عليه الجزاء، لأنه إنما يُجازي على ما وُجِد من الأعمال، وعلى هذا الأصل نزل ما يَرِّد عليك من الآيات كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: 94].

(الشرح)

☜ **مَاذَا قال في تفسيره؟ "ليعلم الله علمًا ظاهرًا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب".**

(المتن)

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: 143].

(الشرح)

☜ **مَاذَا قال في التفسير؟ "إلَّا لنعلم علمًا يتعلق به الثواب والعقاب، وإلَّا فهو تعالى عالمٌ بكل الأمور قبل وجودها، ولكن هذا العِلم لا يُعلِّق عليه ثوابًا ولا عقابًا"** أي: العِلم بالأشياء قبل وجودها لا يتعلق به الثواب ولا العقاب، وإنما يتعلق الثواب والعقاب بالعلم بالأشياء بعد وجودها.

(المتن)

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: 25].

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: 11].

وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12].

وما أشبه هذه الآيات كلها على هذا الأصل.

التعليق:

نحن نعلم علم اليقين أن الله بكل شيءٍ عليم في المستقبل وفي الماضي وفي الحاضر، وهذا لا إشكال فيه، ولكن ترِّد آياتٍ تُوجب إشكالًا. مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: 31] أليس الله علِم ذلك من قبل؟ بلى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: 94] أليس الله قد عَلِم ذلك من قبل؟ بلى وأمثال ذلك كثير.

وهذا يُجيب الإشكال على الإنسان؛ فأراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُبيّن الجواب فقال: إن العِلم علمان: علمٌ لا يترتب عليه الجزاء، وعلمٌ يترتب عليه الجزاء. فعلم الله تعالى بأن هذا الشيء سيكون لا يترتب عليه الجزاء. وكيف يترتب الجزاء على مَنْ لَم يؤمر ولم يُنهى؟!

وأما قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ فهذا علمه بما يكون ليُجازي عليه وهذا واضح، وأما قول بعض أهل العِلم: "إلَّا لنعلم علم ظهورٍ" فهذه العبارة على إطلاقها فيها نظر؛ لأن عِلم الله بالشيء قبل وقوعه علمه به ظاهرًا وباطنًا، لكن إذا أرادوا بعلم الظهور أن تعلُّق علم الله تعالى بهذا الشيء قبل وقوعه تعلُّقٌ بأن الشيء سيوجد، وتعلقه به بعد الوجود تعلُّقٌ بأنَّهُ وُجِد. يعني علم الله السابق على الوقوع علمٌ بأنَّهُ سيوجد، وعلم الله بعد الوقوع علمٌ بأنَّهُ وُجِد. هذا صحيح، وهذا أَيْضًا فرقٌ ثانٍ، لا بأنه لا وُجِد لأَنَّهُ لو كان علمٌ بأنَّهُ وُجِد صار على خلاف الموجود.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة التاسعة والأربعون: إذا منع الله عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم، فتح لهم بابًا أنفع لهم منه وأسهل وأولى]

وهذا من لطفه، قال تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32]، فنهاهم عن التمني الذي ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال وبلسان الحال.

ولما سأل موسى عليه السلام رؤية ربه فسمع كلامه، ومنعه اللَّه منها، سلّاه بما أعطاه من الخير العظيم: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [لأعراف: 144].

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: 130].

وفي هذا المعنى آياتٌ كثيرة.

التعليق:

وهذا أمرٌ يعرف الإنسان به لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإحسانه إلى خلقه أنه إذا منعهم من شيء فتح لهم أبوابًا خيرًا منه؛ فهنا قال: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني من العِلم والمال والجاه والرئاسة...وغير ذَلِكَ؛ فلا تتمنى أن يكون لك مَا أعطى الله

أخاك؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: ولا تتمنوا مثلمَا فضل الله. إذ إن الإنسان يجوز أن يتمنى مثل مَا فضل الله به بعض عباده يجوز أن تتمنى مثل ابن تيمية مثلًا، يقال: إن رجلًا كان يطوف بالبيت ويقول: "اللهم إني أسألك فقها كفقه شيخ الإسلام ونحوًا كنحو ابن هشام" هذا جائزٌ، لكن لو قلت: اللهم ارزقني فقه شيخ الإسلام يعني اجعله لي دونه؛ هذا لا يجوز. إذًا أقول: أسأل الله من فضله، اللهم إني أسألك أن تعطيني مثل مَا أعطيت هذا الرجل. كقولنا: "اللهم صلّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم" فهذا من ألطف القواعد كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

كَذَلِكَ أيضًا: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ ربما يندم الإنسان على نسخ الله تعالى بعض الأحكام أَوْ بعض الآيات، أَوْ يندم على تنسيته إياها؛ كما قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: 6-7] إذا ندم الإنسان نقول: لا تندم يا أخي. إن الله إذا نسخ آيةً أَوْ أنساها أتى بخيرٍ منها أو مثلها، وبدأ بالخيرية أولًا فقال: ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ والفائدة من النسخ إذا كانت الآية الناسخة مثل الأُوْلَى: اختبار العبد هل يكون قابلًا راضيا أَوْ لا؟

وانظر إلى نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة العمل واحد والاتجاه واحد. أنت لا يهمك أن تتجه إلى المشرق أَوْ إلى المغرب أَوْ إلى الشمال أَوْ إلى الجنوب، لكن الفائدة: هِيَ امتحان الناس ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: 143] فإن بعض الناس إذا رأى النسخ -والعياذ بالله- ارتد وقال: كيف يُبدَّل الشرع؟

فالحاصل إني أقول: إن الله تعالى إذا منع العبادة شَيْئًا فتح لهم أبوابًا كثيرة مثله أَوْ خيرًا منه، وعلى هذا نقول: «مَن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه»[1].

أيضًا في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كلمه اللَّه اشتاق إلى ربه أن يراه؛ لأن رؤية المتكلم ليست كسماع كلامه، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم «إذا خاطبهم النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استقبلوه بوجوههم حتى يروه»[2]؛ لو حدثك أحد بحديثٍ وراء الجدار تستمع لقوله لكن ليس كما إذا رأيته، أنت الآن تسمع في المسجل كلام الرجل بنفسك لكن ليس كحضورك عنده وَهُوَ يُلقي الكلام؛ فبينهما فرق عظيم.

فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَا سمع كلام الله اشتاق رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ. فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143] قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143] هذا مستحيل؛ لأن نقص الإنسان في الدنيا لا يُمكِنُه أن يتحمل رؤية الله تعالى، ثم ضرب الله لَهُ مثلًا فقال: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143]؛ فتجلى الله سبحانه للجبل فاندك الجبل، جبل أصم حجرٌ صلب لما تجلى الله لَهُ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: 143] وصار ترابًا.

لما رأى موسى هذا الأمر خَر صعقًا، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143] فما سألتك الرؤيا عَنْ شكٍ ولكن عَنْ شوقٍ. ثم قال الله لَهُ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: 144] ولا تطلب

(2) أخرجه أحمد في مسنده/ برقم: (21996) ولفظه: «إنك لن تدع شيئاً لله عز وجل إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه»، وصححه الألباني.

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (921)، ومسلم/ برقم: (1052).

مَا لم تؤتَ، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144] هنا عُوِض عَنْ الرؤية وسُلِيّ عَنْ الرؤية بقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: 104] يعني لا تهنوا وتضعفوا في طلب الكفار؛ لأن هذا الذي يصيبكم يصيبهم، هم مثلكم بشر لكن فارق: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104] وهذا لا شك أنه يُسلي المرء ويُوجِب له النشاط في تنفيذ الأمر.

*****

هذا والحمد لله، والصلاة والسلام عَلَى رسوله

الْمَجْلِسِ (14)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل التعليق على شرح الشَّيْخ/ محمد بن صالح المسلمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في كتاب: "القواعد الحِسان" ووصلنا إلى: القاعدة الخمسين.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الخمسون: آيات الرسول: هي التي يُبديها الباري ويبتديها]

وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات. وإنما هي تعنتاتٌ وتعجيزات، وبهذا يُعرَّف الفرق بينها وبين الآيات: وهي البراهين والأدلة على صِدق الرسول وغيره من الرسل، وعلى صِدق كل خبر أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم مَن فهمها على وجهها صِدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى الحديث: «ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مِثله آمن البشر»[1]، وأما ما آتى الله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الآيات فهي لا تُحَّد ولا تُعَّد من كثرتها وقوتها ووضوحها ـ ولله الحمد ـ فلم يبق لأحدٍ من الناس بعدها عُذرٌ.

فعُلِّم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل، وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما دعاهم إلى الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية والآية الفلانية إن كنت صادقًا، وإن لم تأت بذلك فلا نصدقك، فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى مُنصفٍ، ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم وعرفوا الحق ورفضوه؛ فهذا من جهلهم في الحال والمآل.

أما الحال: فإن هذه الآيات التي تُقترَّح وتُعيَّن جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق، فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزمًا لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا. وهذا قلبٌ للحقائق، وإخبارٌ بغير الذي في قلوبهم، فلو جاءتهم لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جدًا، كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: 90] الآيات.

التعليق:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: 90] الآيات...إلى آخره؛ فبين الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْهُم لم يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية، ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (4981)، ومسلم/ برقم: (152) ولفظه: «ما من الأنبياء نبيٌ إلا أُعطيّ ما مثله آمن عليه البشر».

رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: 96-97] وبهذا نعرف مراد المؤلف في الكتاب من أول القاعدة حيث قال: (إن آيات الرسول التي يُبديها الباري ويبتديها)، وأما مَا أبداه المكذبون واقترحوه فليست بآيةٍ مُرادة، وأن عدم وجودها لا يدل على عدم آيات الأنبياء، وإلَّا لو اقترحوا آية وجاء بها الرسول لقلنا: إنها آية، لكن مراده: أن الآيات اقترحوها إذا لم تأتِ لا تدل على أن الرسول ليس بحق، أما لو اقترحوا آيةً وجاء بها فإنها لا شك آية.

فكلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يريد به الأَمْر المخالف، فالآيات التي جاءت بها الرُسل ابتداءً واضحٌ أنها آيات، والآيات التي اقتُرِحت عليهم تخلفها لا يعني أنَّهُم غير صادقين، لكن إذا وُجِدت فهي دليلٌ على صدقهم أيضًا. فمثلًا: اقترح قوم صالحٍ على صالحٍ آيةً فجاء بالناقة، واقترحوا على النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية فأراهم انشقاقَ القمر.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: 111] إلى آخرها.

وأيضًا إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة مِنْ جنس البراهين، وإنما هي -لو فُرض الإتيان- تكون شبيهةً بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها ويصير شهادة، وإنما الإيمان النافع: هو الإيمان بالغيب.

التعليق:

هذا وجهٌ مهمٌ جدًّا. لو جاءت الآيات التي اقترحوها صار إيمانهم ليس إيمانًا بالغيب، بل هو إيمانٌ بالمشاهدة والواقع حينئذٍ لا ينفعهم؛ ولهذا: فالغالب أنه إذا أتت الرسل المقترَّحة ولم يؤمن المقترِحون؛ الغالب أنَّهُم يهلكون، وأن العذاب يكون مقارنًا لها. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59].

فالحاصل: أن الآيات المقترَّحة إذا جاءت موافقةً لطِبق مَا اقترحوه صار هذا الإيمان بالرسول إيمانًا بالمشاهدة؛ لأن هذا مثل الأمارة التي يجعلها الإنسان لشخصٍ. كأن أقول: إذا وجدت السيارة عند الباب فأنا في البيت، فإذا جاء ووجد السيارة عند الباب عَلِمَ أني في البيت. هذا إيمان مشاهدةٍ لا غيب.

(الشرح)

نحن قلنا: بأننا سنقرأ ثلاثين صفحة في كل مجلس حتى نختم الكتاب، وهذا يقتضي ألَّا نُعلِّق على ما نقرأ، وأحسبُ أن هذا الذي ذكره الشيخ واضح، وكذا الذي ذكره المؤلِف.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فكما أن اللَّه المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم، وحقوقهم وأنه لا حكم إلا حُكمه، وأنه مَن قال: ينبغي أو يجب أن يكون الحُكم كذا وكذا، فهو متجرئٌ على الله، متوثِبٌ على حُرمات الله وأحكامه، فكذلك براهينُ أحكامه لا يتولاها إلا هو، فمَن اقترح شيئًا عنده فقد ادعى مشاركة الله في حُكمه، ومنازعته في الطُرق التي يهدي ويُرشِد بها عباده: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 93].

التعليق:

هذا أيضًا مهمٌ جدًّا: أن الإنسان إذا اقترح سبيلًا غير سبيل الله أَوْ حُكمًا غير حكم الله أَوْ مَا أشبه ذَلِكَ؛ فإنه مُنازِعٌ لله تعالى في حُكمه وفي طريق هدايته لخلقه. لو قال مثلًا: ينبغي أن يُوزَّع الصوم على كل شهر ثلاثة أيام ويكون ستةً وثلاثين يومًا بعد أن كان ثلاثين يومًا ولو كان هكذا لكان أيسر على الناس وأسهل وأكثر. نقول: إذا قلت ذلك فقد نازعت الله تعالى في شرعه وظلمت نفسك فإن الله تعالى أحكم وأعلم بما يُصلِّح عباده من ذلك الذي يقترِح آيةً على الرسل ائتوا بكذا وكذا، ويقول: إن هَذِه الآيات التي بها لا تكفي في إقامة البرهان على أنكم رسُل؛ فكان ينبغي أن تأتوا بالآيات الفلانية التي اقترحناها، وهذا فيه جراءة عَلَى الله جَلَ وعَلَا.

والحاصل: أنه يجب علينا أن نؤمن بالآيات جاءت بها الرسُل سواءٌ كانت موافقةً لما اقتُرِّح عليهم أم جاءت ابتداءً لم تُقترَّح. ونقول: إن الآية حقيقةٌ هِيَ التي جاءت ابتداءً، أما مَا جاءت جوابًا لاقتراح فهي في الحقيقة كما قال الشَّيْخِ: (كالإيمان بالشهادة وليست كالإيمان بالغيب).

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الحادية والخمسون: كلّما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة]

وهذه قاعدةٌ نافعةٌ، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

ويدل على عموم ذَلِكَ؛ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، أي: أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم.

(الشرح)

معروفٌ عندكم الفرق بين دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

(المتن)

التعليق:

أفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هَذِه القاعدة: أن الدعاء سواءٌ كان أمرًا أَوْ نهيًا أَوْ ثناءً يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة. فقولك: "اللهم اغفر لي" دعاء مسألة، و "صلاتك ليغفر الله لك" دعاء عبادة، وكما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أكثر الناس يظنون أن الدعاء إنَّمَا هو دعاء المسألة) والأمر ليس كَذَلِكَ، هو شامل لدعاء المسألة ودعاء العبادة؛ لأن العابد حقيقة أمره وحاله أنه يدعو لكن بلسان الحال لأنك لو سألت أي إنسانٍ يصلي أَوْ يصوم أَوْ يزكي أَوْ يحج مَاذَا تريد؟ لقال: أريد مغفرة اللَّه؛ إذًا هو قد سأل الله بحاله وهذا وجه كون العبادة دعاءً.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]، فسمى ذلك عبادة، وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسئوله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة الذنوب بلسان الحال.

فلو سألته: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وقيامك بحق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقًا: بأن قصدي من ذلك رضى ربي ونيل ثوابه والسلامة من عقابه، ولهذا كانت هذه النية شرطًا لصحة الأعمال وكمالها.

وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: 14] أي: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يُقيَّد أحيانًا بدعاء الطلب، كقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10].

(الشرح)

إذًا الأصل: أَنَّهُ يشمل الدعاء؛ أي: ما لم يُقيَّد بدعاء الطلب.

(المتن)

وأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: 12] فيدخل فيه دعاء الطلب، فإنه لا يزال ملحًا بلسانه، سائلًا دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة فإن قلبه في هذه الحال راجيًا طامعًا، منقطعًا عن غير الله، عالمًا أنه لا يكشِف السوء إلا الله، وهذا دعاء عبادة.

وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، يدخل فيه الأمران، فكما أن مِن كمال دعاء الطلب كثرة التضرع والإلحاح، وإظهار الفقر والمسكنة، وإخفاءه ذلك وإخلاصه.

(الشرح)

(وإخفاءه) الهمزة عَلَى السطر. يقول: **(فكما أن مِن كمال دعاء الطلب كثرة)** هذا اسم: أنَّ، **(كثرة التضرع)** و **(الإلحاح)** معطوف عَلَى التضرع؛ أي: وكثرة الإلحاح، **(وإظهار الفقر)** معطوف عَلَى كثرة؛ أي: فكما أن مِنْ كمال الدعاء إظهار الفقرِ والمسكنة، **(وإخفاءه)** الهمزة عَلَى السطر.

(المتن)

فكذلك دعاء العبادة لا تتم العبادة وتكمُل إلا بالمداومة عليها، ومقارنته الخشوع والخضوع وإخفائها، وإخلاصها لله تعالى.

وكذلك قوله عن خُلاصة الرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، فإن الرغبة والرهبة وصفٌ لهم إذا طلبوا وسألوا، ووصفٌ لهم إذا تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقُرَّب.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: 117].

وقوله: ﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فكما أن مَن طلب من غير الله حاجةً لا يقدر عليها إلا الله فهو مشركٌ كافرٌ؛ فكذلك مَن عبدَ مع الله غيره فهو مشركٌ كافر.

(الشرح)

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في أكثر من قاعدة يذكر مَا يحدد لك المعنى المراد من اللفظ المُعيَّن في موارده الأخرى؛ فمر معنا لفظ: "الربوبية" وأن الربوبية: عامة، وخاصة. ومر معنا لفظ: "العِلم" وأن العِلم: إما يتعلق بشيءٍ موجود، أوْ بشيءٍ سيوجد. ومر معنا الآن لفظ: "الدعاء"؛ فهذا الكتاب إذًا يشتمل على قواعد، ومن القواعد: قواعد تعتني ببيان معنى لفظٍ معين في موارده في الْقُرْآنِ.

(المتن)

التعليق:

مَنْ طلب من غير الله حاجةً يقدر عليها المطلوب؛ فإن ذلك ليس بشركٍ. فلو قلت لرجل: أعني على حمل متاعي على سيارتي لم يكن هذا شرك، لكن لو قلت لرجل: ارزقني ولدًا ذكرًا؛ صار ذلك شركًا، ووجهه واضح لأَنَّهُ سأل غير الله مَا لا يقدر عليه إلَّا الله فهو مثل مَن عبد غير اللَّه؛ لأن العبادة لا تصلُح إلَّا لله، والدعاء بما لا يقدر عليه إلَّا الله لا يصلُح إلَّا

لله عَزَّ وَجَلَّ. إذًا مَن طلب من مخلوقٍ مَا لا يقدر عليه إلَّا الله فهو مشركٌ كافر، كما أن مَن عبد غير الله فهو مُشركٌ كافر، ومَن طلب من مخلوقٍ أمرًا يقدر عليه فهو غير مشرك، ولكنه من باب الجائز وليس من باب الكمال؛ فالكمال: ألَّا تسأل مخلوقًا شَيْئًا، وكان مِنْ جملة مَا بايع عليه النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه: «ألَّا يسألوا الناس شَيْئًا فكان الرجل يسقط عصاه من بعيره فينزل هو بنفسه ويأخذ العصا ويركب»(1).

وأما الجهل فإن كان الإنسان جاهلًا جهلًا لا تفريط فيه فإنه معذور، والتفريط: أن يكون قد بلغه العِلم واستدل بقوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101] لأن بعض الناس يبلغه عِلمٌ من هذا الشيء المُحرَّم فيكون من جنس النعامة تدُس رأسها في الرمل لأجل أنْ لَا يراها الصياد. يقال لَهُ: يا أخي اسأل العلماء فهذا حرام. فيقول: لا مَا أنا بسائل أخشى أن أسأل فيقال: هذا حرام، ثم يتلو هَذِه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

وقد نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله، وإن كان في كلام الثاني في بعضِ المواضع مَا يدل على أنه لا يُعذَّر بالجهل في أصول الدينِ ولكن كلامه الأول أصح؛ أنه يُعذَّر، ولكن قد يكون الإنسان مفرطًا في بعض المسائل فلا يُعذَّر من هَذِه الناحية.

(الشرح)

هَذِه مسألة عظيمة، كلام الشيخ هذا مهم في معرفة قول الشيخ، فالشيخ لا يعذُّر بالجهل مطلقًا، وإنما يَعذُّر بالجهل مَنْ لَم يُفرِّط وحاول الوصول للحق ولم يستطع، وأما مَن قيل لَهُ: بأن فعلك الذي تفعله حرام ومُكفِّر ثم لم يأبه بهذا؛ فمثل هذا يَعُده الشيخ مفرطًا؛ فلا يكون الجهل لَهُ عذرًا. فاضبطوا هذا الموضع فإنه يُبَيِّن هَذِه المسألة من جهة معرفة قول الشيخ، على أنه أيضًا في مواضع صرح بهذا وأنه لا يَعذُّر المفرِّط.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومثله: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 106]، كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [لأعراف: 180]، يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

أما دعاء المسألة: فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسمٍ يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمَن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم، وحصول الرزق باسم الرزاق، وهكذا.

التعليق:

إذًا معنى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اجعلوها وسيلةً لحصول مطلوب، ووسيلة الشيء تناسبه، فعندما تسأل المغفرة تأتي باسم الغفور؛ فتقول: يا غفور، أَوْ تقول: "اللهم اغفر لي إنك أنت

---

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (1043) ولفظه: عن عوف بن مالك الأشجعي قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، تِسْعَةً، أوْ ثَمانِيَةً، أوْ سَبْعَةً، فقالَ: ألَا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، ثُمَّ قالَ: ألَا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ فَقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، ثُمَّ قالَ: ألَا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ قالَ: فَبَسَطْنا أيْدِيَنا وقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، فَعَلامَ نُبايِعُكَ؟ قالَ: علَى أنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا به شيئًا، والصَّلَواتِ الخَمْسِ، وتُطِيعُوا، (وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً)، ولا تَسْأَلُوا النَّاسَ شيئًا. فَلقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أحَدِهِمْ، فَما يَسْأَلُ أحَدًا يُناوِلُهُ إيَّاهُ».

الغفور الرَّحِيْمِ"، وعندما تسأل الرزق تقول: "اللهم يا رزاق ارزقني" أَوْ تقول: "اللهم ارزقني فإنك الرزاق ذو القوة المتين" وهكذا، ولا ينبغي أن تقول: "اللهم يا شديد العقاب اغفر لي"؛ لأن هذا غير مناسب. كيف تسأل المغفرة باسمٍ يقتضي العقوبة؟ هذا يتنافى مع الأدب.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وأما دعاء العبادة: فهو التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى، فيفهم أولًا معنى ذلك الاسم الكريم، ثم يُديم استحضاره بقلبه، ويمتلئ قلبه منه.

فالأسماء الدالة على العظمة والجلال والكبرياء تملأ القلب تعظيمًا وإجلالًا لله تعالى.

والأسماء الدالة على الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعًا في فضل الله ورجاءً لرَوْحِه ورحمته.

والأسماء الدالة على الود والحب والكمال تملأ القلب محبةً وودًا وتألهًا وإنابة لله، والأسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خِبره.

(الشرح)

أو خُبره، وليس المراد الخبر، المراد مصدر: خَبَرَ؛ خَبَر الشيء؛ أي: علمه، فمصدره: خبَرَه خِبرًا. هذا مصدر، وخُبرًا أيْضًا مصدر.

(المتن)

على سعة علمه ولطيف خِبره تُوجِب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصفٍ يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يُمرِن نفسه عليها حتى تنجذب دواعيه منقادةً راغبةً، وبهذه الأعمال القلبية تكمُّل الأعمال البدنية.

فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الجوادين.

التعليق:

خُلاصة هَذِهِ القاعدة: **أن الدعاء الموجود في القرآن يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة مَا لم يُقيَّد بدعاء المسألة فيكون للمسألة مثل قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10] المراد به دعاء المسألة، وإلَّا فالأصل أنه يشمل هذا وهذا، وقد بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كيفية دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنى أنه يدعوه بها في المسألة وفي دعاء العباد، وكلاهما لَا بُدَّ منه، ومَن لم يعبد الله فإنه ليس بمسلم، ومَن عبد الله ودعا غيره فليس بمسلم.**

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثانية والخمسون: إذا وضح الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محل]

وهذه قاعدة شرعيةٌ عقليةٌ فطريةٌ، قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة.

(الشرح)

الْقُرْآنِ مشتمِلٌ عَلَى أدلةٍ عقلية، وبَيَّن شيخ الإسلام: أَن أدلة الْقُرْآنِ العقلية هي عقليةٌ وخبرية، خبرية مِنْ جهة وجودها في القرآن، وعقلية مِنْ جهة كونها يُعرَّف بها العقل، والسعدي رَحِمَهُ اللَّهُ مَنْ قرأ تفسيره بتدبرٍ يجده حريصًا عَلَى بيان أدلة الْقُرْآنِ العقلية، ففي مواضع كثيرة يُبَيّن أن الْقُرْآنِ جاء بأعلى أنواع الأدلة العقلية وبأخصرِها.

وهذا هنا يقول: **(وهذه قاعدة شرعيةٌ عقليةٌ فطريةٌ)** ويُبين أنها من القواعد التي جاءت فِيهِ.

(المتن)

وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات إذا كان الشيء فيه اشتباهٌ أو احتمالات؛ فتَرِّد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح.

فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنىً واضحًا، وقد تعينت المصلحة؛ فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارِضُ هنا لا يُلتفَت لاعتراضاته، لأنه يُشبِه المُكابِر المُنكِر للمحسوسات.

قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256] يعني: وإذا تبين هذا من هذا لم يبقَ للإكراه محل؛ لأن الإكراه إنما يكون على أمرٍ فيه مصلحة خفية، فأما أمرٌ قد اتضح أن مصالح الدارين مربوطةٌ به ومتعلقةٌ به. فأي داعٍ للإكراه؟ وأي مُوجِب له؟

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، أيْ هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقِّيَّته ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

التعليق:

إذًا فقوله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ خبرٌ على بابه، وليس نهيًا، ليس المعنى: لا تُكرِهوا على الدين، بل المعنى: أَنَهُ لا محل للإكراه في الدين؛ لأَنَّهُ ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وإذا تبين فإن الإنسان لا يُكرَّه؛ لأن كل عاقلٍ تبين لَهُ الرُشد من الغي؛ فإنه سيتبع الرُشد لا يُكرَّه عليه؛ هذا هو المعنى الذي يتبادر من الآية الكريمة كما شرحه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وإن كان بعض العلماء يقول: إن قوله: ﴿لا إِكْرَاهَ﴾ أي: لا تُكرِهوا أحدًا على الدين؛ لأَنَهُ لا يُكره أحدٌ على دين اللَّه؛ فإما أن يدين لله عَزَّ وَجَلَّ، وإما أن يدين للطاغوت ويؤدي الجزية، لكن الآية كغيرها من الآيات لا يُحمَّل الخبر على النهي إلَّا بدليل، وإلَّا فإن الأصل أن يبقى الكلام على ظاهره النفي للنفي والنهي للنهي، فإذا كان الأمر واضحًا فلا ينبغي أن يُحرِّف الكلام عَنْ ظاهره، وليس المعنيان متلازمين. إذا قلنا: إنها للنهي؛ صار معناها: أننا لا نُكرِّه أحدًا على الدين ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، أما إذا كانت خبرًا فإنه مسكوتٌ عَنْ الإكراه على الدين ويُعرَّف من أدلةٍ أخرى.

(الشرح)

الخبر يَرِّد في النصوص الشرعية ويُراد منه الأَمْر، والنهي والنفي يَرِّد ويُراد منه النهي، أيضًا خبر بالنفي يُراد منه النفي. يعني مثلًا قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] هذا خبر أم إنشاء؟ خبر بمعنى الأمر. لماذا جاء؟ يعني السؤال: متى نجعل الخبر بمعنى الأمر؟ مَا ضابطها؟ هل هذا أمر يرجع إلى نظر كل أحدٍ دون أن يكون لَهُ ضابطٌ يُضبَّط به؟ متى نقول: هَذِه آيةٌ خبرية ولكن المراد منها الأمر؟ وهذا حديثٌ خبري ولكن المراد منه النهي؟

هناك ضابط: الخبر القرآني الأصل أن يكون مدلوله مطابقًا للواقع؛ فإذا وجدنا أن مدلول الخبر غير مُطابِقٍ للواقع عرفنا أنه خبرٌ على غير وجهه، وإنما المراد به الإنشاء.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ هل كل مطلقة الواقع تتربص؟ لا. إذًا هل يكون كلام الله مخالفًا للحق والصدق؟ أبدًا. إذًا نعرف أن هَذِه الآية وإن كانت خبريةً من جهة الأسلوب فإن المراد منها ماذا؟ الأمر.

النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يبيع بعضكم على بيع بعض»[1] هذا خبر، إن كان خبرًا على بابه لكان مخالفًا للواقع؛ لأننا نجد الناس يبيع بعضهم على بيع الأَرْض. فنقول ماذا؟ هذا خبرٌ يُراد به النهي، وقد جاء اللفظ أيضًا بالنهي: «لا يبِع بعضكم عَلَى بيع بعض»[2].

هذا ضابط مهم جدًّا؛ به نفهم النصوص التي وردت بالأسلوب الخبري، إلا أن المراد منها النهي أوْ الأَمْر.

الداعي لهذا قول الشيخ: (وإِلَّا فإن الأصل أن يبقى الكلام على ظاهره النفي للنفي والنهي للنهي) قال: "لا يُحمَّل الخبر عَلَى النهي إلا بدليل" هذا هو الدليل؛ إن كان الخبر قد امتُثِل بالواقع ولا يُتصور إلا أن يكون ممتثَلًا فهو خبر، وإلا فهو خبرٌ بمعنى: الأمر.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمهُ اللَّهُ تَعَالَى:

كقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42].

وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، أيْ: في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويُطلَّب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعينت مصلحته، وظهر وجوبه فقال فيه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف، في قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [لأنفال: 6]، أيْ فكل من حاول في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق عمله، فإنه غالط شرعًا وعقلًا.

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 119]، فلامَهُم على عدم التزام الأكل مما ذُكِر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم؛ وهو: أنه تعالى فصل لعباده كل ما حرم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلالٌ واضحٌ ليس للتوقف عنه محل.

التعليق:

وفي قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ دليلٌ على أن مَا سكت عَنْهُ ليس حرامًا، ودليلٌ على أن المحرمات فصلٌ مُبيّنات، فإذا كان مُبينًا ولم يذكر منه ما ذُكِر اسم الله عليه؛ فإن ما ذُكِر اسم الله عليه يكون حلالًا. وعلى هذا فنقول: الأصل فيما سكت عَنْهُ الحِل كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وما سكت عَنْهُ فهو عفو»[3].

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان، وَبَّخ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال:

﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (21) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: 21].

ولما بيَّن جلال القرآن وأنه أعلى الكلام وأصدقه وأنفعه، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6].

ولما ذكر عظيم نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم: 55]، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 13].

وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ [يونس: 32].

---

(2) أخرجه بهذا اللفظ البخاري/ برقم: (2165).

(3) أخرجه بهذا اللفظ مسلم/ برقم: (1412).

(1) أخرجه الترمذي/ برقم: (1726)، وابن ماجة/ برقم: (3367)، وأبو داود/ برقم: (3800)، وصححه الألباني والحاكم.

وكذلك في آياتٍ كثيرة يأمر بمجادلة المكذبين ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام وإزالة الشُبه كلها انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرةٌ جدًا.

التعليق:

هَذِه القاعدة تدور على أنه متى اتضح الشيء سواءٌ كان حُكمًا عمليًا أو كان خبرًا علميًا؛ فإنه لا وجه للمجادلة فيه لأَنَّهُ واضحٌ، وإنما يُجادَّل ويُتثبَت ويُسأل عَنْ الأَمْر المستشكَل الذي يحتاج إلى بيان، فأما مَا كان بينًا واضحًا فإنه لا تجوز المجادلة فيه، ويُنكَّر عَلَى مَنْ جادل ويُذَّم كما في الآيات التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عليه؛ فكل مَن جادل في دين الله فقد جادل بغير حقٍ لأن الدين واضحٌ وبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرُشد من الغي، وفرق بين الحق والباطل، وفرق بين أولياء الله وأعداء اللَّه. فلا يمكن بعد هذا أن يقع جدالٌ أَوْ إشكال.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثالثة والخمسون: من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويُبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تُنقِص الأجر شيئًا]

وهذه القاعدة تبين من لُطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة ما هو أثرٌ عظيم من آثار تعريفاته ونفحةٌ عظيمةٌ من نفحاته، وأنه أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]، فبيَّن تعالى أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها وكثرة فوائدها العامة والخاصة أنه فرضها على العباد وإن شقت عليهم وكرهتها نفوسهم لما فيها من التعرض للأخطار وتلف النفوس والأموال، ولكن هذه المشقات بالنسبة إلى ما تُفضي إليه من الكرامات ليست بشيء بل هي خير محضُ وإحسانُ صِرفٌ من الله على عباده، حيث قيض لهم هذه العبادات التي توصلهم إلى منازل لولاها لم يكونوا واصليها، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 155-156].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات؛ كان الأجر أعظم والثواب أكبر، وقال تعالى في بيان لُطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: 12] فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي جعلها الله مُسهلةً للعباد، مُزيلةً لمشقتها محصلةً لثمراتها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس: 62-64] فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أنه ييسر لهم العبادات ويهون عليهم مشقة القُربات، وأن ييسرهم للخير، ويعصمهم مِنْ الشر بأيسر عملٍ.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 5-7]
أيْ لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها.
وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97] ومن الحياة الطيبة التي يُرزقونها: ذوقُ حلاوة الطاعات، واستحلاء المشقات في رضا الله تعالى، فهذه الأحوال كلها خيرٌ للمؤمن، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حَمِدَ الله وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها، واحتسب الخير في عنائه ومشقته، ورجا عظيم الثواب، وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة، والله أعلم.

التعليق:

خُلاصة هَذِه القاعدة: أن الأجر على قدر المشقة، وقد دل عليها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة: «إن أجرُكِ على قدر نَصبُكِ»(1) نَصبُكِ: أي مشقتُكِ، وفيها أيضًا بيان المّنة على العباد بتسهيل الطاعات وأن تسهيل الطاعات من آثار رحمته.
وعجبًا لبعض الناس! أن يسلكوا بأنفسهم مسلك الصعوبة والتعسير في أمور العبادة، وهذا تبرأ منه فإن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإن قومًا في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمعوا واتفقوا على أن يصوم أحدهم ولا يُفطِر، والآخر يقوم ولا ينام، والثالث لا يتزوج النساء، والرابع لا يأكل اللحم. فخطب النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأخبرهم بأنه «يصوم ويُفطِر ويقوم وينام ويتزوج النساء وأن مَنْ رغِب عن سُنته فليس منه»(2).
فالذين يسلكون طُرق التعسير مع وجود التسهيل أخطأوا على أنفسهم، لو أن رجلًا قال: أنا لا أريد أن أركب سيارة فيها مكيف بل أركب سيارةً معي ليس فيها مكيف ولا مظلة، وأذهب إلى الحَجَّ عليها؛ هذا خطأٌ أن يذهب ويُتعِب نفسه ويترك نِعمة الله على الإنسان. نعم إذا كانت العبادة لا يمكن أن تؤدى إلَّا بمشقة هذا شيء آخر، هذا من الله وليس بإرادتك، أما أن يكون أمامك طريقان سهلٌ وصعبٌ فتذهب إلى الصعب؛ فهذا ليس من شريعة اللَّه.
يقول العامة: أول ما ظهرت السيارات إن الحَجَّ على الإبل أجره كامل وعلى السيارات نصف الأجر وعلى الطيارات ربع الأجر ويمكن يجيء شيء أسهل من الطيارات يكون على الثُمن؛ هذا غير صحيح، بل نقول: إن هذا من نعمة الله على العبد، صحيح أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عَنْ كثرة الإرفاه؛ يعني: لا ينبغي للإنسان أن ينغمس في الترفُه حتى ينسى الخشونة فكان «ينهى عَنْ كثرة الإرفاه ويأمر بالاحتفاء أحيانًا»(3) وليس دائمًا، يعني ينبغي لنا أحيانًا أن نمشي حُفاةً حتى لو أن الناس شهروا بنا وانتقدوا هذا الشيء، فنحن مَا دام الله أنعم علينا فإنه ينبغي لنا أَن نسلك بأنفسنا التيسير؛ فإذا كان لَا بُدَّ من العُسر في أداء العبادة فإن الأجر على حسبه، لو ذهبت مثلًا إلى صلاة الجماعة في ليلةٍ باردة وصار عليك

---

(2) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1787)، ومسلم/ برقم: (1211).

(3) أخرجه البخاري/ برقم: (5063) ولفظه: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فقالوا: وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! قدْ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أحَدُهُمْ: أمَّا أنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبَدًا، وقالَ آخَرُ: أنَا أصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتَزَوَّجُ أبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم، فقالَ: «أنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وكَذَا؟! أَمَا واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي».

(4) أخرجه أبو داود/ برقم: (4160)، والترمذي/ برقم: (1756)، والنسائي/ برقم: (5055)، وصححه الألباني.

مشقة نقول: لا بأس بهذا هذا لك فيه أجر، «ومن الرباط الذي يرفع الله به ويمحو به الخطايا إسباغ الوضوء على المكاره»(1) وما حصل لك من المشقة فلك فيها أجرٌ، ولو دار الأَمْر بين أن تُسخِن الماء وأن تتوضأ به باردًا؛ فالتسخين أولى.

ولهذا قال الفقهاء رحمهم الله: "يُكرَّه أن يتوضأ الإنسان بما اشتد حره أو برده وعللوا ذلك بِأَنَّهُ يمنع كمال الطهارة".

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الرابعة والخمسون: كثيرًا ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة]

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوى، من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ليعرف ربه ويقوم بحقه؛ فهذا المقصود منها، وبوجود ما خُلِقت له تكمُل ويكمُل صاحبها.

وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها، فإنها حُجة الله على عباده، ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا، فإما أن تكون نعمةً تامةً إذا اقترن بها مقصودها، أو تكون محنةً وحُجةً على صاحبها إذا استعملها في غير ما خُلِقت له. ولهذا كثيرًا ما ينفي الله تعالى هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكفار والمنافقين؛ كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37].

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179] فأخبر أن صورها موجودة، ولكن فوائدها مفقودة.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: 81].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: 150-151]، فأثبت لهم الكفر من كل وجه؛ فلم يكن دعواهم الإيمانَ بعض مَن يقولون: آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في الإيمان؛ لأن إيمانهم به مفقودةٌ فائدته حيث كذبوهم في رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيره مِنْ الرُسل الذين لم يؤمنوا بهم؛ حيث أنهم أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مِنْ الطريق التي أثبتوا به رسالة مَن زعموا الإيمان به.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، لما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيرًا من الواجبات والفروض على الإيمان. كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122].

وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (251).

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: 41]، إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: 2-4]، وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي أداء الفرائض والواجبات، ويقتضي اجتناب المحرمات؛ فما لم يحصل ذلك فهو إلَى الآن لم يتم ولم يتحقق، فإذا وُجِدت هذه الأمور تحقق، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسُله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 101].

ونظير ذلك: قول موسى عليه السلام، لما قال له بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67] فكما أن فقد العلم جهلٌ؛ ففقد العمل به جهلٌ قبيح.

التعليق:

خُلاصة هَذِه القاعدة: **أن الله تعالى قد ينفي الشيء لانتفاء ثمرة وفائدته وهذا واقعٌ في الكتاب والسُنَة. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 21].**

وقال تعالى في آيات كثيرة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وغير ذلك، وهم عندهم علمٌ وعندهم عقلٌ، ولكن لما لم ينتفعوا به صار وجوده كعدمه، وقال النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا صلاة بحضرة طعام»(1) مع أن الصلاة تُوجَب ولو بحضرة الطعام، لكنه نفاها لانتفاء فائدتها وثمرتها؛ لأَنَّهُ مَن يدافع الأخبثين أو يحضره طعامٌ يشتاق إليه فإنه سوف يصلي وقلبه مُعلَّقٌ بهذا الشيء مُنشغِّلٌ بمدافعته؛ تكون صلاته كأنها لا صلاة.

إذًا من هَذِه القاعدة نأخذ مضمونها: إن الشيء قد يُنفى لانتفاء حقيقته -وهذا هو الأصل-، وقد يُنفى لانتفاء ثمرته وفائدته -وهذا كثير-، وإن كان خلاف الأصل لكن لا يُنتفَع به فوجوده كالعدم، بل إن وجوده أضر؛ فإن مَن لا يسمع إطلاقًا خيرٌ ممَن يسمع ولا يرتفع بلا شك، فإذا قال لك قائل: كيف يقول الله لهؤلاء الأذكياء: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: 63]؟ نقول: لأنهم لم ينتفعوا بهذا العقل فصار موجودًا كأنه معدوم.

*****

هذا والحمد لله، والصلاة والسلام عَلَى رسول الله

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (560).

الْمَجْلِسِ (15)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

(المتن)

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الخامسة والخمسون: يُكتب للعبد عمله الذي باشره، ويُكمَل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله، ويُكتَّب له ما نشأ عن عمله]

التعليق:

ثلاثة أمور:

الأول: يُكتَّب للعبد عمله الذي باشره، وهذا واضح: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: 160].

والثاني: يُكمَّل لَهُ مَا شرع فيه ولم يُكمله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100].

والثالث: يُكتَّب لَهُ مَا نشأ عَنْ عمله «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلَّا من ثلاث صدقةٍ جارية أَوْ علمٌ يُنتَفَع به أَوْ ولدٌ صالح يدعو لَهُ»[1].

ويكتب لَهُ تركه وكان يعمله وَهُوَ الموضوع الرابع؛ مثل: «إذا مرض العبد أَوْ سافر كُتِب لَهُ مثلمَا كان يعمل مقيمًا صحيحًا»[2].

فهذه أربعة أمورٍ كُلها تُكتَّب للإنسان، أما مجرد النية فإنها للإنسان إذا تمنى العمل الصالح ولم يقدر عليه، يُكتَّب لَهُ أجر النية. ومن ذلك مَا أخبر به النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين قسم الناس إلى أقسام: «منهم مَن أتاه الله مالًا فيُنفقه في طاعة الله فقال الآخر الذي لم يؤتى المال لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثلمَا عمل فلان. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فهو بنيته فهما بالأجر سواء»[3] سواءٌ بالنية لا بالعمل؛ لأَنَّهُ لم يعمل وليس من عادته أن يعمله، فلو كان من عادته أن يعمله لكُتِب لَهُ مَا تركه منه لعذر.

فإن قلت: أليس قد قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن في المدينة لأقوامًا مَا سرتم مسيرًا أَوْ قطعتم واديًا إلَّا هم معكم. قالوا: يا رَسُولُ الله وهم في المدينة! قال: وهم في المدينة حبسهم العذر»[4] فهنا يقتضي أَنْهُم يشاركون في أجر العمل، أَوْ ظاهره أَنْهُم مشاركون في أجر العمل؛ فالجواب: أن يُحمَّل هذا على مَن كان من عادتهم الخروج في سبيل الله ولكن حبسهم العذر فهؤلاء يؤتون أجرهم كاملًا، أَوْ يقال: مَا سِرتم مسيرًا ولا

(2) أخرجه مسلم/ برقم: (1631).

(3) أخرجه البخاري/ برقم: (2996).

(4) أخرجه الترمذي/ برقم: (2325) وقال: حسنٌ صحيح، وصحح إسناد أيضًا ابن كثير في تفسيره.

(1) أخرجه البخاري/ برقم: (2839).

قطعتم واديًا إلَّا وهم معكم، يعني بنيتهم؛ فيكون لهم أجر النية لا أجر العمل. فصارت الأقسام خمسة:

الأول: مَن عَمِل عملًا كُتِب لَهُ أجر.

الثاني: ومَن شرع فِيهِ ولم يُكمِله كُتِب لَهُ أجر.

الثالث: وما نشأ من عمله وإن لم يكن على باله حين الفعل كُتِب لَهُ أجر.

الرابع: وما كان يفعله وتركه لعُذرٍ يُكتَّب لَهُ أجر.

الخامس: وما تمناه ولم يقدر عليه كُتِب لَهُ به أجر، ولكن أجر النية فقط لا أجر العمل.

(الشرح)

هذا التقسيم والحصر من أجمل مَا يكون حقيقةً. إذًا:

1-إِذَا عَمِل العمل كُتِّب لَهُ أجره.

2-شرع فيه ولم يُكمِله كُتِب لَهُ أجره.

3-مَا نشأ من عمله يُكتَّب لَهُ أجره.

4-مَا كان يفعله؛ أي: قد اعتاد فعله وتركه لعُذر يُكتَّب لَهُ أجره.

5-مَا تمناه ولم يكن من عادته أن يفعله ولم يقدر عليه يُكتَّب لَهُ أجر النية لا أجر العمل.

(المتن)

والدليل على أنه أجر النية فقط: أن الفقراء لما جاؤوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكون قالوا: يا رَسُولُ الله سبق أهل الدثور بالأجورِ والدرجات العُلَى. ثم ذكروا أَنَّهُم يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويُعتِقون ولا نُعتِق؛ فأخبرهم: «أن يسبحوا ويحمدوا ويكبروا ثلاثًا وثلاثين دُبر كل صلاةٍ» وأَنَّهُم بذلك يدركون مَن سبقهم، فلما سمع الأغنياء بذلك عملوا مثله. فجاء الفقر فقالوا: يا رَسُولُ الله سمع إخواننا الأغنياء بما صنعنا وعملوا مثله. فقال لهم: «ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء»[(1)] ولم يقل لَهُم: لكم أجرهم بنيتكم؛ فهذا دليل على مَا ذكرناه لأن مَن تمنى العمل وليس من عاد فعله ولا يستطيع فعله فإنه يُكتَّب لَهُ أجره بالنية.

أما حديث: «مَا رأيتُ من ناقصات عقلٍ ودين»[(2)] فيدل على نقص دينها، ولكنه نقصٌ لا تُلام عليه ويكفيها أجر الامتثال؛ كالإنسان الذي ليس عنده مالٌ فإنه يَنقُص دينه لعدم الزكاة ولا يحصل لَهُ الاجر لعدم وجود السبب. فإن قيل: هِيَ كانت تفعل الصلاة والعبادات؟ فالجواب: نعم، لكن لما وُجِد المانع طغى على السبب فزال أثره بالكُلية فليس لها أجر النية ولا العمل، مَا لها إلَّا أجر الامتثال بترك الصلاة، والفرق بينها وبين المريض الذي كان من عادته العمل: أن هَذِه -والله أعلم- لما منعها الشرع ونهاها عَنْ ذلك صارت ليس محلًا للعمل الصالح كالصوم يوم العيد فلو صامه الإنسان لا يؤجَّر عليه، ولو تمنى أن يصومه لا يؤجَّر عليه، ولو نوى أنه يصومه لولا المانع لا يؤجَّر عليه؛ هذا هو الفرق.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن.

(الشرح)

الأمور الثلاثة التي ذكرها في نص القاعدة: **(يُكتب للعبد عمله الذي باشره، ويُكمَل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله، ويُكتَّب له ما نشأ عن عمله).**

---

(2) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (843)، ومسلم/ برقم: (595).

(1) أخرجه مسلم/ برقم: (79).

(المتن)

أما الأعمال التي باشرها العبد: فأكثر من أن تُحصى النصوص الدالة عليها، كقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 105]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: 41]، ونحو ذلك.

أما الأعمال التي شرع العبد فيها ولَمَا يُكملها: فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100]، فهذا خرج للهجرة، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأخبر تعالى أنَّهُ وقع أجره عَلَى الله، فكل مَن شرع في عملٍ من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه بموتٍ أو عجزٍ بدني أو عجزٍ مالي، أو مانعٍ داخلي أو خارجي، وكان من نيته ـ لولا المانع ـ لأتمه؛ فقد وقع أجره على الله «فإنما الأعمال بالنيات»[1].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، فكل مَن اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواءٌ أكمل ذلك العمل أو حصل له عائقٌ عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ [يّس: 12]،

أيْ: باشروا عمله ﴿وَآثَارَهُمْ﴾، التي ترتبت على أعمالهم من خيرٍ وشر.

التعليق:

ويدل على هذا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن سَن في الإسلام سُنَةً حسنةً فكان لَهُ أجرُها وأجر مَن عَمِل بها، ومَن سَن في الإسلام سُنَةً سيئةً كان لَهُ وِزرُها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة»[2].

فالإنسان يُكتَّب لَهُ آثار عمله حتى وإن لم يقصدها زرع رجلٌ زرعًا أَوْ غرس غرسًا فانتفع به مَنْ لَم يخطر بباله أن ينتفع به فإنه يؤجَّر على ذلك[3] وإن كان لم يكن بباله حين غرس الغرس أَوْ زرع الزرع لكن لأَنَهُ نشأ عَنْ عمله.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وقال في المجاهدين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ﴾ [التوبة: 120] الآية؛ فكل هذه الأمور من آثار عملهم، ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: ﴿وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ [التوبة: 121] إِلَى آخر الآية.

والأعمال التي هي من آثار عمله نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصدٍ من الإنسان، كأن يعمل أعمالاً صالحةً خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله وكمن يتزوج بغير نية حصول الأولاد الصالحين فيعطيه الله أولادًا صالحين؛ فإنه ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمَن علَم علمًا نافعًا فنفس تعليمه ومباشرته له من أجلِ الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المُرتَّب على ذَلِكَ؛ فإنه من آثار عمله.

---

(2) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1)، ومسلم/ برقم: (1907).

(3) أخرجه مسلم/ برقم: (1017).

(4) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (2320)، ومسلم/ برقم: (1553) ولفظه: «ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه طير أو إنسان او بهيمة إلا كان له به صدقة».

وكمَن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوجوا لأجل حصول الذرية الصالحين، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله، وكذلك مَن يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع، فما ترتب من نفعٍ دينيٍ أو دنيويٍ على هذا العمل فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله الأخير أجرًا وعِوضًا، فإن الله يُدخِل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه وراميه والمُمِد له(1).

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السادسة والخمسون: يُرشِد القرآن المسلمين إلى قيام جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يمكن حصولها من الجميع فليشتغِل بكل مصلحةٍ من مصالحهم مَن يقوم بها، ويوفر وقته عليها لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة]

وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة الشرعية، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتُها، فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالي في الجهاد الذي هو من أعظمِ مصالح الدين والعلم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 122]، فأمر أن يقوم بالجهاد طائفةٌ كافيةٌ وبالعلم طائفةٌ أخرى، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت.

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 104].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: 2].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

إلى غير ذلك من الآيات الدالات على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفةٍ منهم بمصلحةٍ من المصالح تقوم المصالح كلها، لأن كل فردٍ مأمورٌ أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلو وُفِق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم وصلُحت أمورهم وانجابت عنهم شرورٌ كثيرةٌ، فالله المستعان.

التعليق:

وهكذا الأمة الواحدة كل طائفةٍ منها تقوم بمصلحةٍ؛ لأن قيام الجميع بوظيفةٍ ومصلحةٍ واحدةٍ متعذرٌ. إذ لو فرضنا أن الناس اتجهوا جميعًا لمصلحةٍ واحدةٍ معينة لتعطلت المصالح الأخرى وتركوهم للمصالح كُلية أيضًا فسادًا، ولذلك نقول: يعتبر المؤمنون وإن كانوا أفرادًا متعددين كأنهم جسدٌ واحدٌ، فالرجل للمشي واليد للبطش، لو أن أحدًا قال: سأجعل اليدين للمشي والرجلين للبطش والأكل والشرب طبعًا لا يمكن، كَذَلِكَ الأصابع كل إصبعٍ لَهُ وظيفةٌ خاصةٌ يقوم بها لا يمكن أن تجتمع الأصابع كلها على وظيفةٍ واحدةٍ ولا يمكن أن تتخلى عَنْ الوظائف. هكذا الجسد الإسلامي، وهكذا يجب أن يكون المسلمون كل واحدٍ يسعى في مصلحةٍ معينةٍ تليق به، فمثلًا: الرجل ضعيف الجسم قوي الفهم والذاكرة والحِفظ يكون طلب العِلم

---

(1) أخرجه أبو داود/ برقم: (2513)، والنسائي/ برقم: (28/6)، ولفظه: حدثنا سعيد بن منصور ثنا عبد الله بن المبارك حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثني أبو سلام عن خالد بن زيد عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله يقول: «إن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله وارموا واركبوا وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا ليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله. ومَن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو قال كفرها»، وصححه الحاكم وابن خزيمة.

لَهُ أفضل، والرجل القوي والجسم لكنه بطيء الفهم والحفظ تُكرَّر عليه المسألة أربعين مرة مَا يحفظها إلَّا في خمسين مرة إلَّا أنه شجاع مِقدام متمرسٌ في الجهاد فهذا أفضل لَهُ الجهاد في سبيل الله، والرجل الآخر عنده حِنكةٌ في الصناعة أَوْ في الطب أَوْ في الزراعة نقول لَهُ: اتجه لهذا؛ حتى تقوم الأمة الإسلامية بمقوماتها. فكلٌ يقوم بما يُدرِّك ويُتقِن ويختص به.

هذا الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ صحيحٌ وقاعدةٌ نافعة، وقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من القرآن أدلةً قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ وما كان يحتمل أن يكون مستحيلًا شرعًا أَوْ مستحيلا قدرًا وكونًا، وأقل الأمرين أنه مستحيلٌ شرعًا لا يمكن أن يذهبوا جميعًا للجهاد، بل بعضهم يبقى للعلم وبعضهم يذهب للجهاد.

﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وُزِع الجهاد. فلا نقول: تخرج القبيلة الفلانية للجهاد وبقية القبائل يبقون، بل نقول: من كل قبيلةٍ وفرقةٍ منهم طائفة. نأخذ من بني تميم ومن قريشٍ من كذا من كذا طائفة ليبقى طائفة يتفقهون في الدين، وإذا تفقهوا في الدين وحفظوا دين الله جاءت الفرقة المجاهدة فيُنذرون ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وعلى هذا: فالواو في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ تعود على القاعدين، والله عَزَّ وَجَلَّ قد جعل الجهاد في سبيل الله عديلًا للضرب في الأَرْض للتجارة فقال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20].

كَذَلِكَ أيضًا الآية الثانية التي ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فقال: منكم، لا كلكم، وإن كان بعض العلماء يقولون: "مِن" بيانية. أي: ولتكونوا على هذا الوصف أمةٌ تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عَنْ المنكر، لكن المعنى الأول هو الذي عليه معظم الناس وَهُوَ: أنه يجب أن تكون الأمة الإسلامية أمةً متفرغةً لهذا الشيء ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ومن المعلوم أن الدعوة إلى الخير لَا بُدَّ أن يسبقها عِلمٌ وإلَّا كانت ضررًا. إذ إن الإنسان إذا دعا بدون عِلمٍ صار ضرره أكثر من نفعه غالبًا، لَا بُدَّ من العِلم حتى يكون الإنسان داعيًا إلى الله على بصيرة.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السابعة والخمسون: في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيها على التوحيد والمطالب العالية]

قد دعا الله عباده إلى التفكر في هذه المخلوقات في آياتٍ كثيرة، وأثنى على المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آياتٍ وعِبَرًا؛ فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المُنتِج للمطلوب بأيسر ما يكون وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك على وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم يوجد بغير مُوجِدٍ، ولا أوجد نفسه ـ هذا أمرٌ بديهي ـ فتيقنا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء كامل القدرة عظيم السلطان واسع العلم، وأن إيجاد الآدميين في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57]، وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

التعليق:

كيف عرفنا أنه الحي القيوم؛ لأَنَّهُ لولا حياته لم نوجد، والقيوم: على وزن الفيعول، وَهُوَ من صيغ المبالغة، وَهُوَ القائم بنفسه القائم على غيره. ووجه ذَلِكَ: أن السماوات

والأرض دائمًا تحتاج إلى مَن يقوم عليها، ولازم هَذِه الحاجة أن يكون الله تعالى قيومًا عليها دائمًا: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والحُسن والإبداع عرفنا بذلك كمال حِكمة الله وحُسن خلقه وسِعة علمه، وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تُعَدّ ولا تُحصى؛ عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان والجود والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دالٌ على إرادة الله ونفوذ مشيئته، ونعرف مِنْ ذلك كله: أن مَنْ هذه أوصافه وهذا شأنه؛ هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأوصاف العِظام الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يُصرَّف خالص الدعاء إلا له لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقِرات إِلَى الله في جميع شئونها.

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خُلِقت لمصالحنا، وأنها مُسخرَّةٌ لنا، وأن عناصرها وموادها وأرواحها قد مكن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها، عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يُصلِّح أحوالنا منها بحسب القدرة، ولم نُخلِّد إلى الكسل والبطالة، أو نُضيف عِلم هذه الأمور واستخراجها إِلَى علومٍ باطلةٍ، بحُجة أن الكفار سبقوا إليها وفاقوا فيها، فإنها كلها ـ كما نبه اللَّه عليه ـ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأنه يُعلِّم الإنسان ما لم يعلم.

التعليق:

أما دلالة هَذِه المخلوقات على التوحيد فمن جهتين:

الأُوْلَى: أن هَذِه الأشياء كلها لا تتم إلَّا بازدواج شيئين، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49] وأن افتقار كل واحدةٍ من هَذِه المخلوقات إلى شيءٍ آخر لتقوم العناصر دليل على وحدانية مَن جعل هَذِه الأشياء مفتقرًا بعضها إلى بعض.

الثانية: أن هَذِه المخلوقات نظامها واحد لا تضطرب ولا تتناقض، ولو كان لها خالقان لكان هذا يخلق أَوْ يتصرف بمخلوقاته بشيء يُضاد تصرف الآخر، وإذا نظرنا إلى انتظام الكون علِمنا أن مدبره وخالقه واحد وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم إن المؤلف استطرد في هَذِه القاعدة إلى أنه يجب علينا أنْ لَا نُخلِّد إلى الكسل والخمول وعدم التأمل وعدم استخراج منافع الأَرْض التي قال تعالى فيها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15] ولكن -مع الأسف- إن المسلمين أخلدوا إلى الكسل وناموا وأضاعوا أوقاتهم في حرب بعضهم بعضًا وقتال بعضهم بعضًا حتى سبقتهم الأمم الكافرة؛ مع أنها تعمل هذا الشيء للدنيا فقط، ولو وُفِق المسلمون للعمل بهذه الأشياء لكانوا يعملونها للدنيا والآخرة.

فهذه القاعدة مهمةٌ عظيمةٌ وَهِيَ النظر في هَذِه المخلوقات العظيمة من حيث الدلالة على خالقها ووحدانيته وما تتضمنه من أنواع صِفَاتِه كالرحمة والعلم والحِكمة والقدرة...وما إلى ذَلِكَ.

والثاني: من جهة أنه ينبغي لنا أن نستعمل عقولنا وأفكارنا في استخراج منافعنا من هَذِه المخلوقات.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

القاعدة الثامنة والخمسون: إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة؛ أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال.

(الشرح)

هَذِه القاعدة كالقواعد السابقة تدل على تأمل عظيم سبحانه الله! يعني هو هنا يُبَيّن لك كيف يُظهِّر الله شرف أنبيائه، يُظهِّر ذلك من وجوه؛ منها: أنه يُريك نقص غيرهم، والآن سيُمثِّل بأمثلة جميلة سبحان الله! تدل على تأمل كبير.

(المتن)

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثامنة والخمسون: إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة؛ أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال. وذلك في أمورٍ كثيرةٍ وردت في الْقُرْآنِ]

منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها، فحينئذٍ نبأهم آدم عنها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله تعالى إظهار شرف يوسف في سَعة العلم والتعبير رأى المَلِكُ تلك الرؤيا، وعرضها على كل مَن لديه عِلمٌ ومعرفة فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك عَبَّرها يوسف ذلك التعبير العجيب.

(الشرح)

هم كتبوا سِعة **"بكسر السين"** أليس كذلك؟ وهذا التزموه في الكتاب كله، وهي سَعة، وأحسب أن الشَّيْخ تلفظ بها كذلك، وهم لا يلتزمون بألفاظ الشَّيْخ ولا بنطقه، وهذا مِنْ الخطأ، إذا الشَّيْخ تلفظ بكلمة عَلَى نحوٍ معين فينبغي أن نلتزم لفظه، إلَّا إن كان خطأً ظاهرًا فحينئذٍ يُصَحَح ويُشار إِلَى ذلك، والشيخ مِنْ ذلكم مثلًا في شرح **"الكافي"** الشَّيْخ دائمًا يقول: **"يَحتمِل"** ما يقول: **"يُحتمَل"**، هذا الكلام يحتمِلُ وجهين.. وما تقول: هذا الكلام يُحتمَل منه وجهان. هذا هو الصحيح أَنَّها: يَحتمِل، وليست: يُحتمَل.

ووجدت الشَّيْخ في شرح **"الكافي"** أنا أسمع شرحه يقول: **"يَحتمِل"**، المفرغ ماذا يكتب؟ يُحتمَل؛ هذه عَلَى القاعدة المعروفة، هناك قاعدة يقولون: **"خطأ مشهور أفضل مِنْ صواب مغمور"**، فبعضهم ينشأ عَلَى الخطأ ويمشي عَلَى الخطأ. وهذا سبحان الله! الخطأ مشهور وأنها: يُحتمَل وهي يَحتمِل، تقول: هذا الذنب منك يُحتمَل؛ فهذه لها موضعها، وأما: يَحتمِل؛ فهذا الكلام يَحتمِلُ وجهين.

فهنا ألاحظهم دائمًا يكتبون: **"سِعة"**، ويحرصون عَلَى وضع الكسر، وهي: **"سَعة"**.

(المتن)

الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيءٌ لا يمكن التعبير عنه.

التعليق:

رأى الملك ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: 43] ولم يذكر في السنبلات الأكل؛ لأن السُنبل لا يأكل بعضه بعضًا، بخلاف البقر فالذين يعبرون الرؤيا قالوا: لا نعرفه، قالوا: هَذِه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ [يوسف: 44] وأما يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فعبرها تعبيرًا عجيبًا فقال لهم: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47] كلها ريفٌ وخصبٌ وزرعٌ كامل، ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: 47] وإنما أرشدهم إلى إبقائه في سُنبله؛ لِأَنّ الحب إذا بقي في سُنبله لا يُسوِس.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: 48] يعني تحفظونه وتُحرزونه، وهذا يدل على أن الشيء عندهم شحيحٌ يتواصون بحفظه وتحصينه، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49] فهذه أربعة عشر عامًا، وإنما قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ لأَنَهُ فَهِم ذَلِكَ من الحصر سبعٌ وسبعٌ والعدد المحصور لَهُ مُنتهى؛ فصار الأَمْر كما ذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه، فجمع كل سَحارٍ عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقى السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر فـ ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [لأعراف: 116]، فحينئذٍ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وصار أهل الصنعة أول مَن خضع لها ظاهرًا وباطنًا.

ولما نكص أهل الأرض عن نُصرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتمالأ عليه جميع أعداءه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به؛ نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حَرْدُه، القوي مكره، الذي جمع كل كيده ليُوقع به أشد الأخذات وأعظم النكايات، وتَخلُّصُه وانفراج الأمر له من أعظم أنواع النصر.

كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: 40] الآية.

وقريبٌ من هذا نصره له يوم حُنين، حيث أعجبت المسلمين كثرتهم، فلم تُغنِ عنهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، وثبت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحالة الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يُعبَّر عنه، وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي على النفوس البأس، أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقعٌ في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: 49]، فيحصل من آثار نعمة الله والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمدًا وشكرًا وثناء على الباري تعالى.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها، كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 46].

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: 71-73].

وتلمح على هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا على يوسف، وقالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: 88] الآية، ثم بعد قليل قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: 99]، في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعِز المتين، والجاه العريض فتبارك مَن لا يُدرِّك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يُذكِر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من النِعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنِعم خفت عليها

المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكّر الله المؤمنين حين أُصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين ببدرٍ، فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: 165]، وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أُحد ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

ويُبشّر الله عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب، ليكون هذا الرجاء مُخففًا لما نزل من البلاء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15].

وكذلك رؤيا يوسف إذا ذكرها يعقوبُ رجا الفرج وهب على قلبه نسيم الرجاء، ولهذا قال: ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: 87].

وكذلك قوله تعالى لأم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

وأعظم من ذلك كله: أن وعد الله لرُسُله بالنصر وتمام الأمر هون عليهم المشقات وسهل عليهم الكرِهات؛ فتلقوها بقلوبٍ مطمئنة وصدورٍ منشرحة، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

[القاعدة التاسعة والخمسون: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: 9]]

ما أعظمَ هذه القاعدةَ والأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصًا صريحًا وعَمم ذَلِكَ ولم يُقيده بحالةٍ مِنْ الأحوال، فكل حالٍ هي أقوم في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية فإن القرآن يهدي إليها ويُرشِد إليها، ويأمر بها ويحُث عليها.

ومعنى: ﴿أَقْوَمُ﴾؛ أيْ: أكمل وأصلح وأعظم قيامًا وصلاحًا.

فأما العقائد: فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وغِذاؤها وكمالها؛ فإنها تملأ القلوب محبة لله وتعظيمًا له وألوهيةً وإنابةً، وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها: فإنه يدعو إلى التحلي بكل خُلقٍ جميل من الصبر والحلم والعفو وحُسن الخلق والأدب وجميع مكارم الأخلاق، ويَحُث عليها بكل طريقٍ ويُرشّد إليها بكل وسيلة. وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يُرشّد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المصالح الكُلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته والعملِ بما تقتضيه المصلحة في كل وقتٍ بما يناسب ذلك الوقت والحال؛ حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه، فلا يمكن أنه وُجِد ويوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم مِنْ غيرها وأصلح، إلا القرآن يُرشِد إليها نصًا وظاهرًا، أو دخولًا تحت قاعدةٍ من قواعده الكُلية.

وتفصيل هذا القاعدة لا يمكن استيفاؤه، وبالجملة: فالتفاصيل الواردة في القرآن وفي السُنَة مِنْ الأوامر والنواهي والإخبارات كلها تفصيلٌ لهذا الأصل المحيط.

وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يَرِّد عِلمٌ صحيح، أو معنىً نافعٌ أو طريق صلاحٍ ينافي القرآن. والله تعالى ولي الإحسان.

التعليق:

بهذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] يتبين لنا أن جميع القوانين المعارضة للقرآن كلها لا خير فيها، وأنه إن قُدِّر فيها خيرٌ فمَا في القرآن خير وأشد وأثبت، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33].
﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 66] الآيات.
والحاصل: أن كل ما كان أقوم في العقائد والأعمال والأقوال والأخلاق والسياسات والمعاملات والمتروكات والمنهيات فإن القرآن يهدي إليه، ونأخذ من هذا قواعد عظيمة؛ منها: إذا تعارضت مصلحتان إحداهما أنفع أخذنا بالأنفع، ومنها: إذا تعارضت مفسدتان إحداهما أشد أخذنا بالأخف. وعلى هذا فقِس؛ فكل مَا كان أقوم كان القرآن يهدي إليه، والعكسُ بالعكسِ فكل مَا كان أعوج واردأ وأسوأ فإن القرآن لا يهدي إليه بل يهدي إلى ضده وعكسه.
قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:
[القاعدة الستون: مِنْ قواعد التعليم الذي أرشد الله إليه في كتابه]
أن القصص المبسوطة يُجملُها في كلماتٍ يسيرة ثم يَبسُطها، والأمور المهمة ينتقل في تقريرها نفيًا وإثباتًا مِن درجةٍ أعلى أو أنزل منها.
وهذه قاعدةٌ نافعةٌ، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقعٌ كبيرٌ، وتُقرَّر فيه المطالب المهمة، وذلك أنه إذا أُجملت القصة بكلامٍ كالأصل والقاعدة لها، ثم وقع التفصيل بعد ذلك الإجمال، وقع إيضاحٌ وبيانٌ تامٌ كاملٌ لا يقع ما يقاربه لو فُصِلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال.
وقد وقع هذا في القرآن في مَواضع:
منها: في قصة يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7]، ثم ساق القصة بعدها.
وكذلك في قصة أهل الكهف لما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9] الآيات؛ فهذه إجمالُها قد حوى مقصودها وزُبدتها، ثم وقع بعده التفصيل بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: 13] إلى آخر القصة.
وكذلك في قصة موسى لما قال تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: 3]، إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 6] هذا مُجملها، ثم وقع التفصيل.
وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115]؛ فأجملها ثم وقع بعده التفصيل.
وأما التنقل في التقرير الأشياء من أمرٍ إلى ما هو أولى منه فكثير؛ منها: لما أنكر عَلَى مَنْ اتخذ مع اللَّه إلهًا آخر وزعم أن اللَّه تعالى اتخذ ولدًا، قال في إبطالها: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: 5]، فأبان أن قولهم هذا قولٌ بلا علم، ومن المعلوم: أنه القول بلا علمٍ من الطُرق الباطلة. ثم ذكر قُبحه فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: 5]، ثم ذكر له مرتبة هذا القول من البطلان فقال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 5]، وقال في حق المنكرين للبعث: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: 66]، أيْ علمهم فيها علمٌ ضعيف لا يُعتمَّد عليه ثم ذكر ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ [النمل: 66] ومن المعلوم أَن الشك ليس معه مِن العِلم شيء.
ثم انتقل منه إِلَى قوله: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: 66] والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في تقرير رسالته عند مَن كذبه وزعم أنه في ضلالٍ مبين: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: 61]، فلما نفى الضلالة من كل وجهٍ أثبت الهُدى الكامل مِنْ كل وجهٍ، فقال: ﴿لَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 61]، ثم انتقل إلى ما هو أعلى مِنْ ذلك، وأن مادة هذا الهُدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه ومادته، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 61].

وكذلك هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال في تقرير رسالة أكمل الرُسل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: 1-2]، فنفى عنه ما يُنافي الهُدى من كل وجهٍ، ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4] إِلَى آخر الآيات.

وهو في القرآن كثيرٌ جدًا؛ كانتقاله من ذِكر هبة الولد لزكريا إِلَى مريم، وكذلك أمر القبلة بعد تعظيمه للبيت، وغيرها.

التعليق:

هذه القاعدة تتضمن أمرين: الأمر الأول الإجمال ثم التفصيل، وهذا من طرق البلاغة؛ لأن الإجمال أقرب إلى الحفظ وأوعى للذهن، ثم إن الإجمال إذا وقع بقيت النفس متشوقة إلى التفصيل فيرد عليها التفصيل وهي أحوج ما تكون إلى معرفته، فإذا ورد العلم على القلب وهو محتاج إلى معرفته مشتاق إليها رسخ فيه أكثر وثبت فيه وتمكن، هذا من فوائد التفصيل بعد الإجمال، وإلا فلو قال قائل: لماذا لم يذكر الشيء المفصل من أول الأمر؟ نقول: لو فعلنا ذلك لفاتنا هذان الأمران؛ وهما: أن التفصيل بعد الإجمال أثبتُ في القلب؛ لأنه يَرِدُ على القلب وهو متشوفٌ له، ولأن الاختصار والإجمال أوعى للذهن وأقرب للحفظ.

وأما الانتقال من حالٍ إلى أخرى فهذا أيضًا ظاهر؛ لئلا المعاني لا تَرِد المعاني على القلوب دُفعةً واحدة، وإنما تَرِد إليها منتقلةً مرحلةً مرحلة، ومن هذا أيضا الأحكام؛ لأن الأشياء التي لا يستطيع الناس أن يأتوها دُفعةً واحدة، يجعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُرتبةً شيئًا فشيئًا. فمن المأمورات الصلاة والصيام والزكاة كلها لها مراتب؛ ففي الصلاة كان في الأول يصلونها بكرةً وعشيًا، ثم صارت خمس صلوات، وفي الزكاة كانوا يُؤمَرون بأن يؤتوا المال حقه: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] بدون تقديرٍ ثم قُدرت، وفي الصيام كان الأول مَن شاء صام ومَن شاء افتدى ثم تعين الصيام، وفي المنهيات نجد أن الله جَلَّ وعَلَا في الأمور التي يصعُب الامتناع عنها مرةً واحدة يجعلها مُرتَبة مثل الخمر والميسر، فإن الناس كانوا قد عاشوا عليهما فيصعُب أو يشُق عليهم أن يدعوها مرةً واحدة فجعل الأمر مُرتبًا ينتقلون من حالٍ إلى حال ليسهُل عليهم التنفيذ والفعل أو الترك(1).

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الحادية والستون: معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه، حيث يترتب عليه حُكمٌ عام أو حُكم خاص]

وذلك أن الله رتب كثيرًا من الأحكام العامة والخاصة على مُددٍ وأزمنةٍ تتوقف الأحكام عملًا وتنفيذًا على ضبط تلك المدة وإحصائها.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189].

---

(1) يوضح ذلك ما جاء في البخاري/ برقم: (4993) ولفظه: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «لو نزل أو شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندعُ الخمر أبدًا».

وقوله: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة، وخص الحج بالذِكر لكثرة مل يترتب عليه من الأوقات الخاصة والعامة. وكذلك مواقيت للعِدد والديون والإجارات وغيرها، وقال تعالى لما ذكر العِدة: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: 1].

وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12]. وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المُدة مصلحةٌ في الدين والدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويُقارِب هذا قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259] إِلَى آخر الآيات.

وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: 12]، ونحوها من الآيات.

التعليق:

في ضبط الأمور والأوقاتِ مصلحةٌ عظيمةٌ أيضًا سوى مَا ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وَهِيَ: أن الإنسان لا ينفرط عليه وقته لأن الإنسان إذا أطلق نفسه وأهملها انفرط عليه الوقت، لكن إذا رتب وقته حفظ وقته وضبطه ولم يضِع عليه منه شيء. فمثلًا لو قال: إذا صليت الفجر رتبتُ نفسي ففعلت كذا وكذا وبعد طلوع الشمس أفعل كذا وكذا، وفي اليوم الفلاني أفعل كذا وكذا، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قَلَ»[1].

وحتى لا يصير الإنسان منفرطًا في شغله فيضيع عليه الوقت، وقد بيَّن الله تعالى في القرآن إضاعة الوقت من حالِ مَن أغفل الله ذِكره عَنْ قلبه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

فالذي ينبغي لك أيها الإنسان: أن تضبط وقتك، وكل وقتٍ لَهُ عملٌ معين حتى لا تتداخل الأعمال ولا يضيع عليك الوقت بلا فائدة وذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلةً من هذا تدل على ضبط الوقت وعلى حفظه وحمايته.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثانية والستون: الصبر أكبر عونٍ على كل الأمور، والإحاطةُ بالشيء علمًا وخُبرًا هو الذي يُعين على الصبر]

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحًا وظاهرًا في أماكن كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45] أيْ: استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شئونكم بالصبر، فإن الصبر يُسهّل على العبد القيام بوظيفة الطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده، وبالصبر يَسهُل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلبًا لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات.

ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها، ولا يمكن وجوده بدونها، ومعرفة الشيء المصبور عليه، وما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من الثمرات.

فمتى عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب وزيادة الإيمان واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من

---

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1970)، ومسلم/ برقم: (782).

العقوبات المتنوعة، وعَلِم ما في أقدار الله من البركة وما لمَن قام بوظيفته فيها من الأجور؛ هان عليه الصبر على جميع ذَلِكَ.

وبهذا يُعلَّم فضل العلم، وأنه أصل العمل والفضائل كلها، ولهذا كثيرًا ما يذكر الله تعالى في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة إنما ذَلِكَ لقصور علمهم، وعدم إحاطتهم التامة بها.

وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

وقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: 17]، ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها ذنوبٌ وسوء، وإنما قَصُر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرّات وزوال المنافع.

وقال تعالى مبينًا أنه متقررٌ أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر، فقال عن الخضر لما قال له موسى وطلب منه أن يتبعه ليتعلم مما علمه الله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 67-68]، فعدم إحاطته به خُبرًا يمتنع معه الصبر، ولو تجلد ما تجلد فلابد وأن يُعالَ صبره.

(الشرح)

لعل القاعدة: **(الصبر أكبر عونٍ على كل الأمور، والإحاطةُ بالشيء عِلمًا وخُبرًا أو خِبرًا)** وجهان، وليس: خبرًا، هو الذي يُعين عَلَى الصبر.

(المتن)

وقال تعالى مبينًا عظمة القرآن وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: 39]، فأبان أن الأعداء المكذبين إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه كما هو؛ لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحُجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفِقه الذي يُطابِق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته، وقال في المعاندين الذين بان لهم عِلمه وخَبروا صِدقه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

والمقصود: أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها وما فيها مِنْ الفضائل أو الرذائل. والله أعلم.

التعليق:

هَذِه القاعدة تشتمل على أمرين:

الأَمْر الأول: أن الصبر أكبر عونٍ على الأمور؛ فإن الإنسان إذا صبر على الشيء كان ذلك عونًا لَهُ على إدراكه، ويُذكَر أن الكِسائي وَهُوَ إمام الكوفيين في النحو صار يتعلم النحو فعجز عَنْهُ، وفي يومٍ من الأيام رأى نملة تحمل قطعةً من تمرةٍ لتصعد بها الجدار فكلما صعدت بهذه التمرة ثَقُلت عليها ثم سقطت وإياها إلى الأَرْض وهكذا عدة مرات حتى صعدت بها. فقال: هَذِه النملة صابرت هذا الصبر حتى حصل لها مقصودها في غذاء الجسم. فلماذا لا أصبر حتى أنال مقصودي في تعلم النحو؟ فصار يتعلم حتى صار إمامًا في النحو.

وهكذا ينبغي لطالب العِلم أن يصبر على طلب العِلم وأنْ لَا ييأس ويقول: هذا صعبٌ عليّ، قد يصعُب عليك لأول مرة ثم يسهُل عليك، وتصير تقرأ الشيء وكأنه مشروحٌ لك من قبل.

(الشرح)

يقول الشاعر:

لأستسهلن أَوْ أُدرك المُـنى فما انقادت الآمالُ إلَّا لصابرِ

(المتن)

والصبر يحتاج إلى مَا يُعينُك عليه؛ وَهُوَ: معرفة مَا للمصبور عليه أَوْ للمصبور عَنْهُ من النتائج، فإن كان شَيْئًا مطلوبًا حصوله فاعلم مَا يترتب عليه من الثمرات والمنافع والمصالح، وإن كان مطلوبًا تركه فاعلم مَا يترتب على فعله من الشرور والسيئات؛ فهذا يُعينك على الصبر.

والأمر الثاني مما يُعينك على الصبر في إدراك المطلوبات: أن تقول لنفسك: أنتِ الآن قطعتِ شوطًا بعيدًا للوصول إلى الغاية ورجوعكِ من أثناء الطريق معناه إضاعة الوقت وخسارة مَا اكتسبتِ، بعض الناس مثلًا يحفظ "ألفية ابن مالِك" فإذا انتصف بها قال: هَذِه صعبة وبقيّ عليّ نصفها ثم تركها. فماذا حصل؟ ضيع على نفسه الفرصة، وهذا لا شك أنه سَفه.

فمما يعين على الصبر: معرفة المصبور عليه وما يترتب عليه من النتائج والعواقب.

والثاني: أنه إذا تخلى عَنْ الصبر أضاع على نفسه شَيْئًا كثيرًا اكتسبه.

أما الأَمْر الثالث مما يُعين على الصبر: أن يرجو الإنسان بصبره ثواب الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الله يقول: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

ويقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] فإذا عرف مَا في الصبر بغض النظر عَنْ المصبور عليه من الثواب والكرامة؛ فإنه يستمر على صبره ويتحمل.

والأمر الرابع مما يُعين على الصبر: أن الإنسان إذا صبر على شيء؛ صار هذا الشيء كأنه غريزةٌ في نفسه؛ حتى إنه ليتخلى إذا فقده.

وانظر نفسك أيها الطالب في أول السَنة الدراسية أول يومٍ يومين ثلاثة؛ تجد نفسك مُتعبًا، مالًا من طول الدروس، فإذا تمرنت عليها سهُل عليك وهان؛ حتى إنك تفقد الدروس عند حلول الإجازة، وهذا شيءٌ مُشاهَد، ومثل هَذِه الأمور تُعين الإنسان على الصبر والتحمل وعدم النكوص على العقبين، وأن يستمر على مَا هو عليه، وقد رُويّ عَنْ عُمَر بن الخطاب رَضيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: "من بورِك لَهُ في شيءٍ فليلزمه"(1) هَذِه كلمة عظيمة؛ فلا تكن في كل يومٍ لك رأيٌ ونظر فإن هذا يُذهِب عليك الوقت.

*****

هذا والحمد لله، والصلاة والسلام عَلَى رسول الله

---

(1) ذكره السيوطي في "تدريب الراوي"/ (167/2) وقال: ضعيف.

الْمَجْلِس (16)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ على رسوله الأمين، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

وَبَعْدُ؛

فنواصل قراءة شرح الشَّيْخ/ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لكتاب: "القواعد الحِسان المتعلقة بتفسير الْقُرْآنِ".

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الثالثة والستون: يُرشِد القرآن إلى أن العبرة بحُسن حال الإنسان وإيمانه وعمله الصالح]

وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا، أو بالرياسات: كل ذلك من طرق المنحرفين، والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلًا لهذه القاعدة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ: 37].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (89) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89].

وقد أكثر الله هذا المعنى في عدة آيات، وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين فقال عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]، ثم ذكر البرهان الذي مَن أتى به فهو المستحق للجنة فقال:

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: 73].

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]، ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حُسن حالهم، بتفوقهم في الأمور الدنيوية والرياسات، ويذمون المؤمنين ويستدلون عَلَى بطلان دينهم بنقصهم في هذه الأمور، وهذا من أكبر مواضع الفتن.

التعليق:

هنا ثلاثة أمور:

الأول: إيمان الإنسان وعمله الصالح؛ هذا هو المقياس للرجل، وقد قَالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إذا أتاكم مَن ترضون دينه وخُلقه فأنكِحوه»(1) هذا هو المقياس الأول إذا كان مؤمنًا عاملًا بالصالحات؛ هذا هو الدليل على كمال حاله وحُسن حاله.

الثاني: دعاوى مجردةٌ يدعيها الإنسان لنفسه وَهِيَ بعيدةٌ عَنْ الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه لا تدل على كمال حاله وحُسن حاله؛ لأن كل إنسانٍ يستطيع أن يدعي الكمال، ولكن إذا نظرنا إلى حاله إذا هو مُفارِقٌ للكمال لا نقبل منه، ومن هذا دعاوى أولياء الشيطان: أَنْهُم أولياء الله وأحباء الله؛ مثل مَا يدعي أولئك المخرِفون الذين يدعون الولاية لأنفسهم أَنْهُم أولياء لله؛ ليجذبوا الناس إليهم.

الثالث: إعطاء الله الإنسان المال والرئاسة والجاه والسُمعة هل تدل هَذِه على كماله؟ لا يلزم. قد يكون الأَمْر بالعكس، قد يُعطى الإنسان هَذِه الأمور ابتلاءً من الله عَزَّ وَجَلَّ وامتحانًا لَهُ فيتولى على الناس ويكون لَهُ جاهٌ عندهم ورئاسة وما أشبه ذلك، وهذا لا يدل على حُسن حاله حقيقة.

فهذه أمور ثلاثة، وميزان هَذِه الأمور هو: الإيمان والعمل الصالح؛ فكمال الإنسان هو بالإيمان والعمل الصالح فقط، أما الرئاسات وما يتعلق بها من الدعاوى الباطلة فهذه لا تدل على حُسن حاله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11] لا نقبل منهم هَذِه الدعوى، ولهذا ردها الله عليهم فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12].

أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 13] لا يقولون: لا نؤمن، ولكن يقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: 13] فيقدحون في المؤمنين، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13].

وعلى هذا: فيجب أن ننظر إلى حال الإنسان لا إلى دعواه الباطلة ولا إلى مَا أوتيّ من مالٍ وولدٍ ورئاسةٍ وجاه...وما أشبه ذَلِكَ.

(الشرح)

القاعدة: الرابعة والستون؛ من أهم القواعد التي ذُكِرت في الكتاب، وتُعين على فهم كلام الشيخ في التفسير في مواضع. فنتنبه عند قراءة هَذِهِ القاعدة أيها المكرمون!

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الرابعة والستون: الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعِجات أو الشبهات قد تَردُ على الحق والأمور اليقينية ولكن سُرعان ما تضمحل وتزول]

وهذه قاعدةٌ شريفةٌ جليلة، وقد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمَن لم يُحكِمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما أوجب الخروج عن ظاهر النص، ومَن عرف حِكمة تعالى الله في ورودها على الحق الصريح: لأسبابٍ مزعِجة تدفعها أو لشبهة قوية تُحدِثُها، ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، فزهق الباطل وثبت الحقّ، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حِكمًا بالغة، وأيادٍ سابغة.

ولنُمثِل لهذا بأمثلة.

(الشرح)

(1) أخرجه الترمذي/ برقم: (1084). وفيه انقطاع أشار إليه الترمذي، نقله عن البخاري، وقال: حسنٌ غريب.

لعلها الصحيح: في رفع حِكمًا؛ **(فكان في ذلك التقدير حِكمٌ بالغة)** وهو اسم كان المؤخر -هذا ما يظهر لي والله أعلم-.

(المتن)

فمنها: أن الرُسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيمانًا ويقينًا وتصديقًا بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوا في الرُسل، أنهم قد بلغوا ذروته العُليا، وأنهم معصومون من ضده، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يَعرِض من الأمور المزعجة - المنافية حسًا لما عُلِم يقينًا - ما يوجب لهؤلاء الكُمل أن يستبطئوا معه النصر.

(الشرح)

هذا المثال تُفهَم به القاعدة: **(الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعِجات أو الشبهات قد تَردُ على الحق والأمور اليقينية)** الأمور اليقينية: الرُسل موعودون بنصر الله، ولكن ثَم واقِعٌ فِيهِ مِنْ الأمور المحسوسة ما جعلهم يشعرون ببعُد نصر الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا الواقع الذي عاشوه، وهذه الأمور المحسوسة سُرعان ما تضمحِل، ويبقى الحق وهو: يقينهم بصِدق وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا مثال، والشيخ سيُمثِل بمثالٍ آخر، والشيخ ابن عثيمين سيناقش بعض أمثلة الشَّيْخ.

وَإِنْ لم يوافق الشَّيْخ عَلَى كل مثالٍ أدرجه تحت هذه القاعدة؛ إلا أَن هذه القاعدة قاعدةٌ صحيحة، وإن حصل نزاع في مثال، مثالين؛ إلَّا أنها قاعدة صحيحة، وتندرج تحتها أمثلةٌ من القرآن والسُنَة. عرفنا القاعدة، وفهمنا المثال.

(المتن)

ويقولون: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 214]، وقد يقع في هذه الحالة على القلوب شيءٍ من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقتٍ تنجلي هذه الحال ويصير لنصر الله وصِدق موعوده مِنْ الوقعِ والبشارة والآثار العجيبة أمرٌ كبير لا يحصل بدون هذه الحالة.

(الشرح)

فالشيخ يُبين أن إيمانهم بعد هذه الحالة يكون أكمل وأعوض. إذًا ما فائدة هذه الأمور المزعجة التي قد تُوجِب بعض ما لا يُحب المؤمن مِنْ استبطاء نصر الله وغير ذَلِكَ؟ ما فائدة ذَلِكَ: أَنَّهُ عند زواله يصير إيمان المرء أكمل.

(المتن)

ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: 110]، فهذا الوارد الذي لا قرار له، ولَمَا حقت الحقائق اضمحل وتلاشى، لا يُنكَّر ويُطلَّب للآيات تأويلاتٌ مخالفةٌ لظاهرها.

(الشرح)

هذا الكلام كلامٌ فِيهِ عمق، وقد بلغ الشَّيْخ غايةً مِنْ التأمل عظيمة؛ حتى صاغ هذا الكلام، وكلام الشَّيْخ في التفسير عند هذه الآية استغربته؛ لأني اعتدتُ مِنْ المفسر عند هذه الآية كلامًا معروفًا يُذكر، وأن الرُسل لم يقع منهم هذا الظن: **(﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾)** وفي قراءة: **"كُذْبُوا"** وبين القراءتين فرقٌ: **(﴿كُذِبُوا﴾)** أي: نُسِبوا للكذب، و **"كُذْبُوا"** أي: أُخبِروا بالكذِب. فهل الرسل ظنوا أَنَّهُم قد أُخبِروا بخبرٍ لن يتحقق مدلوله في الواقع؟ هذا لا يقول به المفسر. واضح أيها المكرمون؟!

وللآية تفسير سأقرأه الآن، فكنت وقفت على كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ يفسر الآية بأن هذا قد وقع من الرُسل أنفسهم، ولم أعرف مَا مأخذ الشيخ وما وجه هذا التفسير؟ عرفته بعد

أن قرأت هذا الكتاب، وإلَّا به يجعل هذا مثالًا تحت هَذِه القاعدة؛ وَهِيَ: أن بعض الأخبار الصادقة، بعض الأمور التي أنت تتيقنها ربما تعيش في حالةٍ مَا من الأمور التي تدل على خِلافها فتميل النفس أَوْ تتأثر النفس ثم سُرعان مَا ترجع لِما كانت تعتقد مِنْ الحق، فهو يحمل هَذِه الآية على هذا المعنى.

وأنا سأقرأ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هَذِه الآية، ثم أقرأ كلام بعض المفسرين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوعٌ من الإياس، ونوعٌ من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: 110] وهم الرسل وأتباعهم.

(الشرح)

هذا الكلام قرأته واستغربته. لا أعرف ما مأخذ الشيخ، وهنا ذكر مأخذه، والشيخ ابن عثيمين لن يوافق عَلَى هذا التفسير؛ فهذا مثال لا يوافق عليه الشَّيْخِ مع حفظ ما لقدره، والكلام كما قال المفسرين.

وأنا هنا أنقل لكم كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وقد ذكر القراءتين، وبيَّن معنى الآية.

"﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ فَقَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو وَابْن عَامر بِالتَّشْدِيدِ: كُذّبُوا"، أي: نُسِبوا للكذِب، كذبتُه؛ أي: نسبتُه للكذِب،

"والْمَعْنَى: تَيَقَّن الرُّسُل أَن قَومهمْ الْكفَّار قد كذبوهم، فيكون الظن ههنا بمعنى اليقين، وَهَذَا قَول الْحسن وَعَطَاء وَقَتَادَة"؛ إذًا معنى: **"كُذّبُوا"**، أي: قومهم نسبوهم للكذِب، سهلة جدًا وواضحة، المُشكِل في: **"كُذِبُوا"**، هذا موضع مهم وهو يتعلق بكلامنا بالأمس بعد الدرس، هذا موضع مهم نتحدث حوله بعد الدرس.

قال: **"وَقَرَأَ عَاصِم وَحَمْزَة وَالْكسَائيّ "كُذِبُوا" خَفِيفَة، والمعنى: ظن قومهم أَن الرُسل قد كُذِبُوا"**؛ إذًا مَنْ الذي ظن عَلَى قراءة التخفيف **"كُذِبُوا"**؟ إذًا هل الرُسل ظنوا أَنهم قد **"كُذِبُوا"** وأُخبِروا بخلاف الحق؟ لا، أي: أَن قومهم ظنوا أَن هؤلاء الرُسل الذين جاءوهم قد **"كُذِبُوا"**.

"ظن قومهم أَن الرُسل قد "كُذِبُوا" فيما وُعِدوا به مِنْ النصر؛ لِأَنّ الرُسل لا يظنون ذَلِكَ".

وقرأ -وهذه قراءة شاذة-: **"كَذَبُوا"**.

الآن عرفنا معنى القراءتين:

(﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾) أي: نسبهم قومهم إِلَى الكذب.

"كُذّبُوا" أي: ظن قومهم أَن الرُسل قد كُذِبُوا، قد وُعِدوا وعدًا ولم يُفعَل، لا أَن هذا وقع مِنْ الرُسل لشدة ما وجدوا في ذلكم الموضِع.

والشيخ ابن عثيمين الآن سيكون له رأي يخالف رأي شيخه في هذه.

(المتن)

التعليق:

هَذِه الآية أشكلت على العُلماء: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: 110] وفيها قراءة سبعيةٌ: "وظنوا أَنهُم قد كُذّبُوا" فعلى قراءة التشديد الأَمر فيها واضح؛ يعني: تيقنوا أَنهُم قد كُذِبُوا فأيسوا من التصديق، ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

(الشرح)

بينا المعنى على قراءة التشديد.

(المتن)

﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: 110] لكن الإشكال في قراءة: كُذِبُوا؛ ظاهر كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه ورد على قلوبهم أن وعدهم بالنصر ليس صحيحًا، ولكن يقول الشَّيْخ: إن هذا واردٌ يضمحل ويتلاشى، وإنما لقوة الواردات على القلوب ينسون صِدق الوعد فيظنون هذا الظن؛ هذا مَا ذهب إليه شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: كُذِبُوا؛ أي: قد كُذِبُوا بوعد النصر، ومعنى: "كُذِبُوا" أُخبِروا بالكذبِ كما جاء في الحَديْث: «صدقَكَ وَهُوَ كذوب»[1] وهذه لو بقيت لكانت مطعنًا في الرسل أن يظنوا أن الله وعدهم فكذبهم ولكن شيخنا يقول: إن هذا واردٌ يَرِّد على القلوب ويتلاشى بسرعة، وسبب وروده على القلب قوة الوارد التي تُوجِب مثل هذا الظن.

ويقول شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا أحسن من تأويل الآيات بوجوهٍ بعيدة، وعندي أن الأَمْر ليس كما قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا، وأن المعنى: "قَدْ كُذِبُوا" أي: كذبهم أقوامهم في قولهم: إننا مؤمنون.

(الشرح)

هذا معنى غير المعنى الذي ذكره ابن الجوزي، ابن الجوزي **"كُذِبُوا"** أي: أقوامهم ظنوا أن الرُسل قد كُذِبُوا. أي: أَنْهُم قد أُخبروا بخبرٍ وليس بصدق، الشيخ يقول: أن أقوامهم أخبروهم بأنهم مؤمنون بهم. وهم كاذبون.

(المتن)

لأنهم لو صدقوا في قولهم: إنهُم مؤمنون؛ لجاءهم النصر فيظن هؤلاء الرُسل أَنْهُم قد كُذِبُوا، ليس بخبر الله، يعني أن الله كذبهم حين أخبرهم بالنصر، ولكن قد كُذِبُوا؛ أي: كذبهم أقوامهم بقولهم: إننا مؤمنون، وأنه تخلف النصر لعدم إيمان قومهم. وحينئذٍ: ليس في الآية مُشكِل، تبقى الآية على ظاهرها بدون إشكال: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ يعني استبعدوا نصر الله ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ من أقوامهم.

(الشرح)

يعني استبعدوا النصر. لماذا؟ لأن أقوامهم لا يستحقون أن يُنصَروا.

(المتن)

قالوا: إنا مؤمنون وإنا معكم ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهذا المعنى الذي قلت لا شك أنه أحسن مما ذهب إليه شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، والواردات بلا شكٍ تَرِّد على الإنسان ويغفل وينسى الحقيقة التي هِيَ الواقع، ولهذا «لما كُسِفت الشمس خرج النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزعًا يظن أن أنها الساعة» كما جاء في الحَديْث[2].

وكيف يظن أنها الساعة؟ والساعة لها أشراط ولها علامات لم تأتِ، لكن لقوة الوارِد الذي وَرْدَ عَلَى قلبه نسيّ أن يكون للساعة أشراطٌ تتقدمها.

(الشرح)

هذا كلام نفيس، وهذه فائدة عزيزة، وهذا مثال صحيح للقاعدة.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

---

(2) أخرجه البخاري/ برقم: (3275).

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1059)، ومسلم/ برقم: (912).

ومن هذا الباب بل من صريحه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: 52]، أيْ يُلقي من الشبه ما يُعارِض اليقين. ثم ذكر الحِكم العظيمة المترتبة على الإلقاء، وأن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يُبطِّل ما يلقي الشيطان، ويُحكِم الله آياته، والله عليمٌ حكيم، فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرُسل والأنبياء، لهذه الحِكم التي ذكرها، فمَن أنكر وقوع ذلك بناءً على أن الرُسل لا ريب ولا شك معصومون، وظن أن هذا ينافي العِصمة، فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولًا يخالف فيه الواقع وخالف نص الآيات الكريمات.

(الشرح)

طبعًا هذه الآية فيها كلام سيُبينه الشَّيْخِ ابن عثيمين الآن، وسنتحدث حوله.

(المتن)

التعليق:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: 52] الآيات. هَذِهِ الآيَة تنازع الناس فيها قديمًا وحديثًا تنازعًا كبيرًا؛ فمنهم مَنْ قَالَ: إن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قرأ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: 19-20] قال حين قوله: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ "تلك الغرانيق العُلا وإن شفاعتهُن لتُرتَجى" فسمع المشركون هذا الكلام من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسجدوا مع النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر السورة؛ «فقد سجد مع النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمنون والمشركون والجن والإنس»[1].

ومنهم: مَن أنكر هذا وقال: لا يمكن للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُثني على هَذِه الأصنام ويقول: «تلك الغرانيق العُلا» وأنكروا إنكارًا عظيمًا للآثار الواردة في هذا المعنى، ولكن عند التأمل يمكن أن نقول: إن هذا الذي سُمِع من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس هو قول الرسول وإنما هو قولُ الشيطان ألقاه فسمعه الناس فظنوا أنه قول الرسول فقالوا هكذا: أثنى على أصنامنا وعلى آلهتنا، وَهُوَ في الواقع ليس كلام الرسول، ولهذا قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فلعل هذا من فعل الشيطان؛ وحينئذٍ فلا حاجة إلى أن نُبطِل هَذِه الآثار الواردة.

ومنهم مَنْ قَالَ: إن التمني في قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ هو أمنية القلب وليس القراءة، يعني أن الرسول أَوْ النَّبِيّ يتمنى ولكن الشيطان يُفسِّد عليه أمنيته ويحول بينه وبينها وهذا ضعيف.

ومنهم مَنْ قَالَ: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ أي: قرأ، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ باعتبار مَن سمعوا هَذِه القراءة فيُلقي في قلوب أناسًا شكًا وشُبهة، ويُلقي في قلوب الآخرين يقينًا وثباتًا.

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ [الحج: 52-53] الآية، فيكون هذا الإلقاء ما يُلقيه الشيطان في قلب السامع من شُبهاتٍ حول القرآن ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾.

(الشرح)

(1) أخرجه البخاري/ برقم: (4862).

هذا الثالث هو قول الشيخ مَن؟ السعدي، هذا التفسير الثالث هو قول الشيخ السعدي حيث قال: **(ثم ذكر الحِكم العظيمة المترتبة على الإلقاء، وأن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يُبطِّل ما يلقي الشيطان، ويُحكِم الله آياته، والله عليمٌ حكيم)** قال: **(أيْ يُلقي من الشُبه ما يُعارِض اليقين)** وهذا الإلقاء ليس إلقاءً على الرُسل، وإنما على من سمع كلامه -هذا مَا يظهر من كلام الشَّيْخِ-.

قال: **(﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أيْ: يُلقي من الشُبه ما يُعارِض اليقين)** جعل هذا متناوِلًا للأنبياء؛ لأنه دفع قول القائل: **(فمَن أنكر وقوع ذلك بناءً على أن الرُسل لا ريب ولا شك معصومون، وظن أن هذا ينافي العِصمة، فقد غلط أكبر غلط).**

(الشرح)

فيكون هذا الإلقاء مَا يُلقيه الشيطان في قلب السامع من شُبهاتٍ حول القرآن ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ لكن سياق الآيات يدل على أن الذي يلقيه الشيطان في أمنيته قولٌ يُسمَّع؛ فيُظَن أنه القرآن، ثم بعد ذلك ينسخ الله هذا القول ويُبين بطلانه ويُحكِم الله آياته، ومعناه هنا: أي يُنسيهم إياه؛ حتى لا يكون لَهُ أثر، ويكون هذا القول فتنةً للذين في قلوبهم مرضٌ، وأما الذين أوتوا العِلم فإِنَّهُم يعلمون أنه ليس بشيء وليس صوابًا.

(الشرح)

وقد رُويَت قصة الغرانيق بطُرقٍ ضعيفة، وبعضهم يُنكرها إنكارًا عظيمًا؛ حتى عنون بعضهم في الكتب التي ألفها "نصب المنجنيق في نسف قصة الغرانيق" هذا كتاب الألباني؛ هذا عنوانه أَوْ عنوانه قريب مِنْ هذا.

(المتن)

ونحن نقول: وليكن هذا ضعيف، لكن الشيطان يُلقي في القراءة سواءٌ الغرانيق أَوْ غيرها، والذين ضعفوه ظنوا أن هذا من قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ ليس من قول الرسول بل يُلقيه الشيطان بصوت الشيطان مقلِدًا لصوت النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى كل حال: هِيَ لا تضر سواءٌ صحت أَوْ لم تصح مَا دام أن الله ينسخ مَا يلقي الشيطان ويُحكِم آياته؛ فليس فيه إشكال.

ثم إن الآية صريحةٌ أن الشيطان هو الذي يُلقيها وليس الرسول يتلوها، مَا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ قال في أمنيته كذا وكذا، بل قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

(الشرح)

طيب أيها المكرمون! الآن سنتحدث حول قصة الغرانيق بقطع النظر عَنْ كلام الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ حولها. قصة الغرانيق ذكرها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر مفادها، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قرأ: **(﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾)** سمع كفار قريش النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "تلك الغرانيق العُلا وإن شفاعتهن لتُرتجى" فسجدوا، وهنا سمع المهاجرون من أهل الحبشة بأن كفار قريش قد أسلموا فسجدوا، هَذِه جاءت فيها آثار مُرسَلة؛ فمن أهل العِلم مَن يرى: أن هَذِه المراسيل تثبُت بها القصة لأن مُرسِليها لا يجتمعون في بلدٍ واحد بل هم في بلدان متفرقة، والمُرسَّل إذا كانت حاله كذلك فإنه يثبُت مدلوله عند جمع من أهله، ويُثبِتون هذا ويقولون: النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جرى على لسانه هذا، وهذا فتنة من الفتن الكثيرة التي يجعلها الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده فيُثبِت الله مَن أراد

هدايته ويُضِل الله مَن أراد لَهُ الضلال -هذا قول لبعض أهل العِلم-: يرون أنه لا مانع من إثبات القصة وأن يكون هذا قد جرى على النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنةً للخلق.

ومنهم مَن يقول مَا قاله الشَّيْخ هنا: وَهُوَ أن الشيطان قد تكلم بصوتٍ يُشبِه صوت النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعه المشركون فظنوه صوت النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا القول هو الذي ذكره ابن كثير في تفسيره.

أقرأ لكم كلامه. يقول ابن كثير بعد أن ذكر هَذِه القصة وذكر بعض المراسيل:

"وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات، والله أعلم.

وقد ساقها البغوي في تفسيره مجموعةً من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القُرظي وغيرهما بنحوٍ من ذلك، ثم سأل ههنا سؤالًا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسله صلوات الله وسلامه عليهم؟ ثم حكى أجوبةً عن الناس من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذَلِكَ؛ فتوهموا أنه صدر عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس كذلك في نفس الأمر؛ بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله أعلم.

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرّض القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفاء لهذا، وأجاب بما حاصله...".

وهذا بإيجاز أيها المكرمون. إذًا هناك مَن يذهب إلى أن الآثار ثابتة، وأن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم بهذا، وهناك مَن يظن: أن هذا من قول الشيطان وأَنْهُم سجدوا لما سمعوا قوله بصوتٍ يُشابِه صوت النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والله تعالى أعلم-.

(المتن)

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

ومن هذا ـ على أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالى عن يونس: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87]، وأنه ظنٌ عرضَ في الحال ثم زال، نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد على قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم، مبشرًا لهم: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»(1)، ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة واردٍ من شهوةٍ أو غضب، وأن المؤمن كامل الإيمان قد يَرِّد في قلبه همٌّ وإرادةٌ لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب، ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض.

ومن هذا: قوله تعالى عن يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 24]، وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله وخوفه ورجائه، دفع عنه هذا الهم واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يُرضي ربه؛ ولهذا بعد المعالجة الشديدة التي لا يصبر عليها إلا الخواص الخلق قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33] وكان أحد السبعة الذين يُظِلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «رجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله»(2).

(الشرح)

---

(2) أخرجه أبو داود/ برقم: (5112)، والنسائي/ برقم: (668)، وصححه الألباني وابن حبان.

(1) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (1423)، ومسلم/ برقم: (1031).

قلت لكم: تفسير الشيخ تفهمونه بفهم هَذِه القاعدة، وهذا أيضًا من المواضع التي في التفسير اتضحت عندي وعرفت مأخذ الشيخ بهذه القاعدة، والشيخ ابن عثيمين يُقرُّه على هذا التفسير.

(المتن)

التعليق:

هذا الذي ذهب إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، والصواب في هَذِه الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ لأَنَهَا امرأةٌ مدللةٌ، امرأة الملك عليها من الحُلي والثياب والجمال والبهاء مَا يُوجِب النفس بها؛ فدعته في موضعٍ لا يطلع عليهما إلَّا الله لأَنَهَا أغلقت الأبواب ولم يبقَ معه إلَّا هَذِه المرأة، دعته إلى نفسها وَهُوَ شابٌ فيه ما في الرجال: "فهَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا" أيضًا، لكن منعه أنه ﴿رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ رجع إلى نفسه ورأى مَا معه من اليقين ونور الإيمان فامتنع، وهذا لا يضر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بل لا يزيده إلَّا رُتبةً وفضلًا؛ لأَنَهُ إذا كان في هَذِه الحال التي وُجِد السبب فيها وانتفى المانع، ثم بعد ذلك تركه صار أعظم منزلةً وأعلى درجةً مما لم يكن لَهُ هَمٌ بها، فهو إذا لم يَهمَ بها لم يكترث، لكن إذا هَمَ بها ثم بعد ذلك رجع وتركها لله عَزَّ وَجَلَّ صار هذا أعظم فهذا مدحٌ وثناءٌ ليوسف.

وأما مَنْ قَالَ: لأن معناها: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: بضربها؛ فهذا من أفسد الأقوال؛ لأَنَهُ إذا كان ضربها حقًا فإن برهان ربه لا يصرفه عَنْهُ وإن كان باطلًا. فمعنى ذَلِكَ: أنها فعلت مَا لا تستحق الضرب عليه، فهذا التفسير لا شك أنه باطل، وأن المعنى مَا ذهب إليه شيخنا، وكذا شيخ الإسلام رحمهما اللَّه: أن الهَم حقيقي.

وهذا البرهان الذي رآه قال بعضهم: أنه رأى أباه يعقوب يعض يديه وأنامله يقول لَهُ: لا تفعل، وهذا أيضًا باطل؛ لأن الأب لا يُسمى برهانًا، ولكن البرهان مَا معه من الإيمان والعلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والخوف منه وهذا هو الذي منعه.

والحاصل: أن مثل هَذِه العوارِض كما قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تؤثر على الأمور الثوابت الراسخة؛ لأنها عوارض تأتي وتزول، قد يعرِض على القلب ولا سيما قلوب المؤمنين شيءٌ من الشك والجحود والكفر، ولكن كل هذا يزول مع الإيمان حتى إنه يُصوَّر للرجل إذا قام يصلي كأنما يصلي لأبيه أَوْ لأخيه أَوْ لمعلمه أَوْ مَا أشبه ذلك، ولكن هذا كله يزول بالتعوذِ بالله من الشيطان الرجيم والانتهاء عَنْهُ.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، يشمل الطائف الذي يَعرِض في أصل الإيمان والذي يَعرِض في إرادته، فإذا مسهم تذكروا ما يجب مِنْ يقين الإيمان، ومن واجباته فأبصروا، فرجع الشيطان خاسئًا وهو حسير.

ولعل من هذا: قول لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80]، وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد»(1) يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في تلك الحالة الحرجة والنظر للأسباب العادية، فقال ما قال، مع عِلمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.

التعليق:

لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80] يعني إلى قومٍ يمنعونني ويعصمونني ويعينونني، وقد قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رحم الله لوطًا

---

(2) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (3372)، ومسلم/ برقم: (151).

لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد»[1] وَهُوَ الله عَزَّ وَجَلَّ، لكنه في تلك الحال الحرجة -كما قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ- غاب عنه مَا سوى الأسباب الحسية وَهُوَ القَرابة والقوم الذين يحمونه ويمنعونه.

(الشرح)

الآن القراءة ستكون قراءة مجردة بإذن الله حتى تُنجِز.

(المتن)

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الخامسة والستون: قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يُفضي إلى مُحرَّمٍ أو ترك واجب]

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: "الوسائل لها أحكام المقاصد".

التعليق:

إذا كان المباح يُفضي إلى المحرم كان حرامًا، وإذا كان يُفضي إلى واجب كان واجبًا فتجري فيه الخمسة، ويقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذه القاعدة من قاعدة الوسائل لها أحكام المقاصد) يعني: مَا كان وسيلةً للشيء فله حُكم ذلك الشيء، فالوسيلة للواجب واجبة ومثاله الوضوء للصلاة واجب، فإذا لم يمكن الوضوء إلَّا بشراء الماء كان شراء الماء واجبًا، وما كان وسيلة لمحرَّم كان حرامًا. مثاله: لو أن شخصًا جاء يشتري وعاءً للخمر. قلنا: البيع عليه حرام.

والقاعدة الثانية: (مَا لم يتم الواجب إلَّا به فهو واجب) لكن قاعدة: (الوسائل لها أحكام المقاصد) أعم، وعلى هذا تكون هِيَ القاعدة المعتبرة.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

فمنها: قوله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: 31].

وقوله تعالى: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: 9].

وقد وردت بعض آياتٍ تدل عَلَى هذا الأصل الكبير، فالأمور المباحة هي بحسب ما يُتوسَّل بها إليه، فإن تُوسِّل بها إلى فعل واجبٍ أو مسنون كانت مأمورًا بها، وإن تُوسِّل بها إلى فعل مُحرَّمٍ أو ترك واجبٍ كانت محرمةً منهيًا عنها وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.

التعليق:

الأمثلة واضحة: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأصل في سب آلهة المشركين الإباحة، بل قد يجب، فإذا كان يؤدي إلى سب الله عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ مُنزَّهٌ عَنْ ذلك جَلَ وعَلَا، بخلاف آلهتهم كان مُحْرَّمًا، والضرب بالرجل الأصل فِيهِ الإباحة، فإذا كانت المرأة تضرب برجلها ليُعلَّم مَا تُخفي من زينتها صار حرامًا فلا يجوز للمرأة أن تُبدي شَيْئًا من حُليها؛ لأَنَّهُ قال: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾

---

(8) متفقٌ عليه، أخرجه البخاري/ برقم: (3372)، ومسلم/ برقم: (151).

مع أنها تُعلَّم ولا تُرى. فكيف إذا لبست المرأة حُليًا جذابًا في ذراعيها أَوْ في ساقيها وأخرجت ذلك للناس؟ فإنه يكون أشد تحريما.

ثالثًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ والأصل في البيع والشراء أنه حلالٌ ومباحٌ؛ فإذا كان يؤدي إلى ترك واجبٍ وَهُوَ صلاة الجمعة كان حرامًا، فعقد البيع باطلٌ لأَنَّهُ منهيٌ عَنْهُ بخصوصه بعد الأذان الثاني الذي عند مجيء الإمام لصلاة الجمعة؛ لأَنَّهُ هو المعروف والمعهود عند نزول الآية فتُحمَّل الآية عليه، وهل يَبطُل سائر العقود كالنكاح؟ يقول بعض العُلماء: إنه لا يبطُل لأَنَّهُ ليس بيعًا واللهِ جَلَ وعَلَا إنَّمَا نهى عَنْ البيع، ولكن قال بعض العُلماء: إنَّمَا نهى عَنْ البيع لأَنَّهُ هو الأكثر والمعتاد؛ لأَنَّهُ هو السبب الذي جعل الصحابة يخرجون من عند الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتلقوا هَذِه التجارة؛ فيكون ذكر البيع ليس من باب التخصيص ولكن مِنْ باب ذِكر الغالب وأن كل مَا ألهى عَنْ ذِكر الله وعن حضور الصلاة فإنه باطلًا.

وقد يترجح القول الأول وَهُوَ التخصيص بالبيع لأَنَّهُ هو الذي قد يَرِّد غالبًا، لو أنك فكرت في معاملات الناس لوجدت البيع يقع كثيرًا في هذا الوقت، وعقد النكاح قليلٌ نادر، وإلَّا فربما يكون الانشغال بعقد النكاح أشد من الانشغال بالبيع، وعلى كل حالٍ: الأَمْر فيه سَعة.

نقول: بدل أن يعقد في هذا الوقت فليؤخر، والمشهور من المذهب عند الحنابلة: يصح النكاح وسائر العقود مَا عدا البيع وما في معناه كالإجارة، أما النكاح وبقية العقود فتصح، وعللوا ذَلِك: بأنها نادرة، والنادر لا حُكم لَهُ، وفيه وجه آخر في المذهب: أن النكاح وسائر العقود لا تصح لأن العلة الموجودة في النهي عَنْ البيع موجودةٌ في هَذِه العقود.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السادسة والستون: من قواعد القرآن أنه يُستدَّل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات]

وهذه قاعدةٌ جليلةٌ؛ فإن أكثر الناس يُقْصُر نظره على نفس اللفظ الدال على ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت صدور ذلك الفعل والقول، والفَطِن اللبيب ينظر إلى الأمرين ويعرف أن هذا لهذا، وهذا مُلازِمٌ لهذا. وقد تقدم ما يقارب هذا المعنى الجليل.

(الشرح)

تقدم عند القاعدة؛ وهي: بيان الدلالات وأنها دلالة مطابقة وتضمن والتزام، فالقول السيء يلزم منه الخُلق السيء، والقول الحسن يلزم منه الخُلق الحسن.

(المتن)

ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه على أسلوبٍ آخر، فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمن أنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]، وذلك صادرٌ عن وقارهم وسكينتهم وخشوعهم وعن حِلمهم الواسع وخُلقهم الكامل وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين.

ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: 17]، يدل مع ذلك عَلَى حُسن إدارة المُلْك وكمال السياسة وحُسن النظام.

التعليق:

يعني كلٌ في عمله الخاص، وهذا لا شك دليل على حُسن إدارة المُلك؛ لأننا لو جعلنا الأعمال كلها عند طائفةٍ واحدة وعند شخصٍ واحد لانهارت أعصابه وعجز عَنْ تدبير المُلك؛ فإذا وُزِعت وقال: هذا على المال، وهذا على السياسة، وهذا على كذا. فهو خير.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55]، يدل على حُسن الخُلق ونزاهة النفس عن الأخلاق الرذيلة وعلى سِعة عقولهم وقوة حِلمهم واحتمالهم، ومثل الإخبار عن أهل الجاهلية بتقتيل أولادهم خشية الفقر أو مِنْ الإملاق يدل على شدة هلعهم وسوء ظنهم بربهم وعدم ثقتهم بكفايته، وكذلك قوله عن أعداء رسوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: 57]، يدل على ظنهم بالله وأن الله لا ينصر دينه ولا يُتِم كلمته، وأمثلة هذا الأصل كثيرةٌ واضحةٌ لكل صاحب فكرةٍ حسنة.

التعليق:

معنى هَذِه القاعدة: أن الأفعال والأقوال إذا صدرت من شخص استُدِل بها على حاله كمالًا كان أَوْ نقصًا؛ فإذا وجدنا هذا الرجل مثلًا متأنيًا في أموره متدبرًا لما يقول وما يفعل استدللنا بذلك على كمال عقله ووفور ذهنه، وإذا رأينا الأَمْر بالعكس استدللنا على سوء عقله وتدبيره؛ فيُستدَّل بالآثار على المؤثر؛ هذا هو الخُلاصة: آثار الشيء يُستدَّل بها على مؤثرها.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السابعة والستون: يُرشِّد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المُحَقَق عند ورود الشبهات والتوهمات]

وهذه القاعدة جليلةٌ يُعبَّر عنها: بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يُعارِض المُتيقَن، ونحوها من العبارات.

وقد أرشد الله في مواضع كثيرة:

منها: لما أخبر عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المشتبهات أنهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7]، فالأمور المُحكَمة المعلومة يتعين أن يُرجَّع إليها الأمور المشتبهة المظنونة. وقال تعالى في زجر المؤمنين عن القدح في إخوانهم المؤمنين: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: 12]، فأمرهم بالرجوع إلى ما عُلِم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم، ولا يعتبروا كلام مَنْ تكلم بما يناقضه، ويقدح فيه.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69]، فوجاهته عند الله تَدفعُ عنه وتُبرئه من كل عيبٍ ونقص قال فيه مَن آذاه؛ لأنه لا يكون وجيها عند ربه حتى يَسلم من جميع المنقصات ويتحلى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم. فيُحذِّر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك مَن آذى موسى مع وجاهته، فيؤذوا أعظم الرُسل جاهًا عند الله، وأرفعهم مقامًا ودرجةً، وقال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 32].

وقال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: 6].

[القاعدة الثامنة والستون: ذكر الأوصاف المتقابلات يُغني عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلومًا]

وهذه القاعدة في القرآن كثير يذكرها في المقامات المهمة كالمقابلة بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وبين إلهيته الحق، وإلهية ما سواه، فيذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها ويدع التصريح بالمفاضلة إِلَى العقلاء، قال تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39].

وقال تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [النمل: 59-60]، والآيات التي بعدها: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: 29].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: 24].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 140].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 59].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، وقال مثلها: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]؛ فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة، لعلمه من المقام، فقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ إلخ؛ يعني: كمَن ليس كذلك، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب، كقوله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22].

ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي وما يدعو إليه وأعظم الناس معارضةً له قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: 24]، ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: 5-6]،

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، وذلك أنه إذا مُيزت الأشياء تمييزًا تامًا وعُرِّفت مراتبها في الخير والشر والكمال والنقص صار التصريح بعد ذلك بالتفضيل لا معنى له، والله أعلم.

التعليق:

السؤال عَنْ الشيء المعلوم لا حاجة إلى أن يُجاب عنه: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معلومٌ أن الله خير.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: 60] إلى آخره...وهكذا، فالشيء المعلوم لو ذُكر لكان الكلام فيه لغوًا لا فائدة منه.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9] يعني: كمَن هو غافل لا يقنُت في الليل ولا في النهار على الوصف الذي ذكره الله تعالى، وهكذا فإن الشيء المعلوم يُغني عَنْهُ ذِكر مَا يقابله مما هو معلومٌ أنه خيرٌ أو شر.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة التاسعة والستون: مَن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه]

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة.

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله،

فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين.

وإبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

وسليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمال ألهته الخيلُ عن ذكر ربه فأتلفها؛ عوضه الله ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: 36-37].

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، وهب لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب التوفيق والراحة وجعلهم هدايةً للضالين.
﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91].
ومَن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق جميع لذات الدنيا.

التعليق:

هذا شيءٌ مُشاهَدٌ: أن الإنسان إذا ترك محارم الله عَزَّ وَجَلَّ خوفًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورغبةً فيما عنده من الثواب؛ فإنه يجد في قلبه لذةً وحلاوةً وحبًا للخير لا يمكن أن يُوصَّف، وإذا انغمس الإنسان في شهواته وفي لهوه وغفلته صارت هَذِه الشهوات والغفلة والله حسرةً عليه وتجده يكون منقبضًا إذا فارق هَذِه الشهوة طرفة عين.

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما استسلم لذبح ابنه وَهُوَ أحب شيء إليه في الدنيا ورثه الله جَلَ وعَلَا الخُلة فاتخذه خليلًا، وقال تعالى عَنْ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: 33] قال العلماء والمفسرون من السَّلَف؛ معناه: أنه صار يضرب رقابها وأرجلها، السوق: جمع ساق، والأعناق واضحة، وذلك أنه غضب لله عَزَّ وَجَلَّ على نفسه، وحرم نفسه هذا الأَمْر الذي ألهته به عَنْ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإتلاف المال للمصلحة جائز. مثاله: إتلاف المال للنكاية، فالغال من الغنيمة يُحرَّق رحله ولا يُجعَّل مع الغنيمة؛ لأَنَهُ أنكى، وإلَّا لقلنا: كل العقوبة بالمال تُنسَّخ، ولكن نقول: مَا يترتب على إتلافه من المصالح أكثر من كونه مَا لا. ولكن هل من المشروع لنا إذا ألهانا شيءٌ عَنْ ذِكر الله أن نُتلفه؟ نعم، لا مانع أن نُتلفه لأجل تعزير النفس وردعها حتى لو كان هذا الشيء من بهيمة الأنعام؛ لأن ضررها عليك، والزوجة إذا ألهته عَنْ الصلاة هل يُشرَّع أن يطلقها؟ يُنظَّر في هذا، وإلَّا لا شك أنها إذا ألهته عَنْ طاعة الله أن هذا من شؤم المرأة أن تكون سببًا لإلهاء الإنسان عَنْ طاعة. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14] فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن من أزواجنا مَن يكون عدوًا لنا ويُحذِرُنا من ذلك، وهذا هو الواقع تجد بعض النساء تطلب من زوجها أن يذهب بها إلى السينما، أَوْ أن يسافر بها إلى الخارج وأن يُمكِنها من رؤية النساء الكاسيات العاريات...وما أشبه ذلك، وبعض الناس -والعياذ بالله- ليس لَهُ إلَّا الشهوة فقط؛ فهذه المرأة محل شهوته لا يهمه أن يأتي بكل ما تريد فيُبطِّل رجولته عند وجود شهوته.

قال الشَّيْخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة السبعون: القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه]

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في مُحاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل على هذا الأصل.
ويُعرِّف الخلق أن العصمة من الشرور كلها التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده وأخلاقه وآدابه وأعماله.
ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: أهل الشر والفساد نوعان:
أحدهما: المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء وإقامة الحُجج والبراهين على فساد أقوالهم شيءٌ كثير، لا يأتي مُبطِّلٌ بقولٍ إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي، ففيه الرد على جميع المبطلين

من الدهريين والماديين والمعطلين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدّلة والمنسوخة من اليهود والنصارى والأميين

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]، يذكر الله حجج هؤلاء وينقُضها ويُبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف، وتفصيل هذه الجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني: من المقومين للأديان والدنيا والسياسات والحقوق الشيوعيون الذين انتشر شرهم وتفاقم أمرهم وسرت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العُشب الهشيم ولم يكن عند الأكثرين ما يرد صولتهم ويقمع شرهم، وإنما عندهم من الأصول والعقائد والأخلاق والسياسات ما يُمكِن أمثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد، ولكن ـ ولله الحمد ـ القرآن العظيم والدين القويم قد تكفل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم، وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردهم على أعقابهم منهزمين. فما فيه من العدل ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم وما فيه من إيجاب الزكاة والإلزام بها، ودفع حاجات الفقراء والمضطرين ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية ووجوب حِفظ الأملاك والحقوق؛ كل هذا أعظم سَجٍ وأحسن حصنٍ للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين.

وكذلك ما حَضَّ عليه القرآن من لزوم الآداب العالية والأخلاق السامية والأخوة الدينية والرابطة الإسلامية يمنع من تغلل شرورهم التي طريقها الأقوم تحليل الأخلاق وانحلال الآداب وتحلل الروابط النافعة، والثورة العامة على الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون، فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية والتسلط على العباد بالقهر والاستعباد والطمع والجشع فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعِج المُخرِب المدمر لما مر عليه، فما معهم من سلاحٌ يقاوم سلاحهم، ولا قوةٌ تجابِه قوتهم، لكونهم لم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العِصمة والقوة المعنوية والصلاح والإصلاح والعدل ودفع الظلم والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب، بل تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق.

فإذا جاء هؤلاء المفسدون بالتعطيل المحض والإنكار الصرف؛ أبدى القرآن من الحُجج والبراهين على وجود الله وعظمته وتوحيده وصدقه وصِدق مَن جاء به ما تصدعُ له الجبال وتخضع له فحول الرجال، وإذا تسرب هؤلاء الأشرار لتوسط الأخلاق الرذيلة وانحلال الآداب الجميلة ووجدوا مسلكًا في هذا الطريق يُعينهم على تنفيذ باطلهم جاءهم هذا القرآن بالحث على الأخلاق العالية والأعمال الصالحة والآداب الجميلة التي لا تدع للشر على صاحبها سبيلًا، وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة واحتجوا على أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة واستعبادهم للعباد واستبدادهم بالأملاك والأموال، ولم يجد هؤلاء قوةً عليهم وليس بهم طاقةٌ بوجهٍ مِنْ الوجوه؛ تصدى هذا الْقُرْآنِ العظيم بعدله وقِسطه وإيجابه الحقوق المتنوعة الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات لصدهم ومقاومتهم وإبطال كل ما به يصولون ويجولون.

ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم ونظامه الحكيم وهديه القويم، وحثِه على سلوك الصراط المستقيم ونوره الساطع وحججه القواطع لم يبقَ في وجهه باطلٌ إلا محقه ولا شرٌ إلا سحقه ولا بقيّ مَن قصده الحق والصواب إلا اختاره واعتنقه، ولا تأمله صاحب عقل ورأيٍ إلا خضع له؛ فهو الحصن الحصين من جميع الشرور، وهو القاهر لكل مَن قاومه في كل الأمور.

قال الشَّيْخِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[القاعدة الواحدة السبعون: في اشتمال كثيرٍ من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني]

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود في وضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك التي ترجع إليها كثيرٌ من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها، فإنها ترجعُ إلى أصلٍ واحد، وقاعدةٍ كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيرًا منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيلٌ من حكيمٍ حميد وعلى صِدق مَن أُعطيّ جوامع الكَلِم، واختُصِر له الكلام اختصارًا.

ولنُمثِل لهذا النوع أمثلة ونذكر أنموذجًا منه:

فمنها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: 46].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26﴾.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: 10].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90].

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8].

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: 20].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6].

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: 44].

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: 30].

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128].

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81].

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: 19].

﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18].

﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: 22].

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88].

﴿وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: 237].

﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 85].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 11: 21].

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: 115].

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114].

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24].

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 80].
﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: 21] الآيات.
﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40].
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126].
﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194].
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].
﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: 91].
﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157].
﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40].
﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].
﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم: 76].
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].
﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78].
﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 233].
﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].
﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33].
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].
﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: 7].
﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: 53].
﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: 58].
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل كلمةٍ منها قاعدة، وأصلٌ كلي يحتوي على معانٍ كثيرة.

وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيءٌ كثير، وهي متيسرةٌ على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانية ولله الحمد.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد يسر الله تعالى أن مَنّ علينا بجمعه، فجاء - ولله الحمد - على اختصاره ووجازته ووضوحه كتابا يَسُر الناظرين ويُعين على فهم كلام رب العالمين، ويُبدي لأهل البصائر والعلم من المآخذِ والمسالك والطرق والأصول النافعة ما لا يجده مجموعًا في محلٍ واحد، ومَخبرُ الكتاب يُغني عن وصفه.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجه الكريم، مُقربًا لديه في جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، والناظر فيه وجميع المسلمين، بمَنّه وكرمه وجوده وإحسانه وهو خير الراحمين.

وصلَّ الله على محمدٍ وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى الله في كل أحواله/ عبد الرحمن بن ناصر عبد الله السعدي.

وقد تم ذلك في (6 شوال سنة 1365 هـ)

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

(الشرح)

هم كتبوا: عبد الرَّحْمَنِ بن ناصرٍ؛ عرفَ العبد. لعله يردي: عبد الرَّحْمَنِ بن ناصرٍ العبدُ لله، أي: عبد الرَّحْمَنِ هو العبد، هذه ما تصح -والله أعلم- ما أظنه قالها، لو أَنَّهُ قال هذا لكا واضح. عبد الرَّحْمَنِ بن ناصر عبد اللَّه السِعدي -هكذا تصح-.

التعليق:

انتهينا من دروس القراءة في كتاب شيخنا العلامة عبد الرَّحْمَنِ بن ناصر السِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ، ونرجو أن نكون قد استفدنا، والكتاب جديرٌ بالعناية والشرح.

(الشرح)

كأن الشيخ هنا يقول: هذا الكتاب يستحق شرحًا وافيًا، فعلًا الكتاب يستحق إلى شرح وافي.

(المتن)

لِمَا فيه من فائدةٍ كبيرة لطلاب العِلم.

والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّ الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

محمد بن صالح العثيمين.

(الشرح)

ونحن نقول أيضًا: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والله أسأل أن يجعل قراءتنا هَذِه حُجةً لنا لا حُجةً علينا، وأن ينفعنا بما قرأنا وأن يوفقنا للمزيد من فضله إنه سميعٌ قريبٌ مجيب الدعاء.

*****

هذا والحمد لله، والصلاة والسلام عَلَى رسوله